سلسلة الأعمال
(شبه) الكاملة
(1)

نوارس الحكايات

محمد بن سيف الرحبي



نوارس
الحكايات

نوارس الحكايات

المؤلف: محمد بن سيف الرحبي

(قاص من سلطنة عمان)

الطبعة الأولى: 2013 (مسقط)

الناشر:



بيت الغشام للنشر والترجمة

مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير

(سلطنة عُمان - مسقط)

للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 98889342 - 99260386
ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320
www.altakween.com

تصميم الغلاف :

أحلام بنت محمد الرحبي

رقم الإيداع 203 / 2013

إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال في غد، لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا، لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل؟! وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

العماد الأصفهاني

الأعمال (شبه) الكاملة

سرنا على درب الحكاية، طويلاً، وترددنا.. كثيراً.

وبين حكاية وأخرى ثمة حكاية بقيت على حافة الشفاه تترقبنا.

وعلى مـدار ربع قرن من الالتصاق بالحكايـة كتابة انسلّت الكلمات لترسـم شخوصها وأحداثهـا ومتخيلها، لتقدم فـي عشرين عاما خمس مجموعات قصصية، تناثرت بين مسقط والقاهرة وعمّان وبيروت.

خمسـ خطوات، بهـا من أخطـاء التجربة، وقصورهـا، ما لا يمكن القفـز عليه، لأنه ما يعطـي التجربة صدقها، والـدرب خطوته الحقيقية بمنأى عن المراجعة والحذف والتعديل، فالجملة الواردة في الصفحات الأولى في المجموعة القصصيـة الأولى اختصرت ملامح الدرب على لسـان الأصفهاني حيث كل عمل به من القصور ما يرى المرء فيه أوجها دائمة للتعديل وكتابة الأفضل.

لتبقـى الحكايـات كما قيلت فـي حينها، بـذات اللغـة، على ذات الخطـوات، بأخطائهـا وخطاياها، تـروي مساراتها كما مـرّت، وكيف تطورت ونضجت، وكيف تحولت.

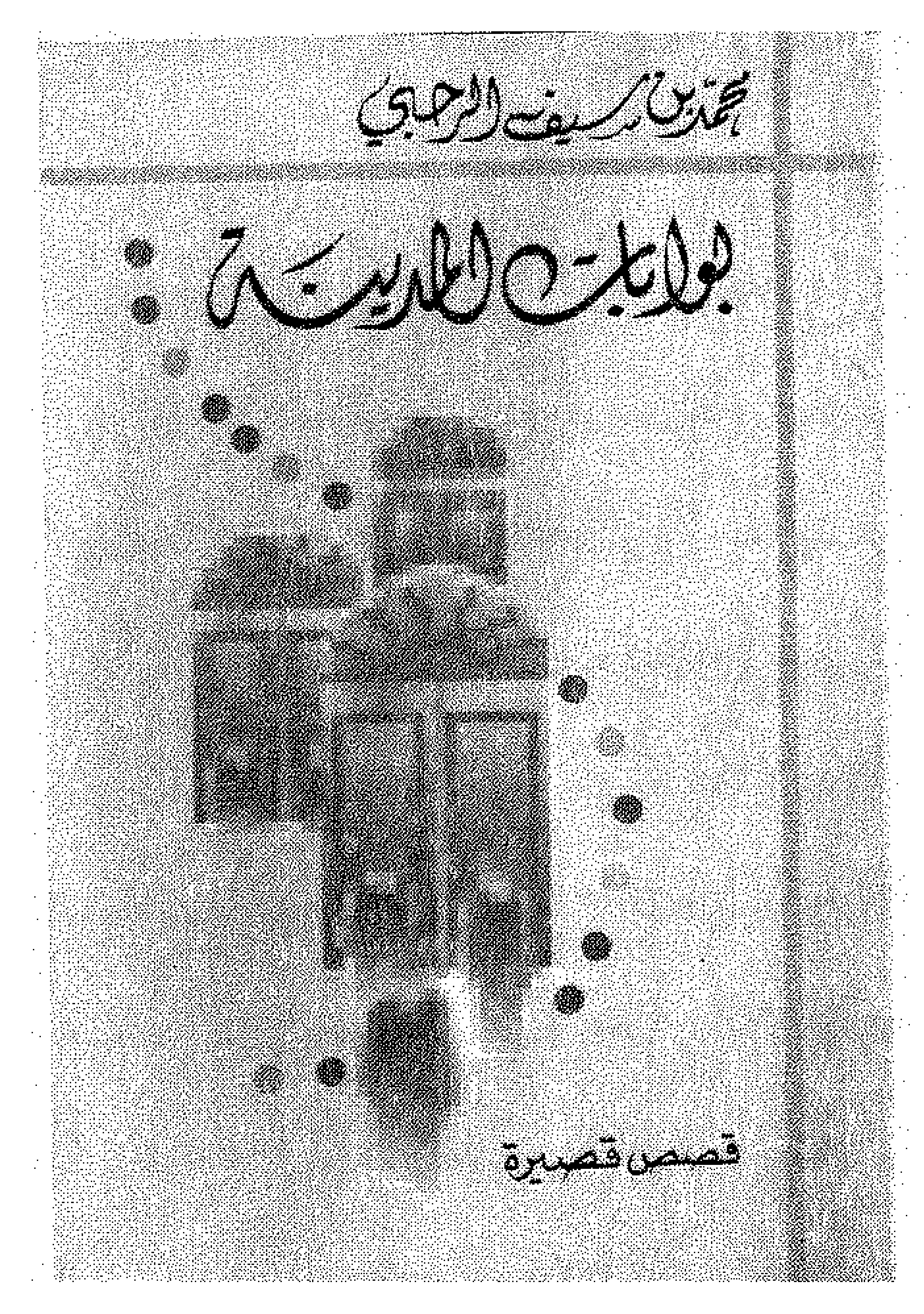
لا وجود لعمل كامل.. ولا لتجربة تدعي الكمال.

مجبولـون على النقص، وعلى ارتياد التجـارب الجديدة في محاولة للاقتـراب مـن الكمـال، أو بالأحـرى للتقليل مـن أوجـه القصور قدر الإمكان.

ومنـذ أن أغوتنـي الحكايـة بكتابتها أردتهـا التعبير الـذي يدهشني ككاتـب في المقام الأول، لأنها مزاجـي الخاص، ليراني الآخرون فيها الذات الباحثة عن فضاءاتها برسم ملامح الآخر، وإلباسه الحدث، مرورا بالمخيـال القادر على فعـل الدهشة ومقاربته مع واقعيـات نكاد نلمسها تمشي بيننا وتنام في غرفنا، ونلقمهـا هواجسنا، وشهواتنا، وحروبنا.. مع أنفسنا، أو مع الآخرين.

وبعد أن آوت مجموعاتـي القصصية إلى النسيان، حيث نفاد الطبعة الأولـى، أو تواريها لأسباب عدة، رأيت أن جمـع الحكايات في إصدار واحد يعطي شاهـداً على تجربتي القصصية، للقـراء أو الباحثين، بدلا من البحث عنها منفردة، وغالبا لا تكون متوفرة.

بيـن يديك عزيزي القارىء تجربتي، منـذ البدايات الأولى، وصولاً إلـى النهايات قبل الأخيرة، مجموعة شبه كاملـة، فربما تأتي حكايات أخرى يجود الزمن والعمر.. بها.



الطبعة الأولى - مسقط 1994

ذاكرة لها طعم الموت

الفضاء الواسع أمامه يمتد طولا وعرضا دون أن تبدو في الأفق ملامح رغبة ضمّها القلب المنكسر طوال السنين التي عاشها محروماً من حريته في سجن قميء مبلل.. حتى السماء الزرقاء الصافية - أو تبدو له صافية - تتقمص له في شخصية المستقبل القذر الذي ينتظره.. ما أمامه ليس إلا خيالات مظللة لواقع جديد يعيشه الآن أو هو العودة إلى الواقع القديم الذي لم يفصل بين جديده وقديمه سوى سنوات السجن.. آه.. السجن.. وعادت به الذكرى عشر سنوات إلى الخلف ليرى بداية المأساة التي بدأت خيوطها في التجمع عقب يوم احتدمت فيه كل تناقضات الحياة لتصب في عقله.. «لماذا حاولت قتلها؟».. لأنها خائنة.. «هل لديك دليل»؟!.. الخيانة هي الشيء الوحيد الذي لا يحتاج منا لدليل.. وها هي السنوات قد طويت على كاهله ورياح الخيانة تزكم أنفه الواسع بحيث لا تمكنه من شم رائحة شيء آخر إلا رائحته.. عشر سنوات زحفت على جسده الأسمر لتحفر فيه آثار أقدامها، واستوطنت ذاكرته لتدميها حتى النخاع.. «لماذا حاولت قتلها».. انه الشرف.. و«هل الشرف يأمرك أن تقتل؟».. نعم عندما يكون القتل هو الطريق الوحيد للحفاظ على شيء رائع.. وصدر الحكم عليه وقتها بالسجن عشر سنوات وجاءته الكلمات المسمومة خنجرا ينغرس في قلبه «نال جزاءه».. عشر سنوات ترتع في مخيلته لكنها لم تنسه شيئا اسمه الخيانة وما

زال صدى صرخاتها يتوالى على ذاكرته بسرعة متناهية كقطار منطلق يشق السكون وسط ليل هادئ.

.. «أكرهك».. «أكرهك» وما زالت كلماتها تدق بقوة في رأسه التي نال منها التراب مساحات كبرى تشكلت كخرائط في كراسة طفل يتعلم الرسم.. ليس المهم أن تكرهيني بل المهم هو الشرف.. هذا ما قاله لها ذات يوم.. ويوم آخر يطرق عقله بين الحين والآخر كناقوس ثقيل يدق في كنيسة صدئة متآكلة.. ما أجمل السجن عندما يكون عقابا على جريمة استرداد لشرف.. الحياة أهون من الخيانة وأن ضياع الحياة أهون من ضياع الشرف.. الوحدة التي أحسها في أول يوم له بين تلك الجدران شيء لا يحتمل.. الجو الخانق يلتف حول رقبته ليقطع أنفاسه اللاهثة ورائحة الرطوبة تتجمع كحشرات لزجة تتعلق في جسده دون أن تكون لديه القدرة على إبعادها.. «أما كان طلاقها أفضل من قتلها»؟!.. قيل له ذلك ذات يوم ليأتيه الجواب سريعا منطلقا على حافة لسانه.. في أول ليلة لم يذق طعم النوم، كان قلقا أن لا يتحمل أو يضعف.. أحس بالضياع ينهش ذاكرته المتعبة ليمزق تفكيره إلى أجزاء صغيرة يلفها سراب باهت يحاول أن يتعلق به دون أن يعرف ما هو؟.. صعب أن نتمنى ما لا نعرف. أن لا نعرف ما نتمنى.. عشر سنوات مرت، سنوات أخرى أمامه في انتظار أن يعيشها، الدنيا أمام عينيه، تلك التي تصورها طيلة سنواته العشر وراء بوابة السجن.. ما أكثر ما عاودته الأحلام بالخروج من هذه البوابة، وها هو الخروج قد طرق بابه، لكنه ذلك الطرق الذي يخلف في الجسد المهترئ رماد الذكرى، ورائحة الخيانة تزحف مرة أخرى إلى جسده لتغتال آخر قطرة فرح يحملها قلبه سعادة بالخروج.. ما أقسى الحياة عندما

تتراءى لنا شبحا مخيفا للماضي نحاول اغتياله وشبحا مجهولا للمستقبل نحاول اصطياده وعدم الاصطدام به.. الأشد قسوة أن نعيش بين الشبحين معا.

الفضاءات الممتدة ما زالت تصرخ معلنة عن بدء الحرية التي حرم منها فترة من الزمن. محاولة الهرب من شبح الماضي لم تنته بعد، وما زال شبح المستقبل فاغرا فاه مكشرا عن أنيابه ينتظره أمام بوابة السجن..

« انني الآن في نظر الناس مجرم.. وخريج سجون » قالها وهو يخطو أول خطوة له بعد أن حسب أن قدمه أصبحت - لطول وقفته - قطعة من الأرض.. توقف.. «قد خرجت ولكن إلى أين»؟.. وهل كل تلك المساحات الهائلة من الاتساع باستطاعتها إيواء جسدي على الرغم من هزاله.. نعم قد تستطيع ذلك ولكن هل بإمكانها أن تفعل نفس الشيء ولكن لتضم مأساتي وثورتي وجنوني.. باسم العدالة دخلت السجن، فهل لتلك العدالة أن تحميني من نفسي ومن الألسنة..

خطوات وراؤها خطوات ستتبعها تحملني إلى حيث يسكن المجهول وتعشش الذكرى كغراب قبيح الوجه ينعق في وجهي بالشؤم و.. وبالخيانة.

سيارة تخترق الطريق الموصل إلى حيث يقف فيمد يده إليها مؤشرا لسائقها بالوقوف.. يحملق السائق في وجهه دون أن يفتح النافذة أو الباب.. يذهب عنه، قطرات من الدمع تتجمع في عينيه في محاولة فاشلة لغسلهما من غبار الحياة وغبار السجن لكن الدمع تخنقه تلك المآقي الضيقة.. « انني احمل الآن سنوات سجني كتاج قذر فوق رأسي يراه حتى من لا يعرفني.. الذهاب إلى البيت يعني أن أجر قدمي إلى حيث تسكن الذكرى المقيتة

التي حاولت أن ادفنها في رمال السنين طيلة عشر سنوات لكنها أبت إلا أن تظل كبركان ملتهب لا يهدأ إلا ليثور.. ذلك البركان يطغي في أعماقي على أي محاولة يائسة للوقوف على أول الطريق.. صوت السرير الخشبي سيصرخ في وجهي « الخيانة.. الخيانة » الطاولة المقلوبة في غرفة الجلوس ستدمي قلبي النازف لأنها ستذكرني بالوضع المقلوب في معادلة الحياة.. « الخيانة طريق للسعادة والشرف طريق للسجن ».. ما أتعسها بل ما ألعنها من معادلة.. حتى الكأس التي سأشرب منها سأرى فيها صورة مائية لوجه قبيح، وفي زجاجة العطر عش مقيت لرائحة شيئين نتنين هما الخيانة والسجن.. حارس السجن ينظر إليه بغضب كأنه يأمره بالانصراف ثم يأتيه مقتربا منه.

- ماذا تريد أيها الرجل؟

- طريقا واضحا

- إنها أمامك

- مهما مشيت عليها لن أصل

- من سار على الدرب وصل..

- هذا إذا كان هناك ما أريد الوصول إليه.. انني ابحث عن طريق يكون مساحة بيضاء تعاملني كطفل لا يحمل ذنبا ولم يعرف طعم الانتظار وراء قضبان حديدية.

- ذلك الوهم بعينه

- ليت الوهم يبقى صورة خالدة في رأسي.. كنت على الأقل اعرف شيئا بدل ان لا اعرف.

- الحياة بانتظارك تفتح لك ذراعيها

- الحياة لا تفتح ذراعيها إلا بعد أن تأخذ ثمنا وقد يكون عظيما. والباقون الذين عليها؟!

- ما خلقت الكلمات التعسة إلا لتكون لهم رداء وتعزية.

وطوى الصمت حديثا عابرا ممزقا بين إنسان خرج للحياة بحس قاتم وبين آخر عاش الحياة ببصيرة مغلقة.. الحيرة ما زالت تلبد سماء تلفها سحب سوداء.. سيري في الناس الوجوه الكالحة التي تشمئز منه خوفا وسخرية.. الخوف منه لأنه مجرم.. والسخرية لأنها خانته.. من السخافة أن يسعى الإنسان للحفاظ على شرفه فيدعى مجرما ويسخر منه لذنب ارتكبه غيره.. حتى المجتمع يتحول إلى فارس يسدد سهامه إلى مخلوق أحب الشرف حتى القتل، وجاءت العاقبة لتتنافى مع العدالة، اختلت كفتا المعادلة.. كفة تحمل عبارة خانته زوجته فأراد مسح الخيانة دون عار.. وكفة أخرى عليها عشر سنوات من اللاحرية.. وحدة وانعزال وتحطم نفسي.. وعشر سنوات مسحت من قاموس حياته، حرمان من العمل - مصدر الرزق - وحرمان من اجتماعيته كإنسان.

سار يجر قدميه يضرب الشارع بكعب حذائه بقوة كأنه بضرباته تلك يخفف نارا ما زالت تأكل جسده.. أسرع في خطواته أكثر كأن هناك شبحا يطارده، يخاف أن يلحقه.. «إلى أين»؟.. دار هذا السؤال في رأسه، طرده، لا يملك الإجابة عليه.. قدماه تتحركان بصورة آلية تحملان جسدا مخيفا، عليه من الهموم جداول مرهقة.. لم يرفع بصره ليرى من حوله تجنبا للنظر في وجوههم، كأنهم يعرفون ما يفكر فيه.. ومن أين أتى؟! تخيلّ سكان الأرض اجتمعوا في صفوف متراصة ليتهامسوا سخرية منه.. «المجرم الذي أرد أن

يقتل والفاشل الذي لم يعرف كيف يغسل عاره وزوج الخائنة التي تزوجت فلانا الثري بينما رمي هو في السجن ككلب قذر».

اصطدم في سارية عمود كهرباء، تخيله وحشا كاسرا يلعنه، والدنيا تدور به في حركات دائرية مخيفة، خطوط الشارع ترقص أمامه رقصات هستيرية ضاحكة.. ساخرة.. اللافتات على واجهة المحال التجارية رأى في حروفها ثعابين تتحرك تغير من هيئتها السابقة لتتجمع في عبارات ساخرة رافضة اياه.. ضحكات صارخة تتجمع في رأسه.. قهقهات تتجمع منطلقة من هنا وهناك تبتلع المكان أمامه.. الخيانة.. الفشل.. الضياع.. وما العنها من كلمات.

« السجن ارحم » فجأة صفعت رأسه هذه الكلمة وبنفس سرعة مجيئها أقنعته بمصداقيتها.. « السجن ارحم » قالها لنفسه وهو يلتف بحركة نصف دائرية « السجن ارحم » حتى أجد بصيص أمل يقودني لا اعرف إلى أين اخرج.. يعود أدراجه مرة أخرى.. « سيكون السجن رحمة في حياة لا طعم لها، ومن وجود لا مكان لي فيه إلا في شوارعه.. وحتى الشوارع تتحول أحيان إلى ثعابين قطبية تتحرك أمامه ببهلوانية غير مألوفة ».

السجن حيث يجد مكانا ينام فيه دون أن يحس في صوت أخشابه قهقهة العار.

- أريد أن أدخل.

قالها لبواب السجن.

أجابه بنظرات حادة تحمل الخشونة القاسية.

- الزيارة ممنوعة الآن.

- أنا لا أرغب في الزيارة.. أريد الإقامة.

- انصرف.. وإلا.

- وإلا. وإلا ماذا؟.. ستسجنني.. تلك أمنيتي.. أريد أن أعيش هنا.

- بصفتك ماذا؟

- سجين.

- ولماذا نسجنك؟

- لأنني أريد ذلك.. المساجين هنا لا يعرفون طعم المعاناة من سخرية معذبة لأنهم جميعهم يدورون في فلك واحد.. «تعددت الجرائم والسجن واحدة».. من فضلك اعطني فرصة لأنال لقب سجين إلى آخر العمر.

- لا تضيع وقتي فيما لا طائل منه.. انك مجنون بلا شك.

انطلقت الدموع تجري بغزارة.. «عندما لم اركن ارغب العيش بين قضبان سجنكم أخذتموني إليه بالقوة تحت ستار الجريمة وعندما أردته أنا رفضتم رغبتي.. إلى متى هذا التناقض يعصف بكم؟.. دخلت السجن لأنني أحب الشرف وتركتم الخائن يعيش سعيدا كما أراد.. حتى السجن يرفضني حينما يبقى أمل وحيد لا يتحقق وسط حياة حطمها السجن».. زوابع ضبابية تتجمع أمام بصره وروائح القضبان الحديدية الصدئة تتزاحم للوصول إلى أنفه ورائحة الذكرى تصفع وجهه بقوة شرسة.. لكن كل تلك الروائح ما هي إلا مقاطع بسيطة من موال رائحة أكبر لشيء يدعى الخيانة.. وللخيانة رائحة أيضا.

إنها اللعبة

أضع وجهك فوق أشيائي القديمة وأغلق عليه خوفاً من دهر يحيله إلى مجرد جامد. تغزوني ملامحه كل حين فأحاول أن اقفل أبوابي حتى لا يقلق - وجهك - وحدتي مع قلبي.. دعيني أمسح عينيك الباهتتين - كأيامي - من بقايا ما يكر زرقتهما.. "الخوف" سفر آخر يصفع تذكاراتي القديمة ورسائلك المنحوتة ترقد في داخل بقع الصمت كما أردت لها.. لكنها الآن لا شيء سوى جثث بائسة في مشرحة أكثر بؤساً.

رنين الهاتف يتحول إلى صرخات موتى تسقط أعصابي قبل أن تصل أذناي.. أرى وجهك في شموع أعياد ميلادنا وأفراحنا وفي أوراقي القديمة وذكرياتي المتصلبة كقطعة صخر. أرفع سماعة الهاتف فلا أجد إلا الفراغ يصرخ في أذناي وصوتك ضائع في كل تلك المسافات التي تنالها عيناي واحجار الكون تملأ الفجوة بين صوتك وسمعي.

صراخ النائحات وبكاء الصبايا في موكب الرحيل لم يعد يكفي لاخراج دمعة وذلك المجنون الذي وصفته بأكبرنا عقلا رأيته يضع رأسه بين يديه وينتحب ووحدي الذي لم أستطع أن أطلق أي موال من مواويل المآتم.. لم يعد للحزن بقية، ولم تعد المأساة تقطن صدري وحدها، والدمع ضمير عاجز يتكلم وينام في أعماق حفر ردمتها الرياح ونام كل الكون إلا ذرات التراب ظلت مستيقظة على جسدك الطاهر، تنبض الرمال والأتربة لترجع صدى نبضاتي.. آه لو تنام

بجوارك أيها الملاك.

- دمعها بركة عطر وقصيدة شوق تهتف بالخلود

- دم الشهداء أيها السادة.. دم الشهداء أيها الخائفون من كل شيء الراغبون في كل شيء.. يتجمعون حولك يحملون جسدك إلى تلك الحفرة المظلمة.. لا أتكلم.. عيناي فقط تنطقان عيني واللفافة البيضاء ترقد في التربة الأم. للمرة الأخيرة أمسح عينيّ في جسدك الدافئ أيتها الأميرة، والتراب يتهاوى على البياض عشقا أبدياً عشق أبدي يدمي العيون الجوفاء التي تمد نظرها إلى عيني تبحث فيهما عن آثار دمع.. "عفواً أيها الحمقى.. لا أملك دمعاً فقد بعته في أسواق الشعارات والخطب.. دفنته في أكفان السجع والبلاغة".

المجنون يقترب من الملتحقين حتى يصبح واحداً منهم.

- ما الذي يأتي بالمجانين في موكب القداسة؟

- هي وحدها فقط.. أنا أيضا يقولون الحكمة في رأسي

- انصرف...

....

* * *

أغدو احمل جثتي المعتقة بروائح الغبار لأرصد وجهك في ذاكرتي.. والمدى يزحف ورائي يرقب خطواتي المبتعدة عن مأوى جسدك.. لا يا أميرة الأفراح لا وقت عندي للنزيف بل للوداع.

الليلة الأخيرة تقبع خلف جمجمتي تشاركني مأتمي.. "سيأتي عليك زمان أيها العاشق المحترف، والآخرون الذين حولك يشنقونك باسم الحب ويقتلونك لأنهم يحبون لك الحياة".. في ليلتنا تلك أغمضت أجفاني لأتوسد

رأسك لكنه كان خاويا، وكان بعيدا عني آلاف الأميال، وعندما وصلت إليه كان رأسك أيتها الأميرة مدبباً، ثم اصبح كحد السكين قلت لي: اشنق نفسك فحصاد السنين ان تنهي أنفاسك بمحض اختيارك لم أفهم يومها أنك كنت تعبثين بالقدر

..وجسدي الممل وجسدك أودعته التراب.. خذي جسدي وضميه بين دفء التراب المتشوق للحظة العناق واعطني جسدك المالح بروائح العرق والرطوبة. ارمي بذلك الذي يدعى جسداً على كرسي مهترىء وأنظر إلى كرسيك الفارغ سوى من طيفك فأضع عينيَّ عليه لأملأ حزناً ووجعاً.. والستارة الحمراء تلعب مع الريح ثم تضطرب كمريض يحتضر.. أسبلت جفني لأتوسد خيالك وأرنو إلى الأفق الأسود الممتد أتعقب أرقى.. ها أنت أيتها الأميرة تلوحين من بين الأطياف والليل من حولي كقارة من الضياع والجدران الأربعة تحاصرني، تزحف على صدري.. أنا مثلك أيتها الغائبة اتنفس داخل قبر أكبر من جسدي لكنه عاجز عن احتواء أنفاسي.

الباب يرتعد.. يزمجر في غضب وأنا لا أقوى على الوقوف.. اصرخ..

- من يسأل عن جثتي الآن؟

- ....

- هل لديك فرح أيها القادم؟

- ....

أسألك بالله دع الباب واعطني رحمة فأنا لا أقوى على رؤية أي جسد.. ينفتح الباب فلا أتبين القادم.. أدعك عينيّ لأزيدهما نقاء.. أي قدر هذا؟!.. أي عقل هذا؟!.. أي جنون؟!.. كيف انسللت من بين ركام الأعاصير؟!.. كيف

اقتلعت تلك الأحجار المصفوفة على جسدك؟!

- مللت الظلمة فجئت أبحث عن بصيص نور!

- ليس مبررا أن تغادري قبرك.. الدنيا كلها قبر كبير.. هل فهمت؟!

- الشهداء غالبون لا يفهمون، عليهم فقط ان ينتحروا ليصفق الآخرون..

- "الشهداء".. "الشهداء".. من هم الشهداء؟! من هم الشهداء؟!

تتوارى كأنها دخان لتبدو كنورس ابيض يغادرني ثم يحوم طيف أبي، فأسأل الطيف هو.. هي.. هم.. ماذا يكونون؟!

لم أفهم عبارته الأخيرة عندما قالها مودعا..

.. إنها اللعبة..

.. إنها اللعبة..

.. إنها اللعبة..

لحظة اغتيال

أبحث عن حفنة رمل أدفن فيها رأسي خوفاً منك، لكنني أكتشف بعد رحيل العمر أنني لست نعامة وأنك لا تجيد فن الخوف.. هل تكفي دموعي لإحراق جسدك كله وإذابته تحت أي مسمى؟! عذراً أيها القلب فمنفاك رهان خاسر في معركة تؤثر النزيف أن يظل مستمراً وتؤثرني أن أكون قطرة دم على رصيف إسفلتي لم تغسله أمطارك الحارقة.

« لم يعد المكان هو المكان.. وجهك لا يروقني، والجسد أصبح معزوفة مملة ».

ها أنت مكسورة لترى النور بينما أظل انفخ في الظلمة حتى تسحقني أنفاسي.. ألملم أوراق جسدي المبعثرة وأحاول ان العن.. لا.. ليست اللعنة وحدها تكفي لرمي عنقك بها أو أنك لا تستحقها.. إنما..

- إنما ماذا؟!

- لحظة عبور في زمن مأساوي يزرع ابتسامة على صخور صدئة أو وسط أكوام من القبور.

- إنها ثورة الجسد!!

- بل انتكاسته.

- لا فرق.. بين الثورة والانتكاسة خيط رفيع..

عبثا أحاول أن انتقي سيفاً يحتضن حياتي المتبقية كبقايا رماد.. كل

العيون تلعقني بنظراتها المحمومة ووحدة الليل تحمي الأجساد من الذئاب التي تحدق في كل جسد يتحرك.. دائرة تلف بي كأنني قارب في بحر هائج وأحاول أن اصرخ في كل الوجوه وأقتلع كل عين تمتد بوقاحة إلى جسدي.. واخلع كل الرقاب التي تستدير هامسة توجه الدعوة.. لكن الدائرة تكبر ويبقى مركزها مغروساً في قلبي.. الدوران مستمر والنزيف لا يتوقف.. تتسع الدائرة ويتسع الجرح ليضم بقاياي.. فاختنق.

- هكذا إذن تبدو النهاية.

- لا.. لا يزال هناك من يتعين عليه دفع الثمن.

- ليست قضيتي بل قضيتك الخاسرة.

وتبدأ عشرات العناكب تتسلل في خوف إلى داخلي.. كأخطبوط بآلاف الأرجل أرى لحظة عبثت بأشيائي الوحيدة.. كانت لعبة.. استمرت.. انفتح الجرح.. نمت في داخله ألف بذرة.. رقد العقل واستيقظت شهوة الجسد.. أي عذاب هذا الذي يتحرك وأسمع طرقاته على باب بطن يمتد في عجرفة واضحة؟. أي عيون تلك التي تلسعني؟. تقتلني. ووحدي أدفع ثمن رغبة في لحظة لم أملكها فسقطت الروح إلى القاع.

- لن أملك إلاّ أن أضع رأسي في أول قطار يبعدني عنك.

- ورصيدك الذي تركته؟!

- إنه وليد لحظة جسّدها الشيطان.

- والشيطان لا يريده.

- وأنا لا أريده.

- لكنني أحمله..

....

* * *

الزمن يلتف حول رقبتي ليواصل شنقه اليومي والاتساع يستمر والمجهول يتوسط خاصرتي.. لن أصمد.. ربما الآلام ستكون خير مطهّر لذنب ارتكبه القلب فكان الجسد كبش الفداء.

شخص آخر ينبت في رأسي.. يسألني.. لا أملك إجابة.. يأكل أعصابي...

- وأين كان العقل؟!

- اعتقلته رغبة جامحة لممارسة جديدة.

- لماذا تمارسين ما تجهلين؟!

- كانت فكرة تطاردني، تضرب أذني، تغسل عيني، وصدري يلتهب في انتظار حائط ثلجي دافئ يريحني.

امتدت يده، ثرت، صرخت في ثورتي، تذكّرت نفسي.. لكنّها الرغبة.. امتدت يده مرّة أخرى، فامسكتها، أي شعور ذلك الذي عرفته.. داست جسدي عربات قطاره.

إنه النزق.

إنه النزيف.. الشرف ظل ينزف حتى آخر قطرة، دون أن أدرك أنه كان يحتضر.. العيون تغسلني بأوساخها تنتظر مني ليلة حمراء تلتقي فيها الأجساد.. «ياللعار».. الشرف انتحر على جسدي ليبقى هذا الكوم اللحمي يتغنّى بفارس يلهب اللحظات ليشتعل كل العمر.

* * *

... ولد.. انه ولد...

يشتد الصراخ من حولي وتكبر ألف صرخة في أعماقي.. كل العيون تلتف حول وجهي، تحاصرني حتى تكتم أنفاسي.. لكنني لا أموت حتى يبقى من يدفع الثمن.. أنفجر.. لكن ثمنا لا يزال له بقية وهو يعانق حياته في براءة من كل شيء.

(امتدت يده).. هناك كان الطعم مقروناً بابتسامة تخفي حقد الإنسانية ليلتهم كل شيء دون أن يدفع ثمناً لشيء.. إلا القربان الوحيد الذي تقدمه يد العدالة إلى مذبح العذاب.. إلى جلاد الحياة، وحيدة كأنني خلقت وحدي على هذه الدنيا..

- أبي.. أمي.. اخوتي.. صديقاتي.

- يحاصرهم ألف عار ويقتلهم ألف.. ألف لسان.

- لكني...

- ووالده..

- إنه ابن اللحظة.

- دائما نحن نزرع أخطاءنا في شيء اسمه «اللحظة» وعقارب الزمن لا أتبينها.. أتخبط في دائرته.. تصفعني عقاربه، ورأسي لا يعرف أي مرسى.

إلى أين؟ كل الأبواب مغلقة.. هذا ثمن اللحظة.. والولد يصرخ كأنه يلعنني لأنني تركته وصمة عار في جبين الحياة.. واصل صراخك أيها التعس والتصق بي.. واصل صراخك وأسألني عن أبيك لأقول لك أنه في كل وجه تراه يمد بصره إلى جسد أمّك.

... والطريق يمتد أمامي راقداً عبر مسافة لا أستطيع أن أعبرها.. وهو.. غسل جسده ودوّن جرحي على خارطة النسيان.

* * *

ذات يوم وصلتني هدية من والدي.. دهشت، فتحتها.. وجدت سكيناً.. بحلقت في طفلي الذي يرضع جرحي وحملته باحثة عن أصله الأبوي.

وعندما التقينا.. صمت هو.. وصمت أنا.. والطفل أيضا.. الشيء الوحيد الذي نطق هو السكين.. لا أدري حينئذ فيمن تكلمت تلك السكين؟! وأي لحم عانقت؟! وبدم من ارتوت؟!.. هو.. طفلنا.. نفسي.. اللحظة.. كلنا جوهر مأساة اسمها..

اللحظة .

بوابات المدينة

في هجعة الليل يجري حاملا نزيفه صوب الجبال المتوارية في سواد ليل لا قمر فيه، النخيل وحدها تظل ساهرة متخوّفة من قنّاص يسكب مادته القاتلة في أحشاء قلبها لتموت واقفة.. في شموخ تتيبس أغصانها.. تحترق أمعاؤها، في الغد فقط يعرف صاحبها أن عدوّه قد أخذ بثأره.

عاد خلفان إلى بيته يحتضن بندقيته، إصبعه يرقد في حالة استنفار على الزناد.. القرية سمعت طلقة رصاصة مقرونة بصرخة في ليلتها تلك.. أغمضت عينيها لتواصل النوم فما سمعته هو ثأر الأمس وانتقام اليوم، والمستقبل يضطجع في نهر دموي لا آخر له.. زوجته حبلى بالرقم التاسع في قائمة أولاده، هم وحدهم يعرفون معنى القلق لرصاصة تخترق ليلة قرية تخوض حربها القبلية بشراسة.. شيخ القبيلة أمر بالثأر لأن شاة احد رعاياه قتلت يوم أمس.. ثلاث رصاصات تمرق في الهواء باحثة عن جسد آدمي تكتب النهاية على حوافّه.. اخطأته الرصاصات إلا من جرح يجري به في الوادي المحاذي للقرية البائسة.

«يومها قرر أبي الرحيل إلى البندر، فرحت أمي الخائفة علينا من رصاصة الثأر وفرحت أيضا لأنها ستهرب من ليل البنادق والنهب، ليال ارقبها تربط المواشي في رجلها خوفا عليها، وتظل ساهرة خوفا علينا.. نخيلاتنا القليلة غادرتها الحياة، صب عليها أولئك المتسللون ليلا تلك المادة التي نستخدمها

كوقود للسراج المعلق على وتد أحد جدران بيتنا الطيني. لم انم حين تحدث أبي عن الرحيل. ضاجعني القلق في ليلتي تلك. كان القمر حينها غائبا فلم أره من كوّة سطح الغرفة».

رمى جسده على فراشه المترب، البندقية تتنافس مع قامته التي تميل إلى القصر.. «اجمعي الأغراض».. قالها صارخا للزوجة المغلوبة على أمرها.. ثلاثة ألحف يتقاسمها الأطفال الثمانية مع والديهم مع قطع أخرى متهالكة ينامون عليها.. الغرفة تصرخ بالرطوبة وتعج بعشر قطع بشرية تتمدد كجثث متعفنة. الأم جلست تنتظر الأوامر من القائد بقلق المترقب.. «في البندر بإمكاننا أن نجعلهم يتعلمون القرآن».. تعالى شخير النائمين منهم بينما الأب يصغي لزائر الليل يأتي بالموت معه أو نذير شؤم يكمل مأتم الليلة.

«كنا عشرة وأبوهم نتبع حمارا يفتح فاه يلهث من شدة الحر، قبل أذان الفجر كنا نتسلل مودعين بيتنا.. بكيت.. لا أدري من ماذا؟ وعلى ماذا؟! لم اسأل أبي أين ومتى وكيف؟ السؤال لمن هم في أعمارنا ذنب نستحق العقوبة عليه، حتى النخلة التي صلبت عليها ذات يوم لأنني سألته عن جدوى ما يفعلون ودعتها لأنها جزء من هذه الطفولة التي لا أعيشها.. تورّمت قدماي والحمار لا يتسع ظهره لأحد منا عليه، فراشنا وجراب من التمر وجرّة سمن هي آخر ما حصلنا عليه من بقرتنا التي سرقت ذات ليلة.. بكت فيها أمي بحرقة أكثر من بكائها على أخي الذي مات بالحصبة.. أمي تحمل على رأسها «قفيرا» به بعض الطحين والأرز وعلى حضنها أختي الرضيع.. تمشي صامتة كأنها فقدت لسانها. الخوف والحزن هما وجهها الذي تحمله، أبي بشموخه وجبروته ينقل بندقيته من كتف لآخر موزعا نظراته على الجبال المحيطة بنا

كقدرنا الذي نرزح تحت شمسه الحارقة».

تتحرك الأقدام بعفوية.. تتعثر بالأحجار تغوص في الأتربة.. الأب يتقدم المجموعة، والطريق يزداد طولا. تطل الشمس من عليائها تلقي الأشعة غاضبة على هذه الأرض الجاحدة. الأقدام الصغيرة أصابها الوهن والتورم، الرضيع يوزع صوت بكائه على السكون الراقد من حولنا.. الساهرون يمشون صوب المجهول الذي يراه الأب شمعة الأمل وسط أكوام السواد.. والقرية الطاغية تمارس قبليّتها وجنونها، بيوتها الطينية المتناثرة أضحت لا تعرف إلا بكاء أم ثكلى وأب ينطلق صوت الثأر منه قبل دموعه.. الجوع يعم القرية كالنار في الهشيم تنتشر.. الفلج ترقد الكلاب في ساقيته الجافة. ما زالت آبار هنا وهناك شبه يابسة تزمجر الثيران بهياكلها العظيمة مع صوت «المنجور».. حتى أولئك ذوي الاثني عشر خريفا تولوا "الزجر" من أجل قطرات ماء للأنفس الجافة وللنخلات اليابسة إما عطشا أو اغتيالا من أجل بضع تمرات تسد الرمق عن اللعنة والعقاب. باع الناس أوانيهم.. باعوا أبواب منازلهم الخاوية إلا من الثأر والدم والدموع.. بعضهم شدّ الرحال بعيدا عن القرية وسفاحيها.

«في الطريق كنت أحاول جاهدا أن أتجلّد.. كانت الدموع تنسكب داخلي ساخنة كماء مغلي فتكوي أعماقي.. رجلاي أكاد لا أستطيع نقلهما إلى خطوة أخرى.. والطريق يمتد لا نهاية له، يومان من المشي وأبي يلعق صمته ولا يتكلم، وأختي ترضع من ثدي أمها المرارة والفزع، وعندما استرحنا تفجر الألم في أرجلنا نارا.. تلك الغلان - كما اخبرنا أبى بكلماته الاثنتين - آه.. انها تبدو متعبة برياح غامضة».

تلك البلاد المنهكة من الجري مئات الأعوام نامت خائفة كقطة جفلى من مطارد مجهول.. الشمس تلعق الرؤوس العشرة الراغبة في وداع يومها الثالث.. الأب يرغب في الوصول إلى «فرضة الوطية» قبل غروب الشمس.. أرجل الصبية تئن بالجروح والورم، سيرهم يشبه مرور جنازة تتبعها أصوات النائحات.. يطلق الأب صرخاته لكن الشمس تسرع في الرحيل ليبقى لونها الارجواني يتوزع أحمر على سهول الوطية المغبرة، بذئابها وحيواناتها المتوحشة.. يصل أولئك إلى «المعوشري» يستعطوفنه للدخول إلى «البندر».. البوابة أغلقت ضلفاتها.. نام الجميع كأنهم أموات في مشرحة منسية.. أقعى الأب وبندقيته تنتصب طويلة تعلو قامته.. غموض يلف المكان في سريالية مخيفة.. الموت وراءهم وبوابة المجهول تلتقي ضلفتاها.. ويبقى الخوف وحده الساهر حتى الصباح.

في ذاكرة الأب نبتت أغصان سوداء جذورها في القرية وامتدادها إلى القلب.. دماء البشر الذين طالتهم بندقيته تحوم حول مقلتيه لتزيدهما احمرارا. أحدهم صرخ بالفقر ويتم الأطفال عندما وصلته الرصاصة، لم يفكر حينها أن الرصاصة ربما تسكن صدره لتضيع كل العائلة، شيخ القبيلة لا يملك شيئا في زمن القحط يعطيه لهؤلاء.

في "مسكد" رأى خلفان حكاية غده، حمالا سيعمل في سوق مطرح أو عاملا في احد متاجر «البانيان».. على الساحل سيجد طعاما للأفواه الجائعة التي تنتظر.. «أيها الغد افتح كراستك لأقرأ خفايا سطورك».

«.. وحاولت أن أغمض عيني.. أبي لا يزال جالسا، نظراته المترقبة تتطاول إلى البوابة المغلقة. ينظر إلى السماء في انتظار نجمة الصبح، هذا هو الليل

يبدو طويلا أكثر من جسد آدمي.. أخوتي ناموا بعقولهم الصغيرة وأبدانهم الهزيلة جوعا وخوفا».

لاحت الحمرة من أعماق البحر مبشرة بالنهار يخرج من جوف الليل الطويل.. نظرات حيرى ترصد البوابة أحيانا.. وأحيانا الجبال.. هذه أمامهم الجنة المنتظرة تفتح ذاكرتها للتاريخ وللرزق القادم من أفواه اسماك القرش.. تطل الرغبة في عين الواقف خلف البوابة.. «العشر» تسحبه اليد المعروقة من زجاجة السمن وجرة العسل وأشيائهم الأخرى.

«وغدت البوابة وراء ظهري دنيا أخرى.. عالم جديد رسمته أماني أبي في عقلي الصغير.. قرية أضحت محض ذكريات هلامية والفلج الذي جف قحطا يتراءى لي كحلم قديم.. باب بيتنا بعناه.. نوافذه، جدرانه بقت منتصبة تقاوم الغدر والسرقة.. وأصابع أبي القابضة على الزناد تنشر الموت في جبين القبيلة الأخرى.. ها هي «البندر» أمامي ببحرها لا أعرف ما يكون هذا البحر.. بقلاعها التي لم أرها إلا في خيالات جدي الذي مات برصاص الليل وحكايات جدتي رحمة الله عليها».

.. مطرح.. إذن هذه هي المدينة تستقبل القادمين بصور ساحلها القديم وساحلها المزدان بمراكب الصيد وسفن التجار.. بقلعتها التي تطل بكبرياء العاشق للبحر وللنوارس تحوم حول مركب البوم وذلك السنبوق الآتي من صور العفية.. الأمواج تتكسر على جدران البيوت المتاخمة للشاطئ.. الأب والعشرة أرواح تتبعه، هو القبطان الذي أنهكته رياح تتردد بين نخلة اعز من الولد وجبل يترصد قاتلا أو مقتولا.

وهم البحارة يخوضون الحياة بأنامل غضة تستشرق الغد في خزانة

مطرحية.. ضائعون هم دون يد ترشدهم كأعمدة منتصبة يحتضنهم "خور بمبة" والوجوه المعفرة بالأتربة والأمراض تفتح عيونها على آخرها تستطلع هذا العالم الجديد.. مطرح بروائح البهارات والسمّاكين.. بالتيه.. بفقدان الذاكرة.. برائحة البحر العفنة تسكن في خياشيم اسماك القرية الفارة من مصيدة الموت إلى حافة الغموض.

في الصمت الذي يغلّف المكان وهؤلاء خرجت رصاصة مزقت الهدوء.. الأب يمسك بندقيته والإصبع على الزناد ترقبا من ملاحق يتبعه.. يدان تلتفان حوله من شخص لم يتوقع منه أن يفعل هذا.. آخرون حوله يحكمون السيطرة عليه.. وخرجت البندقية من يديه.

« غصت في قاع لا آخر لها إذ أرى قائد مجموعتنا الصغيرة تلبس يداه قيداً حديدياً.. لم يطلق الرصاص.. فقط كان ممسكاً بندقيته، اتهم ظلما.. توهج الدمع جمراً في مقلتي أمي.. من لنا في هذه المطرح الغافية في سرابيل الألغاز والطلاسم؟!! حملوا أبي ومضوا دون أن يلقي نظرة وداع لنا، نحن المصطفون كأصنام جلبت للسوق من أجل البيع..

لكنها لم تجد المشتري.. سماوات ترتفع بناء ثم إلى قاع سحيق تسقط دون أن نجد لها قراراً ».

- لماذا أطلقت الرصاصة؟

- أنا اقسم لكم أنـ......

- أخرس.. الدليل في يديك.

- لكنني..

- خذوه إلى « الكوت » هذا البدوي الأجلف ليتعلم أن "مسكد" ليست

مدخنة لرصاص البنادق.

يوم.. شهر.. عام.. « الكوت » يعج بالرطوبة وأب يسابق ذاكرته في الوصول إلى صيف القرية وجدب أفلاجها.. بين الموتين ترتمي هذه الأجساد.. والبقية ضائعة في حارات مطرح تتسوّل مكاناً ورغيف خبز.. بين اللعنتين تعيش بينهما تموت، من أجل المزيد من العذاب تبدو المأساة ممتدة في كل مكان.. أجساد أخرى هاجرت إلى خارج هذا الوطن.. شقاء من نوع آخر.. غربة أخرى في زمن الاغتراب.. قسوة العمل وعذاب الفرقة للأهل والوطن.. هناك عاشوا.. تاهوا في تلك الغابات، تمزقت السواعد، تمزقت الهوية.. والوطن يئن بجراحه.

« ودعت أبي الذي توارى بين سواعد رجلين قاداه إلى حيث لا ندري.. أمي غرقت في عويل تجمع المتسوقون على صدى حرقاته.. أنا وإخوتي كنا نبكي أيضا رغم أننا لم نستوعب معنى ما حدث ».

أين المعجزة تتفجر مع موج البحر في ديجور هذا الليل الذي يحاكي القرية برعب لياليها؟ أين هذه المعجزة ترجع القبطان الغائب في موجة أخذته وتركت البقية دون أدنى تجربة في القيادة؟.. انه الغموض والصدفة المليئة بالأسرار تحركت الأقدام الصغيرة تذرع سوق مطرح المتهالك.. في « سكة الظلام » مشت الأجساد تتهجس بعفوية والأم تغرق في دموعها.. انفرطت حبات عقد العائلة عندما انقطعت السلسلة التي تحتويها.

أمي تفقد وعيها فأهرع صارخا في أولئك الذين تصفعني وجوههم عبر ممرات السوق.. خوفي من فقد أمي أذهلني.. ركضت.. لا أدري إلى أين؟! تهت في خبايا مطرح.. ضيعتني حاراتها.. دروبها.. وكلاب لا أول لها ولا آخر

يصفعني نباحها بأصوات مرعبة.. أجري خوفاً منها.. تركض خلفي.. اصرخ بما أوتيت من قوة.. نباحها يعلو على صوتي فلا يسمعه أحد.. ابتعدت عن السوق والكلاب لا تزال ورائي.. ضيّعت الدرب وكل الحياة.. قيل لي بعد ذلك أنني قد فقدت وعي.. وحين أفقت كان « المثعاب ».. وهو الباب التوأم لدروازة مطرح يوزع شيئاً من الألفة.. الحطابون يكومون حطب السّمر. وقود البيوتات المطرحية الفقيرة.. والحمالون يصنعون بقطرات قِرَبْ الماء على ظهورهم ممرات ذكرتني بظلال سعف نخيل قريتي.. الفقر يصهل بخيوله هنا.. ولولا الرطنة الأعجمية لتذكرت ريفنا الفقير.. ولولا الماء المحمول بين حارة « اللولوة » وبقية حارات مطرح لتذكرت « جميعه وخلوف وزلخة وشيخوة » والهاندوات على رؤوسهن.. تخيّرن أعذب المياه.. الوجوه هنا فيها ألفة.. والقهر السحنة المميزة.. والشقاء كحل يتوهج بظلامه في العيون المتعبة".

هذه مطرح إذن.. وهذا كوتها.. هنا يحرث الجميع تعاسة الزمان.. وهناك أبي يخفق قلبه مع خفقان العلم الأحمر في الكوت.. وهذا ليل مطرح يفح كأفعوان.. وهذا طبل « النوبة » يدق لتنام العيون.. وابقى وحدي اتجول في ذاكرة بيتنا الصغير.. أعدد أسماء التقاها أبي في رحلات سابقة لـ« البندر ».. أي بانياني ذكر أبي يبدأ اسمه بسيت.. أي تاجر لوتي يبدأ اسمه مسبوقا بالحاج.. أي.. أي..

هذا سطح بيت طومس.. مناخ من لا مناخ له.. وهذا المصاب بالجذام والذي ينفذ لك بجمل غير مألوفة في اللسان يهذي باشياء كالمسيح والصليب والمخلص.. ونصير الضعفاء.. يدعوني لأعمل «بشكارا » في بيت طومس.. لا أفهم ما يريد وكل ما أفهمه هو أنني ثرثرت بتفاصيل حكايتي.. ونبشت

على سمعه جرحي.. أخبرته عن أبي الذي يرصف بحديد السجن في قدميه.. أخبرته أن أبي لم يعش طفولة هانئة.. ولم تضع أمه على قدميه وهو صغير حواجيل فضة وها هي مطرح التي تفاخر بصاغتها تهدي أبي حواجيل من حديد بوزن كل السنين التي عاشها.

كل ما أعرفه ان ذاك المجذوم بكى.. ولعل والده هو الآخر مات في الكوت.. بل ولعله مات والحواجيل في قدميه.

كان كأس الماء بارداً.. وكان أول كأس ماء أشرب وبرودته خرافية.. وعندها عرفت المرة الأولى مصطلح الثلج.. ونخرت في سمعي كلمة الثلاجة.. كل ما أتذكره أن رجلا أحمر الوجه بتقاطيع وسيمة وسحنة ودودة.. وبلغة عربية مكسرة سألني عما إذا كانوا فحصوا مأسورة بندقية أبى ليتطلع على آثار الطلق الناري الجديد.. وعما إذا كان الحزام وجد ناقصاً من عدد الرصاصات.. وما إذا كان الرصاص « التهمة » كان من نوع رصاص محزم أبي.. كان يسأل وكان يجيب بنفسه على أسئلته. ثم أضاف مختتما مداخلته الإنسانية.. في أمريكا لدينا محققون جيدون.. نادراً ما يؤخذ بريء بجريرة متهم إلا في حالة ان المجرم محترف، وأن أساليبه أكثر رقياً من إدراك المحققين.

.. ودار الزمان.. تسلقت خلاله عملاً يسد رمقي.. ويفي بقيمة إيجار خيمة.. خيمة من مال الوقف في « الشجيعية ».. وعلى ضوء قنديلها الخافت صنعت أحلامي.. وعلى ضوء قنديلها أيضاً.. صعقت وأنا أرى البريق في عيني أمي يتوارى.. فالزيت نضب والعمر أوشك.. وعلى أرضية الخيمة الرطبة أسلمت الروح.. ولو وافق سعيد المعشري وكيل الوقف لحفرت في مكان رقدتها الأخيرة قبراً يؤنسني حتى وهي ميتة.. فكلانا ميتان.. الفرق أنها نامت مغمضة

العينين.. وأنا نائم بعيون مفتوحة ارقب بوابة كوت مطرح حتى تفتح.. وكيف حال أبي؟.. هل تغير شعر لحيته؟.. وماذا عن عينيه؟! هل ذبل الاصرار فيهما؟! هل ما زال أبي يعرف "التفق"؟! وهل بمقدوره الآن أن يضع في بطنه « الصمع » رصاصة « ولايتيّة » يسقط بها « عقعق »؟! وهل؟! وهل؟!!

ها هو أبي يخرج من السجن.. وها هي درجات السلم الحجري الطويل تبدو طويلة جداً.. صعدها أبي أربعاً أربعاً وكأن مارداً يلاحقه.. وهو يهبطها الآن ربعُ ربعُ درجه.

أبي لم يعرفني.. الناس التي التقته لم يعرفها.. وكأنه في عالم جديد.. ولكنه في الحقيقة في زمن جديد.. قلت له أن أمي ماتت.. قال بل قتلت.. قلت له وأنا أعمل في.. قال وأنت قُتلت.. وأردف يقول" وأنا قتلت.. ولكن يكفي أن عمان هي التي تولد..

أضاف التغيير هنا خارج الكوت مشاعر وانفعالات ربما لا تستطيعون أن تلمسوا الفرق.. لأنكم مسكونون بالعاطفة.. ولكننا نحن في الكوت لمسناه من أول لحظة.. من السجّان الذي تحول إلى سجين.. من ارتعاشة حجارة الزنازين.. من الأقفال تتكسر.. من المساجين يؤمرون أن يكفوا قيودهم بأنفسهم.. من خفقان العلم.. ومن انكسار الأمواج على الشواطئ.. من الأيدي تحملني لاستطيع ان اهبط بسلام ذلك السلم الطويل.. من كأس الماء النظيف البارد الذي نشربه.. ومن رغيف الخبز وصحن المرق.. ومن خشوع المصلين.. ومن روح الأسرة الواحدة بين مساجين التقوا عند شواطئ أزمات ومواقف متباينة.

وبعد هنيهة جاء من يسلم التفق لوالدي.. لم ينظر إليه باشمئزاز كما نظرت

أنا.. بسببه فقدت أمي، وابتعدوا بي وتشردت ولكن أبي قبّله.. فالتفق كروحه.. قال لمن سلمه: اعطني المحزم.. وإذا بأبي يطلق الواحدة تلو الأخرى.. ليقضي على المحزم بكامله.. انها اجمل الرصاصات تفصل بين زمنين.. وعند آخر رصاصة.. طلب أبي كوب ماء.. وطبع قبلة على البندقية وتحسس حرارة المأسورة التي تحملت رصاصات محزم بكامله.. ناولني البندقية.. وقبل ان يشرب كأسه.. كانت روحه المطمئنة سافرت لتشرب من حوض خالد..

ولتبتهل هناك بصلاة الخاشع.. وتبتل الصادق.

حملت بندقية أبي إلى قريتي.. علقتها على وتد الزمان.. ونمت.. فهنا في قريتي الصغيرة تولد بندر جديدة.. فيها كل شيء.. الهاتف والثلاجة.. وآخر موديلات السيارات.. وهنا أرتدي نفس كمة المطرحي.. واتغدى بطبق من السمك الطازج مثله.

اضاءات

المنجور: من وسائل الحصول على الماء قديما من الآبار.

الغلان: مكان قريب من مشارف مسقط.

المعوشري: لقب الرجل الواقف على البوابة للحصول على عشر الأشياء المحمولة للدخول بها عبر البوابة.

مسكد: اسم العاصفة قديما.

طومس: طبيب اشتهر في مطرح كان يعالج المرضى بعيدا عن الوسائل القديمة في العلاج.

الكوت: القلعة حيث تستخدم كسجن.

التفق: البندقية.

عقعق: طائر موسمي زاهي الألوان.

اللولوة والشجيعية: من حارات مطرح.

المحزم: الحزام الذي يحمل الرصاصات ويربط في وسط الرجل.

خور بمبه: مكان قريب من البحر في مطرح.

المسحورة

المدى يتلألأ في ناظريها بؤساً وجنوناً، بشعرها الغجري الأغبر تعبر طرقات القرية التي لا تنام إلا على دقات طبول السحرة.. ليس لك أن تسال أحدهم عن أي موت يعيش فيها.. كما ليس من حقك أن تسأل الرصاصة لماذا سكنت جسد ضحيتها.. شهادة وفاتك ليست دليلاً على انك تنام تحت كومة من التراب، أي صراخ هذا الذي تسمعه القرية اللعينة وأي نشيج يجعل الآذان تغمض عينيها خوفا ورهبة؟!

- إنه صوت مريم.. هذا بكاؤها.

- مريم ماتت.. رأيت جنازتها منذ خمس سنوات.

- «مسحورة» هكذا قال جدي، رفضته زوجاً.. سحرها.. ثم تزوجها.

«أخرسي أيتها البائسة، لا تبحلقي في وجهي هكذا..

ها أنت الآن كورقة بين أصابعي.. السحر أو الرفض.. من يستطيع الآن أن يغتال عذريتك غيري».

في ذلك اليوم تعالت أصوات النائحات والجسد مسجى فوق قنطرة الفلج يمتطي سكون الروح كأن أصوات النائحات لا تعينه. قطنة واحدة ثانية، عاشرة والجسد يتقلب بين أصابع المغسّلين.

- موت مريم لغز أيها الباكون.

- انه موت البلابل.

- لا جرح.. لا قطرة دم.

والمغسّلة تتابع عملها في جسد أمامها.. لا دمعة في عينيها.. والباقون غائبون في متاهات العويل والصراخ في موكب رحيل الروح.

ذلك الصوت يترنح قليلاً قليلاً كأنه يسقط في بئر.

«نعم.. الصحراء موحشة لمن لم يدمن النوم في حضنها.. غداً تعرفينها وتكتشفين أيتها الحمقاء أنها عجوز هرمة تخاف من الليل وتضاجع وحدتها حتى الفجر، لا تقتربي من القرية فشهادة وفاتك وقعها الصغير قبل الكبير..

كل الرجال يبكون لأجل جسدك الغض الذي سيذهب هباء لديدان التراب كما يعتقدون».

- أذكروا الله!!

- لا إله إلا الله.

يحمل القوم النعش تتبعهم النساء بأصواتهن في طابور طويل من العويل.. يتهادى النعش على أكتاف المشيعين، تبدو المقبرة من بعيد كشبح كالح يعني النهاية، يهبط النعش على حافة القبر.

- من يصدق أن يموت كل هذا الكبرياء وأن يسقط كل هذا الشموخ؟!

- إنها قدرة الله. إنه الأجل.. انه...

ويضيع صوته أمام مشهد القبر فاتحاً فاه ينتظر اللقمة الآدمية.. يبحث في الوجوه التي عفرها التراب عن موعد ينهي جري الإنسان إلى اللاشيء.

«اعرف انك تائهة لا تصدقي أن ذلك القبر سيحتويك، قبرك ليس بين التراب أيتها العذراء.. الرجال الذين نجلبهم قبورهم في بطوننا أما أنتن أيتها الفاتنات فما أحلى الاستمتاع بلحومكن الغضة.. هل تريدين تذوق لحم

آدمي؟! عندما تجوعين بالتأكيد ستأكلين منه».

يطلق رجل «مسحاته» على حواف القبر يتحسس جوانبه والآخرون يقرأون سورة الفاتحة ويطلقون ألف حسرة وألف دمعة على فقيدة القرية.

* * *

القرية تنام على جراحها وساحر القرية يأكل من تلك الجراح.. كان سالم في ضاحيته عندما مرّ الساحر راكباً ضبعته ورأسه ينظر إلى الوراء.. القرية تروي حكايا البؤس والجدات يحدثن أحفادهن عن «المغيّب» الذي باعه أبوه في سوق بهلا. وعن «نقصة بهلا» المشهورة.. تقول الجدة بأن من يقف متكئا عليها سيباع بمزاد علني دون أن يدري ثم يحمل ليذبح وليمة دسمة في مهرجان السحرة.

القرية أكلت من حكاياتها حتى التخمة.. من يموت اليوم يراه الناس بعد أيام، مريم رآها الناس تسرق الطعام.

«جمالك هو الذي مات أيتها التعيسة.. جسدك ممل حتى التقيؤ وروعتك انتهت، ماذا أصنع الآن في جسد لا اشتهيه وعظام لا تحمل أي لحم؟؟؟».

تنظر إليه بعينين لا مكان فيهما لشيء، تزيح شعرها الذي امتلأ تراباً وأمراضاً حتى تستطيع رؤية ما حولها.. يمر الرعاة فلا يرونها ولا تستطيع أن تفتح فمها حتى بصرخة.. لا عقل لها، لا لسان، أخذهما الساحر وذهب إلى سوق «المغيبين».

* * *

كانت مريم تحلم بالحصان الأبيض وبثوب العرس الأبيض.. مريم أحلامها بيضاء كوجهها.. عيناها اللتان تزحفان بخجل إلى قوامها الناضج.. تعبث بأظافرها في شعرها الليلكي الجميل تفتش في خفايا سواده عن بياض أيامها، وجه في طفلة تعيش ربيعها العشرين.

«من يراك الآن سيقتلع عينيه عقابا لهما، جسدك الأغبر كأنه قادم من أرصفة التاريخ القذرة ورائحتك التي تشبه إلى حد كبير رائحة امرأة سمينة لم تستحم منذ شهر، الشمس لم تبق لم أفكر في الأمر جيدا كيف؟ كيف لو رحلت إلى قرية أخرى بعيدة بعيدة وبنيت لك بيتاً هل كان هذا الحسن سيضيع؟آه.. أيتها المخلوقة التعسة لا يرجع لك عقلك الآّ بعد أن أموت».

الساحر يرغي غضباً والمسحور لا يفقه شيئاً.. لا يتحرك منه شيء سوى عينيه.

بعد مائة عام مات الجميع وبقيت مريم تعبث بعقول الجدات.. مريم شراع كبير سقط في ليلة دافئة.

* * *

تلك القرية القديمة نسيت حكاياتها وفي ليلها الساكن تحرك وقع خطوات تبدو متعثرة.. صرخ ذلك الرجل وعانق غيبوبته.. الخطوات تقترب من بيت طيني قديم الملامح.. يفتش الشبح بين الجدران الصامتة عن بقايا حكاية وعن بقايا دموع حفظتها الأطلال.. كل من في القرية ودعوا أحلام المنام وجاؤوا يحوقلون ويبسملون.. الشبح ينظر إليهم يتفحصهم.

- ....

- أنا.. أنا مريم وهذا بيتنا، أراه تغير

- ....

- خيوط عنكبوتية غزلت حول جمجمتي فلا أعي أين كنت ولماذا؟

- انها مجنونة.. وجهها، شعرها، ملابسها.. أحضروا لها طعاماً ربما تكون جائعة.

كل الأطفال تزاحموا لرؤية مريم، ومريم لا ترى شيئاً سوى غطاء ضبابي يغلف المكان، خاف الأطفال ثم ضحكوا وأخذوا يضربون مريم بالحجارة وفي الليل تجلس مريم وجدران البيت المتهدم والظلام يحوم حول البيت حارساً لها.

يتحدث الناس عن البيت المهجور.. ومريم التي ماتت واقفة دون دمعة عين، وعن قبرها الذي امتلأ نقوداً وهدايا.. بعد موتها الثاني أصبحت مريم قدّيسة

بقايا رجل

- لا شيء.. قلت لك، لا أرى شيئا، لا أرى.
- ما رأيك لو وضعت رأسك على الأرض ورفعت رجليك إلى السماء.
- حينها.. ربما سأرى العالم مقلوبا، الشمس اسفل قدمي، وجميع الوجوه ستبدو مرتفعة تناطح النجوم.
- يا لك من ثرثار.. لسانك هو عقلك وليذهب بقية جسدك إلى الجحيم.

اخرج من كابوس البارحة لأتذكر صفعة الشرطي وعضة الكلب المتوحش وأحاول أن أنصب جسدي لأنفض عنه بقايا كوابيس الليلة المنصرمة، لا أستطيع.. أحاول، أعجز.. بقايا ألم في ساقي، أتحسس بيدي كأني أريد أن أعتقل ذلك الألم، ما هذا؟.. دم، المرآة لا تكذب.. حفرتان في مكان العينين، لا أنف لي.. لا أسنان.. لا فم.. لقد نسيت أنني جعت البارحة فبعت كل أشيائي عندما أغمضت عيني لأنام في ذلك المساء.

* * *

الطبول تقرع رأسي بحركاتها الصاخبة، والجميع يرقصون، ينشدون، وفجأة يتوقف كل ذلك الضجيج ليبدأ رأسي بتحمل أحذيتهم الثقيلة.. أبصق في الحاضرين وأترك لهم رأسي وأحاول أن أهرب..

خذ رأسك أيها الغبي وحافظ عليه فربما لا نجد - في يوم - رأسا يشبه هذه الصخرة التي تحملها رقبتك.

أعدت رأسي إلى مكانه وهربت إلى الظلمة احتمي بها لم أر شيئا، حركت رجلي على غير هدى.. « مسرح ».. هكذا رأيت الدنيا واليافطة التي أمامي.

قهقهات كأنها الرعد، نسيج من الخوف والترقب يغزل المكان، وحش يتسلل إلى الخشبة يعانق المهرجين ويتركهم لا شيء.. يضحكون وتتعالى صرخات الفرح بين المتفرجين، تعقد الدهشة جميع أجزائي.. تلك المرأة العجوز تلقي ببقايا أسنانها إلى خشبة المسرح وتصمت.. حسناء أخرى تعانق الفراغ الذي أمامها.

سيجارة.. أخرى.. عاشرة، امتلأ المسرح دخانا واعقاب سجائر وعيناي مصوبتان إلى تلك الحسناء.. انها تحتفظ بأسنانها تبدو لآلئ عندما تضحك.. اقتربت من ذلك الفراغ الذي أمامها.. السيجارة في فمي ورأسي يقرأ سر هذا العالم في عينيها اللتين بلون النار، حمراوتين تستحيلان أحيانا إلى بقعة فحم، يخرج البطل يعانق عشيقته فيبكي الجميع.. الدمع للورود والابتسامة للأشواك، أي رعب هذا الذي يتفجر في عيني الحسناء.. أردت أن أطلق ما أراه وأمضي.. البطل لا يزال يقبل حبيبته فأمسكت الحسناء وأهديتها قبلة.. لم يكن الشرطي وحده الذي قبّل وجهي بصفعة ذلك المساء بل كانت تشاركه يد الحسناء.

* * *

القرية تغفو ويبقى موتاها يعبثون بخيوط الضياء.. يضحك القمر منهم ويتوارى.. في ذلك اليوم نَمَتْ على رأسي شجرة ضخمة، امتدت عروقها إلى قلبي وشربت من غديره حتى الثمالة، سكرت الشجرة وسقطت مقتلعة كل ما تعلق بتلك الجذور.

الرجل.. أيضا احترق ونبت في جسده فحم ومأساة، قال في أيامه الأخيرة أن الأرض جسر رماد.. لم أصدقه، آويته إلى مقعد السيارة وجلس يعد ما بقي له على ساعات الرحيل.

سقط رأسه على كتفي، وتمتم بأشياء غير مفهومة، لم أنطق.. بادرني بالسؤال: هل وصلنا إلى النهاية؟!!

أردت أن أتكلم.. ماتت الكلمات في حلقي فخنقتني.. كلنا نعيش، كلنا نموت.. علينا أن ننتظر.

أصابعه تتدلى متمسكة بباطن الكف، الجلد المتفحم يتساقط أسود على مقعد السيارة.. أحاول أن أخاف.. لم استطع، كيف الخوف يصنع؟!! نسيت كيف أخاف ونظرت إلى وجه الرجل، أي جسد هذا الذي لا يتألم وجسدي يصرخ بألف ألف ألم.. انطق.. لسانك لم تطله النار.. رائحتك أشبعتني حتى الغثيان، وكتلة اللحم المشوية تسخر بجانبي من غرور هذا العالم.

في يومي الذي لم تبق منه سوى رائحة الموت تعتق انفي وصديد الذكرى يملؤني كوابيس ورعبا، نامت قريتي كطفلة احتضنت كراستها وعلبة ألوانها واصلحت من جديلتها وجلست تخربش بريشتها في وجه الليل، نامت قريتي تحلم بالصحو وعندما أدركها ما تحلم به تمددت كغجرية تنتظر عاشقها يأتيها من سقف السماء كطائر أو كنجم.. أكلني الخوف من أن تلتقي أهداب عيني لأتمزق بكابوس ثقيل.. صوت الشرطي يأتيني بالأمر أن أقف على رأسي كي ارى وجهه عاليا.. عاليا، العن الفضاء الذي يتمدد كثعبان أمامي فأغمض عيني خوفاً من آخره..

- من أين طلعت أيها السيد المطاع؟

- من ذاكرتك المشحونة بالقلق، المتوجسة بؤسا.

- لا تأمرني أن اقف على رأسَي.. بدون ذلك بإمكاني أن أرى العالم مقلوبا، وجودك.. هو الكابوس أم الحقيقة.. من أنت.. من أنت؟

- ذاتك.

- والحسناء التي قبلتها وعيناها المشتعلتان جمراً.

- تلك ذاتك.

يتوارى ذلك الرجل الذي أذكر جيداً أنه مات ذات صباح، فاصرخ فيه أن يحمل معه رائحة جسده.. يبدو المكان قلعة كبرى مليئة بالأسوار والغموض. اختفى الرجل والشرطي والحسناء.. وبقيت أعدُّ أعقاب سجائري وأتمنى لو أستطيع ركوب موجة الدخان التي تخرج أمام وجهي.. رائحة التبغ تطغى على رائحة الرجل، تأخذني اللذة بالنجاح.. انتهت السيجارة.

واحترقت

شفتاي !!

للرغيف رائحة

أشرعة الموت تتهادى كقارب عتيق وسط أمواج بحر غاضب. والسماء شراع أسود عملاق يمتد عبر الأفق في مسافات لا نهائية من السواد القاتم، كل شيء يومىء بأنه موت يتربص بالأجساد البشرية الراكضة المبلولة بالمطر.. لكنه ينتظر اللحظة المناسبة لينعتق من شرنقته الجافة منطلقاً يحصد الأرواح التي ماتت ألف مرّة قبل أن يصل ذلك الوحش الذي يدعى موتاً.. السماء لا تزال تقذف أشياءها على وجه الأرض.. مطراً ورعداً وبرقاً.. نسمات الهواء الموغلة في البرودة تصفع الوجوه العارية بقوة هائلة تذرها تدمع.. الأصابع المرتجفة تتسلل تلتصق ببعضها البعض في صرعات عصبية متوترة، الأهداب المبللة بالدموع والمطر تتحرك بثقل واضح يحمل ألف معنى لنظرات متكسرة على أبواب الأمل الذي يبقى برجاً عاجياً يتمناه الضعفاء سكناً وسط مئات المخاوف التي لا تنتهي.. بقي الصمت الشيء الوحيد الذي يصرخ من بين الأجساد المتناثرة حزناً وجوعاً على أرض المخيم..

- هل حصلت على رغيف؟

- ليته يبقى الأمنية الوحيدة.

- وماذا بعد ذلك؟!

- الحرية.

الأجساد تتدافع محاولة طرد بعضها البعض للوصول إلى الرغيف.. جسدها

الهزيل لا يتيح لها المغامرة في الثبات فيضيع جسدها وسط تلك الأكوام البشرية التي تجاهد من أجل الأرض، والرغيف للبقاء من أجل الأرض.. صراخ طفلها اليتيم يرنّ بقوة داخل أذنها فتهز رأسها هرباً من ذلك الصراخ المتكسر طمعا في لقمة طعام.

الأجساد تتصارع.. رائحة الخبز تصل إلى أنوف الجياع كالمخدر اللطيف.. تتصادم الأجساد أكثر فأكثر.. مشادة كلامية بين اثنين يدّعيان الأحقية في ذلك، يقف ذلك الرجل المتصلب بقامته المشدودة دون أن يصل إلى سمعه بكاء أم تبحث عن اسمها في قائمة اللاجئين، وعن اسم ولدها الوحيد في قائمة اليتامى.

-... وولدي!!

- إسمه ليس مدوّناً هنا.

- وهل يموت جوعاً لأن اسمه ليس مكتوباً.

- الأسماء هنا حسب الحروف الأبجدية.. لا تهتمي بالأمر، غداً سنراجع الأسماء.

- الجوع لا ينتظر والموت أكثر استعجالاً، أعطني رغيفاً ولتذهب الأبجدية إلى الجحيم إذا كان بسببها سيموت ولدي.

- انصرفي.. لا تضيعي وقت غيرك، آباؤهم يهاجرون طلباً للراحة وتبقين معشر النساء هماً علينا ولنا بعقولكن الصغيرة.

انسحبت تجر جسدها لتخفيه بين الأجساد الأخرى الزاحفة من أجل الوصول.. السير في الاتجاه المعاكس مخاطرة كبرى يلفّها الموت المشبّع برائحة المطر، والأبجدية تتلوى لتمنع رغيف خبز عن طفل يحلم بالطفولة

السعيدة فأصبح يحلم برغيف خبز يبقيه على سطح الأرض دون باطنها.. مجرد حروف تتشكل تكوّن اسماً له الحق في الطعام والحياة.. إذن هي الحروف تنغرس في الجسد الجائع تمنع عنه بقية ما يعينه على البقاء.

أخرجت جسدها من التكدس البشري، تنفست الصعداء مخرجة بزفرتها حقداً وحزناً.. المطر لا يزال يغسل الوجوه المتعوّدة على اعتناق الدموع في لوحة يومية معبرة رسمتها يد المأساة لتوزعها على الناس بالمجان دون توقف في طوابير بشرية ودون الحاجة إلى « الاسم ليس مدونا هنا ».

المأساة وحدها لا تنتظر وصول ذلك القابع خلف شريط بشري طويل لكنها تلتصق في لحظة ميلاد واحدة.. ثمة مآس أخرى تنتظر تلك الجموع الزاحفة بحثاً عن الحرية ورغيف الخبز.. هذا اليوم الأسود يظلل الوجوه رغم القتامة التي تحملها ورغم خرائط الحزن التي تشكلت على الوجوه التعسة.

خطوة واحدة للأمام ودمعة أخرى تلحق سابقتها لكنها هذه المرة لم تختلط بقطرات المطر الذي توقف بل بقيت كزهرة بنفسج تحكي جوهر المأساة.. كحبة لؤلؤ تعكس ضوء البرق الخاطف الذي يزيد في القلوب احتراقها.. الرعد لا يزال يواصل هديره رغم انقطاع المطر، يصل إلى الآذان التي أدمنت سماع هذه الأصوات.. رعداً، مدفعاً، البرق المثير للترقب.. ألعاباً نارية يتسلى برؤيتها الصغار والجائعون.

« اسمه ليس مدونا هنا ».. الموت إذن لكل من لا تحمل دفاترهم اسمه ولكل من لا تحب حروف الأبجدية الرقص والتشكل على هيئة اسمه.. انها المأساة التي تريد ان تجعل من قلوبنا دفاتر للأحزان ولوحات للمآسي ومناديل للدموع.. « غداً سنراجع الأسماء ».. عسى للجوع أن يقتنع بتلك

الفكرة، ربما يبقى ولدي للغد حتى تعيد الأبجدية ترتيب أوضاعها في اسم ولدي.. «آباؤهم يهاجرون».. حاولت طرد هذه الكلمات التي كان لها صوت أعلى من الرعد وطلقات المدافع.. زادت من خطواتها في محاولة للهروب من عبارتها تلك.. رأت تلك الكلمات وحوشاً جائعة تتبعها وعليها أن تحث الخطى.. «آباؤهم يهاجرون».. نعم إلى الموت، الخطوات تتلاحق كأمواج في مهب عاصفة عنيفة تحاول اقتلاعها، ولدها يجلس بين حافّتين للنهاية.. الجوع والبرد.. رغيف واحد لا يكفي لإشباع بطنين.. جنود ببنادقهم يجوبون الشوارع هنا وهناك اصطياداً للحرية، خفضت بصرها كي لا تراهم، ستبصق في وجوههم إذا ما رأتهم.. وولدها ينتظر هذا المكور في يدها.

- قفي.. إلى أين؟

- إلى المخيم، الذي أمامكم.

- ومن أين جئت؟ ألم تعرفي أن الخروج في هذا الجو المريب شبهة.

- جئت من حيث يوزعون الطعام.. انظر.. رغيف واحد فقط.. لم أحصل على غيره، ولدي ينتظر.

- أعطني ذلك الرغيف.

- انه لولدي.. أنا.. أنا.. أنا لا أريده لنفسي، انه لولدي.. أرجوك دعني اذهب إليه بسرعة، سيموت جوعاً إنْ أنا تأخرت.

- سنحتفظ بالرغيف ليفحصه خبير المتفجرات، ربما كان محشواً بأشياء خطرة.

- عندما نجد الرغيف فإننا سنأكله فأفواهنا لا تعرف شيئاً آخر غيره.

- ناوليني الرغيف، ولتذهبي مع ولدك إلى الجحيم.

جذب الرغيف بقوة، انزلقت قدماها، سقطت في حفرة تجمعت بها المياه، تناولت بيدها حفنة من الطين، رمته في وجه حامل الرغيف، تخلص مما بيده ليمسح بها عينيه اللتين أعماهما الوحل.. تناولت الرغيف بسرعة، أطلقت ساقيها بحثاً عن ولد لها يضمه ملجأ حقير.. أصوات الجنود تلاحقها «قفي».. انه الموت.. لا تلتفت كأنهم ينادون شخصاً آخر.. طلقات الرصاص تحوم حولها.. تشبثت برغيف الخبز المبتل لتواصل جريها.. شيء ساخن يغسل قدمها، هي لا تتوقف، أحست بخدر يشل حركة قدمها، دخلت المخيم، السائل الدموي القاني يخرج ليختلط بالوحل مبدداً لونه الأسود الداكن إلى لون قرمزي يحكي ارتباط الأرض بالدم.. تسقط أمام طفلها الذي أغمض عينيه على يدي صديقتها بالمخيم، توقف الجنود الملاحقون في نصف دائرة.. تكلمت صديقتها.

- لم أجد ما أطعمه به، قد نام بعد أن يئس.

- هذا هو الرغيف.. أحس بألم فظيع، بنادقهم قد نالتني، ليس مهماً ذلك، الموت أفضل، المهم أن يصل الرغيف إليه ليبقى ويأخذ بثأر الأرض، ثأر والده.. أعطيه الرغيف، لست قادرة على ذلك.

رفعت المرأة الطفل ليرمي رأسه الصغير إلى الوراء في حركة مخيفة.. عينا الأم تأخذان أقصى استدارة لهما، تفتح فمها في محاولة للتعبير عن لوحة جنائزية، تعجز عن ذلك، السائل القاني يخرج بصعوبة ملوناً كل المساحات التي يصلها.. الجسد الشاحب لا يزال فاغراً فاه محاولاً الوصول إلى كلمة تعبر كل جسور الخوف والحزن لتصل إلى كل الأرض.. أخيراً قد صرخت، ملأ الصدى أرجاء المخيم وآذان الجنود المتصلبين كأسماك متجمدة.. ولدي..

ولدي.. أفق فهذا هو الرغيف، قد أتى.. ولدي.. ولدي، قم، خذ بثأر الأرض.

تناولت ولدها، أخذته في حضنها النازفة جراحة دماء وقهراً، تصلب واضح يعلو شرايينها يعلن أن كل الدماء قد امتزجت بالأرض، وحتى عندما تحين ساعة الموت تبقى الأرض هي الحضن الدافئ.

هي، وولدها.. ورغيف الخبز بينهما، قصيدة عظمى كتبتها الأرض بالدم النازف من أجساد الأبرياء

الراعي

معها يمضي كل صباح.. يجرّ أقدامه المثقلة بهموم عشرات الأعوام تاركاً القرية تسبح في مدنيّتها الجديدة، ولد راعياً، وتغيّر كل شيء حوله.. بقي هو يسوق أغنامه إلى مرعاها، ثغاؤها كان قيثارته وموسيقاه، يرى معها وجوده في ماضيه المتأصل وحاضره المتزاحم.. كان وحده هناك في تلك الرابية يضع الألواح على أكبر «سمرة» بها، ومن حوله تمرح الشياه في حريّة يحلم بها الآن.. كبرت القرية واتّسعت.. الراعي بكى عندما لم يجد سوى قطعة صغيرة من الأرض ينام فيها مع رفيقات عمره، لم يتزوج.. لم يحب امرأة في حياته.. «النساء يرغبن في كل شيء ومعهن يضيع كل شيء».. هذا هو رأيه، وهب عمره للشياه، ووحده المخلوق البشري الذي يملك عائلة من الأغنام والشياه، لم يعرف أحد اسمه، ولربّما نسي هو الآخر ذلك الاسم الوحيد الذي يسمعه في غدوّه ورواحه.. انه الرجل الذي عرفته القرية بلا أم، وبلا أب، ودون اسم أيضا ولا عائلة ينتسب إليها.

* * *

«الجبال وحدها لم يصل إليها هذا الاسمنت الملعون» قال ذلك لشيخ القرية.. «تقدم بي العمر، والسنوات أحجار ثقيلة على ظهري.. لم أعد استطيع الصعود إلى الجبال أو الجري، وراء شاة مشاغبة تركت القطيع مستقلة بطريقها».

- لك راتب يكفيك فدعك منهن!!

- ليس لي في الحياة سواهن فكيف أدعهن؟!! أو تستطيع أن تدع جزءاً من ذاتك؟

- في "الهبطة" القادمة بعهن وابن لك بيتاً.

- هل أبيع عائلتي؟ هم أولادي.. وهل بالامكان أن يبيع الإنسان ولده؟! أنتم لا تريدون أن تفهموني..

خرج كئيبا تحاصره القرية، عاد إلى شجرته المحاطة بجدار اسمنتي يلعنه كل يوم عشرات المرات.. جلس يغالب غشاء دمعيا حجب عن عينيه رؤية شياهه.. انها بلا شك.. جائعة.

* * *

الراعي كان حديث الناس.. أي سرّ هذا الذي يخبئّه بين جنباته، الجيران اشتكوا من رائحة العفونة المنبعثة من خلف ذلك الحائط البائس تزكم الأنوف.. « أنا كنت في البدء.. هم زاحموني على هذه البقعة ».. صرخات الناس تتعالى غاضبة.. دون جدوى.. إصرار غريب.. أنه يتمسك بها أكثر فأكثر.. « قاومت برد الشتاء القارس وحرارة الصيف التي تغلي الأرض تحت أقدامي.. عليّ مقاومة هؤلاء الغجر حتى النهاية ».. كان كل ما فيه مختلفاً.. نعله التي لها آثار عجلة سيارة، ربطة رأسه، الجلود التي يربط بها خفّيه كأنه مصارع قديم نسيه الإغريق خارج أسوار طروادة.

* * *

بوجهه المغبر المحمول على رأس شاب شعره وبلحيّة كثّة خطها الشيب وتلبّدت بالعرق والغبار حتى غدت لوحة سريالية داستها عشرات الأقدام،

رأته القرية ذات يوم يجرّ (عربانة) خضراء اللون يعبر بها الطرقات في خشوع لآثار الزمن، مشى لا يلوي على شيء.. أقدامه تتحرك ببطء تحاول ملاحقة جريان عربته الصغيرة، ظهره المقوّس وخطوط "الوسوم" التي تركها ذلك الطبيب القديم ظاهرة على مساحة كبيرة في جسده المتهالك كخريطة طبعها عالم آثار على جسد آدمي.. سخرت القرية منه وتهاوت النكات عليه من كل فم.. « اللعنة عليهم على سخرياتهم الهازئة، ذلك الأعرج أيضاً هزأوا منه عندما ارتدى ساقاً صناعية.. المسكين، غلبته السخرية فخلعها ورماها، عندما زرته يومين رأيت ساقه يقف الدجاج عليها ».

- إلى أين يتجه الراعي؟

- إنه يستخدم التكنولوجيا الحديثة في الرعي.

- نعم، تظل الشياه في المنزل ويذهب هو بالعربة المصنوعة في تايوان ليحضر لها طعامها من العلف.. بكل تأكيد إنه علف صناعي.

- أنه الراعي على آخر موضة.. يا صديقي.

لم يأبه الراعي لأولئك العاطلين كما وصفهم.. «كانت الأغنام تبحث عن طعامها بنفسها، في رحلتي اليومية معها كانت تعجبني رؤيتها، انقضت السنوات واستمرّ تيّار الزمن يجرفني نحو البعيد، ما لها هذه القرية تقر عليّ السعادة؟! وكل شيء أمامها سهل، انهم لم يعودوا في حاجة إلى أغنامي، تلك الجثث المعلّقة والمجلوبة من بلاد النصارى تكفيهم بأسعارها الرخيصة، تعساً لهم من أشقياء تهون عليهم صحتهم في سبيل توفير ريالات قليلة، ما اسخفهم حين يصدّقون أنها ذبحت على الطريقة الإسلامية.

* * *

في المساء عاد الراعي صامتاً من رحلته الرتيبة.. لقد كانت الشياه تمشي حوله في الماضي كحاشية وكأنه ملك يسير بينها يحمل تاجاً خرافياً وها هو ذا يعود في هذا المساء من المرعى وحيداً دون حاشية.. كأنه ملك مخلوع.. يرفع بيديه المجهدتين ذراعي العربة ليدفعها أمامه بمشقة.. تلكما اليدان المتشققتان من جزّ الحشائش.. ها هو يدخل إلى حاشيته الجائعة الثاغية.. هذا هو الملك يدخل قصره منكس الرأس، بثغائها التفت حوله.. هو يقاوم حتى لا يسقط إعياء، تبدو وكأنها تبكي غيبته الطويلة، الجوع وحّد بينها.. هي جائعة وهو أيضا جائع، ما يحضره ملكها في آخر اليوم لا يكفيها، ولا هو يحصل على قوت يومه، عددها أكبر من سنوات عمره.. الجوع يخنق أمعاءه.. "من أجلكن احتمل الجوع والعطش، المعذرة على التقصير، مرعاكن أصبح حارة تملؤها البيوت وبشر يتوالدون كالفئران، ودّ لو يقبّلهن واحدة واحدة.. بعضها لا يقوى على الوقوف.. ومن استطاعت قفزت إلى العربة تزاحم من أجل لقمة في آخر اليوم.. لكنها على كل حال تكفي إلى اليوم التالي.

* * *

بدأ بكاؤه نشيجاً.. بصوته الجهوري ملأ طرقات القرية وازقّتها، سمعه الناس في بيوتهم، وفي مسجد القرية خرج المصلون.. تجمع بشري اختلطت فيه النساء بالصبيان كأن أهل القرية على موعد أمام بيت الراعي، تجمعوا بفضول ليعرفوا ما يبكي الراعي.. لأنه لم يحب النساء تصوروا أن إحساسه قد مات.. اذن ما يبكيه هذه المرة.. المرة الأولى.

قال أحدهم: لدغته حيّة، فبيته مزبلة تتجمع فيها كل حشرات العالم.

رد عليه صوت نسائي متهدّج: جسده تخاف منه الحشرات لخشونته وعفونته.. الراعي يبكي، لا أحد يجرؤ على الدخول إلى مملكة الراعي خوفاً من لسانه.. تجرأ أحدهم ودخل.. الراعي يبكي وأمامه شاة جفّ ضرعها راقدة تنتفض احتضاراً، دخل الجميع، أصبح الحائط يحوي داخله بشراً وبهائم..

- ما دمت غير قادر على توفير العلف لها فلماذا لا تبيعها أو تذبحها؟

قال أحدهم ذلك.. الراعي مستمر في بكائه لا يجيب.. لا يأبه لامتلاء (حوش) منزله بالمتطفلين.. انفجر البركان.. صاح أحدهم: رائحتها أزكمت أنوفنا وهي نصف حيّة فكيف بها عندما تموت؟.. زمجر آخر: اللعنة عليك وعليها.. بدأ الناس يخرجون وقد سدّوا أنوفهم تقززاً.

في اليوم التالي.. بصمت خرج الراعي كعادته ينتظر شيئا ما في الأفق البعيد يراه وحده دون الآخرين، يغلق قلبه على شيء ما ويترك القرية تغرق في تساؤلاتها عنه، انهم لم يتعودوا على رؤيته، كان بعيداً عن بيوتهم، ها هو الآن وسطهم يتنفس مع أغنامه قلقاً وبداوة، أي إنسان هذا بينه والموت خطوات يجهد جسده في جمع حشائش لا تكفي القلة القليلة من أغنامه، بعضها مات جوعاً وأمراضاً، وبعضها ما زال يقاوم ليرى آخر الحكاية..

وحيداً ينام على حصير بال تظهر عليه مخلفات عائلة طواها التاريخ.. يخلط الحشائش بالروث ليطعم هياكل رعاياه، أحزمة الجلد تزداد على جسده، كلما أحسّ ألماً في مكان ما ربطه ليخنق الألم فيه، يلبس إزاراً مرقّعاً تتهاوى الأيام والأشهر عليه دون تغيير، القرية تعوّدت أن تراه يفترش الأرض في أي مكان يعجزه التعب فيه عن مواصلة المسير، يطرق الأبواب في طريقه يستجدي قطرة ماء.

* * *

القرية عرفت التمدّن، وسافرت خطوط الهاتف إليها، هو يعيش في بدائيته العتيقة، وسط التحضّر ينفرد بوحدته في عالمه الخاص، ويمضي يسرد أحلامه بلا نهاية كشاب في العشرين من عمره، يفتح أجنحته لريح الأمل ناظراً للغيب يستطلع المجهول، ينظر الأطفال إليه بعيون متطلعة ويمضون.. يتهافت الموت على شياهه فلا يجد سوى عظام كساها الجلد والصوف، ونفس يتردد بين معدة خاوية وأمراض تعجّل بالنهاية، هو يتألم لكنه لا يريد بيع عائلته، كانت تلك فلسفته ويحمل خصوصيّتها بكل اعتزاز، لم يعرف الأنثى سوى أم ورأتها طفولة بائسة في زمن لا يذكره هو.. اعتزل الحياة والأنثى التي تشعل دنياها رغبة ونزقاً وعاطفة.

- ارحم هذه الحيوانات، وكفاك جنونا؟!

- ارحموني أنتم من نصائحكم، فالجنون أن اتركها لكم تتمتعون بها.

- اذن اتركها للموت.

- أفضل لها من أن تنالها امعاؤكم.. الموت مقدّر على الجميع وليس على أغنامي فقط.

- إلا أنت.. فقد تأخر أجلك أيها الأحمق.

غرقت القرية في كسلها الجديد، وأدمنت رؤية الراعي.. كلها أمل في يوم تشيّع جنازته لتحمله الأعناق مكرهة للمرة الأولى.. وللمرة الأخيرة.

اضاءات:

** سمرة: شجرة صحراوية كثيرة الشوك تنبت بكثرة في عُمان وتنقى أوراقها من الشوك لتقدم طعاماً للحيوانات.*

** الهبطة: سوق موسمي تشتهر به عُمان.*

عربانة: عربة صغيرة بعجلة واحدة.

الوسوم: جمع كلمة وسم وهي الكي بالنار طلباً للشفاء وتعتبر أحد أنواع الطب الشعبي.

نهر الدم

ما بين اللحظة واللحظة قطار لا نهائي من الانتظار على أرصفة التسول الزمني.. ثمة أفكار تغزو رأسه فتذيب آخر ما تبقى له من هدوء.. الأفكار تتصاعد من رأسه كأبخرة ساخنة اتبعها الجلوس على مقاهي جمجمته النازفة دماء الملل.. رائحة الرطوبة تنساب من بين الجدران والأزقة لتصل إلى أنفه ليتسلل ماض عميق من بين الزوايا إلى ذاكرة حبلى بمئات التساؤلات.. تململ على الكرسي الذي يحتضنه في أحد المقاهي، صوت الجرسون يأتيه معلنا له عن ما يقدمه للزبائن.. أشاح بوجهه عن رؤية الجرسون مدارياً قلقه وحيرته، القى بقبضة يده على الطاولة بعنف كأنه ينتقم منها، أشعل سيجارته دون أن يمر بصره إلى وجه الجرسون، بصره كان معلقاً يرقب منظر الحلقات الدخانية المنبعثة من انفه وفمه وسيجارته.. الحلقات المفرغة قد تكون أحياناً مجرد دخان يذهب مع الريح وفي احايين كثيرة تكون سلاسل حديدية تجثم فيها الذات الإنسانية تقودها إلى حيث لا تعرف مصيراً لها سوى المجهول.. وما زال الجرسون منتصبا أمامه كعمود كهرباء.

- طلباتك؟

- أريد أن اعرف..!!

- اننا لا نقدم معرفة، ما نقدمه هو للبطن وليس للعقل.. اننا نقدم الشاي والقهوة و....

- أعرف ذلك، لا تكمل.. اعطني شاياً

أجال بصره في الوجوه المبعثرة على طاولات المقهى، لا أحد يهتم، ذلك الرجل السمين كعادته دائماً إما أن يأكل أو يثرثر.. وعجوزان آخران يحتلان ركناً آخر في زاوية من المقهى يقتلان الوقت يلعبان الكوتشينه أو يتحدثان عن ذكريات بالية.

- الشاي

- شكراً

رمق كوب الشاي بنظرة عابرة، شيء أسود يعلو فنجان الشاي، نادى الجرسون دون أن يتأكد من حقيقة ذلك الشيء.

- ما هذا؟!

- ذبابة؟! ما الغريب في هذا؟!!

وانطلقت صفقة من يده وضحكة عالية أعادت الوقار والجدية إلى وجه الجرسون الذي وقف صامتاً ينتظر انتهاء فاصل طويل من الضحك ثم فتح فمه.

- آسف جداً.. لم تخبرني بأنك لا تحب الشاي بالذباب، لا بأس هناك أنواع أخرى إذا كنت ترغب في آخر.

- لا.. لا.. شكراً.

نهض من الكرسي يجر قدميه بخطى وئيدة كأنه عاجز عن حمل نفسه أيضا.. عاجز عن معرفة نفسه.. عاجز عن الوصول إلى معرفة ماهية الأشياء التي تحيط به.

شاغل نفسه بقراءة الإعلانات المعلقة على جانبي الشارع.. "آه.. ما أجمل

الخطوط التي كتبت بها وما أحلى العبارات التي تعلن عن الأصناف المباعة" قال ذلك وهو يتأمل بروازا للوحة معدنية كبيرة.. شغله مظهرها عن التمعن في قراءتها.. مد بصره إلى تلك الحروف الكبيرة المكونة اسم المحل.. « محلات الحرية للإبادة البشرية ».. قرأ أسفلها « خبراء متخصصون في تصنيع أرقى المبيدات لقتل الإنسان.. » أصبح الإنسان سلعة رخيصة تتداولها الأرصفة والمحلات التجارية، شيء غير مرغوب في بقائه.. شق طريقه وسط المئات من الدعايات المختلفة.. تصرخ فيه.. تبصق في وجهه.. تصادره كأي بضاعة أخرى.. يأخذ الشارع الآخر ملجأ له.. يمشي حاملاً معه كرامته الآدمية المذبوحة وكبرياءه النازف جراحاً وقهراً.. يقرأ اسم الشارع الآخر « شارع 31 فبراير ».. تعود إلى ذاكرته بقايا من ذكريات مدرسية.. شهر فبراير لا تزيد أيامه عن تسعة وعشرين يوماً، فلتسقط حسابات الأيام من ذاكرتنا المهترئة بجراح السنين.. عشرات من الجموع تتخذ الرصيف فراشاً بينما عشرات أخرى من الرؤوس تطل من ثقوب ذهبية تحملها نوافذ مغلقة على منظر تلك الجموع.. تأخذهم الحمية القرشية والنخوة العربية فيلقون إلى عشرات الأفواه الجائعة لعباً وكراسات كتابة.. يهرب من ذلك التناقض إلى شارع آخر يقرأ على جانبيه لافتة مكتوبا عليها « حديقة السلام - 200م » حمل ذاته المنهكة إلى الحديقة الحلم.. رأى فيها رأى أشخاصاً بأجسامهم الممتلئة يقتسمون مبلغا من المال فتنطلق ضحكاتهم وصرخاتهم لتختلط مع أنين الأجساد الدامية وصرخات المتحاربين.. هناك في زاوية أخرى وقف رجل عجوز بقامته النحيلة يبكي بحرقة كأنه يبكي عزيزاً عليه.. لاحظ تلك الدموع التي تعبر مجاري وجهه كأنها تسلك طرقاً تعودت عليها.. تقدم منه.

- لماذا لا تشاركهم وتكتفي بالبكاء؟

- هم يا ولدي.. هم يتقاتلون وأنا الضحية الكبرى.. يدعون أنهم يذبحون بعضهم البعض من أجلي.. انهم يجهلون ما أريد منهم.. أريد أن يتفقوا.. لقد اختلفوا على من له الحق في حملي من بين هذا الدمار والجو المرعب.

تقدم إليه ستة من المقاتلين.. وجوه قميئة تحمل في قسماتها الحقد والأنانية المدمرة.

قال أحدهم مستنكراً: عليك أن تريحنا من وجهك قبل أن.........

لم يسمع بقية العبارة، انطلق بأقصى ما تمكنه ساقاه من الجري...... اصطدم بامرأة عارية.. «آسف».. قالها وهو يواصل انطلاقته......... متسول يعترض طريقه بملابسه الرثة البالية.

- ماذا تريد؟ أنا لا أملك شيئاً؟

- أنا جائع.. أعطني مسدساً

أزاح المتسول من طريقه وبدأ الركض مرة أخرى.. كلاب تتبعه بنباحها المتواصل لا يدري من أين خرجت والضباب بدأ يخفي الرؤية شيئاً فشيئاً.. تعترضه جماعة مسلحة فيقف مرغماً.

- ما هويتك؟

- انسان!!

- أقصد إلى من تنتمي؟

- ما موطنك؟

- الأرض

- تباً لك ومن إجاباتك.. ولكن لماذا تلهث؟

- متعب بذاتي

ينفلت من بينهم راكضاً والكلاب ما زالت وراءه.. يركض.. والكلاب تركض أكثر.. يركض والكلاب تتعلق بملابسه.. تلقيه أرضاً.. يحاول النهوض جاهداً.. وبعد محاولات ينهض.. كلب منها ينهش ذراعه، تتركه بقية الكلاب تحتفل بوليمتها المتواضعة.. يواصل الجري.. تعترضه عصابة أخرى.

- ماذا في يدك؟

- ساعة

- يا لك من أحمق.. أما زلت ترتكب حماقة حساب الوقت في عالم لا يعترف بالوقت بل يذبحه دون إحساس بذنب

يتناول أحدهم يده التي تحمل الساعة فيقطعها، يلقيها لكلب جائع.. يأكل الكلب الساعة ويترك المعصم.. يواصل الجري مرة أخرى بطريقة غريبة، لا يملك يدين.. والضباب يكاد يحجب الرؤية.. شخص قريب منه يراه يمشي وسط شيء لامع يجهله فيتساقط لحمه ثم يهوي.. النار تمتد إلى رجل هناك فتبدأ بحرقه وهو لا يهتم إلا بما أمامه من أوراق نقدية.. جسد آدمي معلق على واجهة مجزرة يسلخ كأنه شاه.. يواصل الجري.. شاب هناك يمسك طبشوراً يكتب عبارة، مجرم يرديه قتيلاً، على جدار آخر يقف طفلاً ماسكاً قلماً يرسم خريطة على جدار مليء بالكتابات.. وما زال يجري، تعب من اللهاث، سقط.. الضباب بدأ يعم المكان وصرخات هستيرية تتوالى على سمعه.. أصوات أقدام تقترب منه ولا يزال ملقى على الأرض.. يحاول أن يصرخ حتى لا تدوسه الأرجل القادمة فينحبس الصوت في داخله.. يجف السائل الساخن عن الجريان من مكان اليدين المبتورتين.. الأرجل قادمة.. يحاول

الزحف بما تبقى له من رجلين، لا تقويان على تحريك جسده.. مرهقتان هما من الجري هرباً، الأرجل تقترب.. تدوسه أول قدم منها، يتألم.. تدوسه قدم أخرى.. يحاول الصراخ دون جدوى.. «حتى الصراخ أصبح سلعة غير مرخص بتداولها».. ما زال يحاول لكي يصرخ.. صرخة واحدة تكفي.. لماذا هذا التمنع من صوت يطلقه عالياً فوق الضجيج والضوضاء تنسج خيوطها على كل ذرة من جسده.. يحاول.. محاولة أخرى غير مجدية.. ما زال يحاول.

أخيراً انسلت من حنجرته صرخة أوقفت زحف الجموع على جسده المتهالك.. انقشع الضباب فجأة ورأى المئات من العيون البشرية تخترق جسده بسهام نظراتها الحقيرة.. خاطبه أحدهم:

- أين يداك أيها المسكين؟

- مسحتهما أقداري من خارطة جسدي

- هل بعتهما أيها المجنون؟! بلا شك كان السعر غالياً

- نعم إن الثمن كان غالياً.. غالياً أكثر مما تتصورون

- ورغم هذا لم تمت؟!

- أقداري أصرت على تعذيبي.. ما أصعب أن تحلم بشيئين متباينين ولا تحصل على أحدهما.. ما أصعب أن تحلم بالحياة فلا تنالها.. وتحلم بالموت فيكون أصعب الأمنيات.. أعطوني أحدهما إذا استطعتم.. أرجوكم.. أرجوكم.. أرجوك..

وتضيع كلماته في تواصل زحف الجموع التي تبدأ بمواصلة طريقها.. فجأة تتوقف تلك الجموع لتتناحر.. يصرخ فيهم «توقفوا عن ذلك».. «توقفوا».. الدماء تسيل والقتل مستمر.. «توقفوا».. «توقفوا».. نهر

من الدماء يزيد رويداً رويداً.. «توقفوا».. السائل الأحمر يصل إلى حيث يرتمي.. «توقفــوا» والدماء تصل إلى أذنه.. «توقفوا» والدماء تغطي وجهــه.. «توقفـ..».. يغرغر بالدم فلا يقوى على النهوض ولا على إتمام كلمته.. النهر الدموي يغرقه.. يتلاشى في مساحات حمراء أرجوانية حاملة في تيارها لافتات إعلانات وأشجار زيتون خضراء.. وشخصا من بني البشر.

مسافر دون أجنحة

أخفت جرحها وارتدت صدري، ونامت كلؤلؤة لبست محارتها.. وحين أفاقت كانت السماء داخلنا تمطر مجهولا، وتغرق المدن والقرى التي نحتناها في ليلة ذات مساء طويل.

هذا الشعر الغجري يتمدد كجرح غائر، يهديني لمسة حائرة، يسافر بي في رحلة غريبة، يعبر بي مطارات الدنيا، دون جواز سفر.. دون بحث عن هوية.. دون بحلقة من وجه الشرطي الذي يشعرني أني متهم، وأن المتفجرات التي حوتها شراييني (ديناميت) وليست قصائد عشق.

ذلك الشعر الغجري كم حلمت لأجعله وسادة، وأن أرمي منطقة الخوف لأذوب في تعرجاته وسبحاته، لكن وهما ينتظرني.. يأمرني أن أتوقف عن ممارسة هذه اللعبة الخاطئة.. دون عناد أنسى أمره وأغرق في المتاهات المفتوحة أمامي.

- الدرب لا يزال غارقا في سرابيته، ونحن وإن تحسسنا التواءاته.. بكل تأكيد سنسقط.

- لا تفكر في السقوط.

- انه قادم لا محالة.

- عش اللحظة.

أدرت وجهي نحو الجدار الذي نحته في المحيط المملوء فراغا أمامي، لا صدى، لا لون، لا طعم.. لكن ثمة رائحة.. هذا كل ما تذكرته من كراسة تلك الليلة، وحين قدمت جواز سفري لموظف الأمن أصاب وجهي بنظراته وجعلني أذهب إلى كرسي الانتظار، هذه اللوحات المزروعة أمامي في كل مكان تنظر إليّ في قسوة مخيفة.. كطائر يريد أن يفرد جناحيه للريح ويحلق في السماء المفتوحة حرا دون قيود..

يومها ذهبت، وغازلت قرص الشمس من فوق أكوام السحاب، وابتسمت للمضيفة التي أعطتني ابتسامة أكبر حجما وأطول عمرا.. عدت إلى نفسي، سألتني عن هذه الأنثى ذات الوجه المرح، ومن أي قدر أتت؟وعن هذه الأنوثة تعبق في انف الرجل كجزء من تكوينه. أغوص داخل أعماقي.. أهرب من نفسي ومن تلك الأنثى التي حملتها معي.

حين العباءة السوداء مرقت من أمامي.. كانت السماء تهدي محبتها للأرض في حالة توحد خاصة.. رغبت أيضا في هذه الحالة من التوحد مع لون العباءة، وحين سكبت الخطوات بريقها كان لون الحناء يتبدى نقوشا وألواح زعفران وألوان الفرح ارتسمت بحيرة بنفسج وارتمى العشق كواكب وأزهارا لا تعرف معنى الذبول.

القبطـــان منحنـــا - بلهجته الرسمية الودودة - إشارة النزول من هذا الكوكب الفضائي الذي يدعى طائرة.. صدمتني الوجوه.. صدمتني الألسنة، ذبت في غربتي، تلاشت صورتك.. سكنتني لغة أخرى وأجساد أخرى.. انها لا تمارس دور العاشق القديم، وهذا المجنون قيس توارى من ذاكرتي وعشقي

الخاص لا أرى له أثرا.. بقي الشيطان.. أزارني مدنا، واقتحم بي غابات لا حصر لها.

اعترفي - يا أميرة العشق - أن الخطيئة لها طعم المرارة. شعرت بالحيوان الذي تجسد في ذاتي، وحين غادرني النزق بكيت واستحضرت تفاصيل خطيئتي معك، كلها خطايا، كلها ارتعاشات جسد لعين، كلها لعنات تصب جحيمها في عمق هذا الإنسان المسكون بالخطيئة.. ولأنك الآثيرة لديّ تمنيت أن تكوني كل الخطايا.

الوجوه تعبر بي كأنها شلال، تحبس الفواصل في مخيلة المكان وتضحك هازئة، فنجان القهوة يجلس القرفصاء في انتظار شفتين تقيلانه، والوطن يبدو كبيرا، أكبر من هواجسنا، أكبر من انكسارات العاطفة، وحين يخيم على المكان كملاك جميل فان هذا المكان يبدو صغيرا ومملا.. هناك للوجوه ألفة.. ووطني الذي أحبه قادر أن يعيدني إلى ترابه.

النادل يسأل عن عدد الفناجين التي شربتها قهوة ولا يسأل عن حجم المرارة التي أحسها في حلقي.. ويسأل ويسأل.. وأنا لا أجيب.. عيناي تدوران في الفراغ.. هذه السحنات التي قابلتني وهذه الابتسامة الممطوطة التي يدفع ثمنها بالدولار.. هذا الوطن معي وتلك الحبيبة تبحث عن تساؤلات، وليس هناك ما يبدو أنه أجوبة.. عشق الروح.. عشق الجسد.. وما بين العشقين ضاع الاثنان.

أحمل خطاياي واواصل خطواتي.. الأولى تسبق الثانية.. وأنا في سباق مع نفسي.. كيف أصل إلى هذه الذات؟ هي الغائب الحاضر.. هذه المساحات

الهائلة ما عادت تكفي لكي أضع عليها جبيني وأنام كأي كائن حي في هذه الدنيا. الوجوه بأصواتها الناعمة تسابق الفراغ من أمامي، تصنع حولي دوائر والأجساد ضائعة في دوامة المتاهة.. عشقي للمكان انتهى.. ماتت الرغبة وحين أبصرت وطني من سمائه كان الذهول هو الحاضر الأكبر في نفسي، وكان وجه حبيبتي يدفعني للهروب نحو اللا شيء.

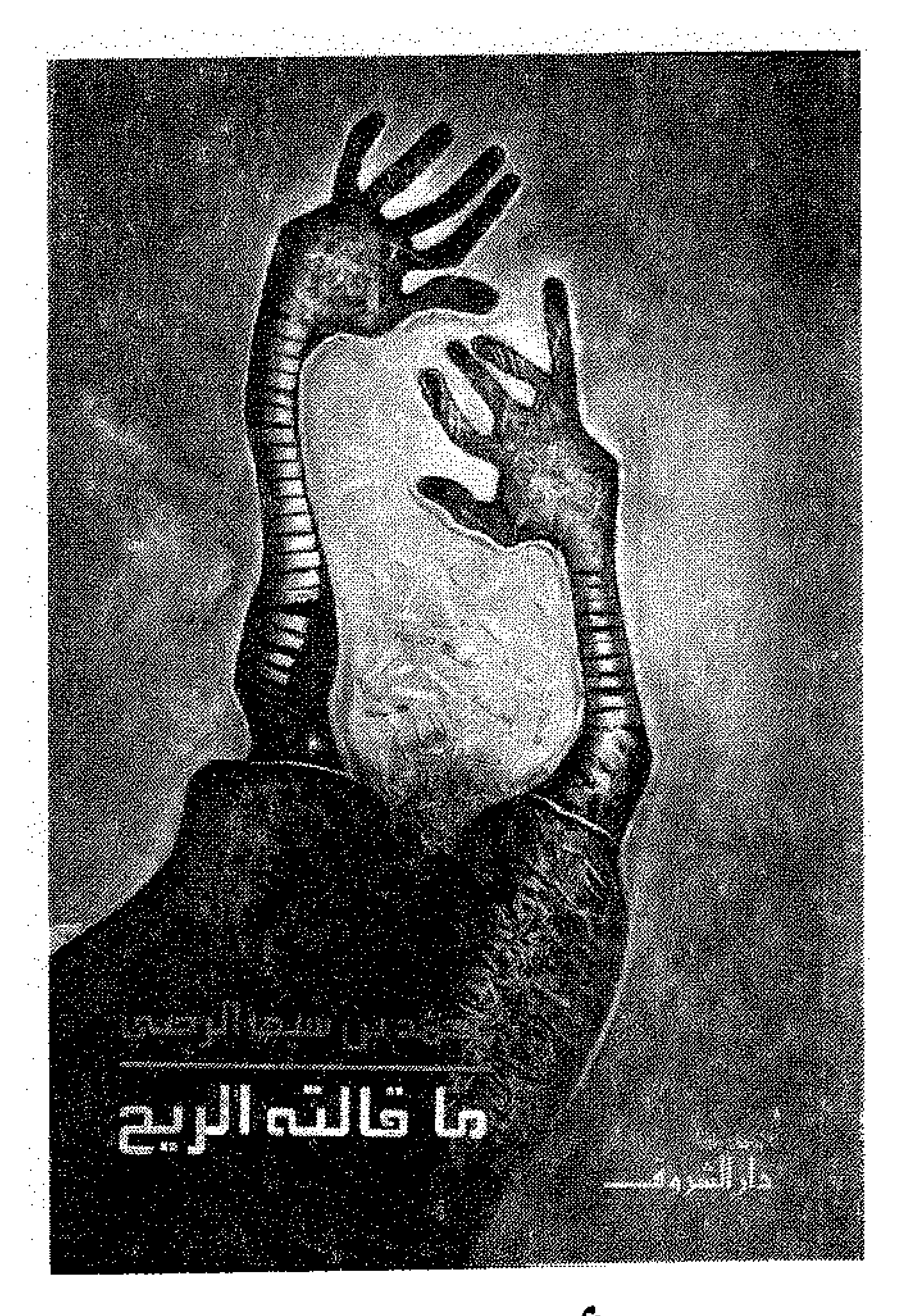
أهبط السلم والقي بجواز سفري في حقيبتي للأبد.

يعود الصقيع إلى بوابات الصمت سريعا، الألوان تبدو باهتة أكثر من أي وقت مضى.. يعود الرعاة من الصحاري يجرون أغنامهم صوب المدينة المتعبة من حالات الإجهاض المستمرة التي تصيب أحلامها، تمرق الأنثى بنقوش فساتينها وأحمر شفاهها، بألقها الدائم وابتسامتها المولودة من رحم (جوكندا) جديدة.. تدور الرقاب سريعا حول العطر المنساب كأغنية ربيعية لأن الصقيع قد غطى بوابات المدينة فان ثمة لغزا حملته الأنثى وذهبت.

أعود في منتصف الليل أمارس الغواية مع هذا النوم المستبد بنا.. الظلام أثواب منسوجة حول المكان وفراشي تركته على همجيته.. وعيون حبيبتي المحها تراقبني من خلال الظلمة.. رأسي مثقل بخطاياه.. ألف أنثى يمددن جدائلهن فينتصب الشعر المجدول حبل مشنقة يجذبني إليه بسادية متناهية.. أقاوم.. العن الوقت وغرفتي.. الأسماء من حولي تلعب مسرحيتها الهزلية.. واحدة.. ثانية.. عاشرة.. امتلأت صفحات العمر ولم تتعب رجلاي من المشي فوق أسلاك شائكة.. ورغم النزيف إلا أن الرغبة مستمرة.. أي رعب هذا الذي يسيرنا؟ أي خوف هذا الذي يمتزج في دمنا يحولنا إلى مهرجين داخل سيرك

ترمى إلينا الكرة الملونة فنقفز إليها قفزة مميتة كأنها الحياة؟ أي لون لهذه المقصلة التي تمارس شنقنا.

وفي الصباح غادرني طيف تلك الأنثى.. وغادرني شيء ما أحسست بروحي تتأرجح متأوهة لأنه غادر.. وحين هممت أن افتح نافذتي سقطت الستارة من يدي وتحطم زجاج النافذة.. وعرفت أيضا ان جسدي يسقط قطعة بعد أخرى.. ورأيت كرة زجاجية قذفها الجدار.. كأنها ماء.. وحين تذوقتها كان لها طعم الدمع.



الطبعة الأولى - القاهرة 1999

المنتظر

ندف من الليل تتساقط على الأرض الموحلة، كانوا هنا، غادروا الطين، والغمامات السوداء، تساقطوا، في المدن البعيدة.

- يا سيد الريح.. انهض، فرسانك مقبلون.

- لكن ...

- يا سيد الريح.. تكلم، الشمس تنذر بالغروب.

- لو ...

تحاصر الليل قطط سوداء، وطيور البوم تفتح مآقيها في الظلام، تشربه، أو أنها تفرغ أنينها المتواصل خلف القافلة المتهادية نحو الصحراء.

يا سيد الليل، وحين قبّلتها، كانت ترتعش، وفي شفاهها بوح، وشقاء.. يا سيد الليل، وحين قبّلتها تذوقت طعماً مالحاً، عرفت أنه ليس وحده ماء المطر الذي قبّل وجنتيها قبلي.

للمرة العاشرة ، أغفر للوقت انكساره نحو المتاهة، ومزارع الورد، في مكان ما، أينعت بأرجوانها، ،سيدي يحاصر النبضات في قلبي كي لا أهديها ملكة هذا المساء.

ـ يا سيدي، هذا الحزن العلوي يصرفنا نحو ذاكرة الملح.

انتظر، الشارع يتلوى سواداً، ولا حادي يبعث إشارات القدوم، ولا سرابيل

الحزن تكف عن الهذيان داخل الجماجم المتعبة.

- قف، واكسر لغة الألوان داخل عينيك.

- لكنني لا أرى.

- إذن اسمع عزف الرياح، لعلها تبشر بمخاض.

- و .. وأيضا.. لا.. لا أسمع.

- كأنك أحد الثلاثة الذين...

نعم.. نعم، وأيضا، لا أتكلم.

- ولكن، كأنك تحادث مخلوقات.

لا أنطق، لا أفضح ذاتاً مهزومة، أمد النظر نحو طواحين الهواء، تعبث بالفراغ، تخلطه، تمزقه، تسرقه.. آه، أين لي بـ « دون كيشوت » يصارع تلك الطواحين، فقط كي لا تملأ بطني بالهواء، وتخطفه من رئتي.

يا سيدي، هذا المساء طويل، والفجر متباعد في سديميته، لا لون للأشياء عندي، لا رائحة، مثلك تماماً، مثلي تماماً، نافذة وأبواب تصد روائح الوردة العبقة.. وتلك.. آه، يا دوامة السنين، يا رحيق العمر المتواري، أفتقدك، والروح ظمأى، أفتقدك والمتاهة تحاصر مسام جلدي.

يا سـيد المتاهـة، تلك كانت حديقـة أزهـار، وأرواح هائمـة تحرسـني كلمـا غيبنـي حضـورك. يا سـيد كل شيء ، غـادرني كي أبكي وحدي، وأضحك وحدي، وأغني وحدي، وأغزل هذا القمر الزاحف نحو مسائي.. كأنني آخر نصب.. وحدي.

لكنه يغمرني بنظراته، يتسلل إلى روحي، تختنق بوجوده، والمطر لايزال يحمل نبوءة تلك التي حين قبّلتها عرفت الفرق بين طعم الماء القادم من السماء، والآخر النازف من العين.

أطلت الأشجار، والشارع المترامي، والأيادي المرتجفة، وتلك الممدودة في الفراغ، تظاهروا، تمردوا، وهم ينتظرون ذلك الفجر الذي حبسه شبح ما، مازلت أرجوه أن يعيد كل شيء.. الأهداب إلى عيني، والصوت إلى حنجرتي.. كل شيء.. كل شيء.

.. وأنا أنتظر، ومعي الليل المسجى في العلب الليلية الفارغة،

.. وأنا أنتظر، ومعي طيور الظلام تفتش عن خيالات المآتة،

.. وأنا أنتظر، شعرت، شعرت بندف ثلجية تعبر بيني وكل شيء أمامي، تبللت، ارتجفت، بكيت، ضغطت بيدي مكوراً صورة تلك التي حين قبّلتها عرفت الفرق بين المطر والدمع، تماهت الصورة في راحة يدي.. ورشق خفيف يتواصل.. يتواصل، يزداد ثقلاً، تنمو للثقل أذرع تسرق خطو الأمس، نزق اليوم، نزف الغد.

.. وأنا في الشارع، والظلام، وعيون القطط الساهرة.

رغم ندف الثلج،

وهمهمة الريح،

وذكرى تلك التي حين..

ننتظر.

الحكاية

تنشر شهرزاد حكاياها على مداخل الأسطورة، تمدد ساقيها على الأريكة الذهبية، في أصابعها وهج الحنّاء، ومجلة أزياء، ترشف كأس «الفودكا»، في غرفتها سحر شرقي، ونقوش، وزخارف. التقطت جهاز «الروموت كونترول» من على المنضدة المذهبة، باصبعها تعبر مدن العالم، تسمع الصوت الشهرياري على قناة الـ«سي إن إن»، فتبتسم بسخرية، وتبتلع حبات من اللوز الفاخر، يرطن شهريار بإنجليزية مكسّرة الأجنحة، بينما يثني «لاري كينج» على فروسية شهريار في ميدان اللغة..

«إنك تتحدث لغة الإنجليز أفضل منهم».

يفتح شهريار عينيه ببياض مدهش، ويتمنى لو يلمّح ذلك المحاور إلى فروسية أخرى تتعب اللعبة عيني شهرزاد، تنتقل إلى قناة أخرى تعرض الموضة الحديثة، سيقان طويلة، وبطون متوهجة، وصدور أينعت فحان قطافها، تنتظر شهرزاد فارسها ليقرأ عليها بقية الحكاية، تفهم لغز اللعبة، ما سر تلك المدينة المثقلة بأحزانها؟ ما قصة الخرافة والشبح اللذين يحاصران الأنهار، والساحرة التي تقتات بخبز المساكين؟!!.. لكن شهريار يهاجر من مدينة لأخرى، يبوح بحكايات ألف ليلة وليلة للغرباء، يشرب أنخاب النصر، تمد شهرزاد يدها إلى الكأس العاشرة وتحلم بعاشقها الذي يتسلل خفية في أستار الظلام.

***

في المساء يخرج شهريار نَفَساً طويلاً من نارجيلته المعبأة بالجمر، ليل داج يحوم على الشرفات التي يخترقها القمر، في الخارج أصوات تحرس المكان وتخدمه، وفي الداخل هدوء مطبق، تطلب شهرزاد أن تسمع بقية الحكاية، في أنفاس شهريار، تتشكل رؤى وأساطير، «فقط.. كي أتأكد أن صوتك مطابق تماماً لأحاديثك عبر الفضاء».. تستشيره.. ترفع الحجاب عن رأسها فيتدلى الشعر شلال ليل، بخجل مصطنع تفتح أزرار فستانها فيندلق نهداها، بيضاوان كالثلج، ثائراغن بشهوة جامحة كحصانين يركضان عبر خميلة خضراء، غير مبال، ينظر إلى سلعته، يفرك يديه بقلق واضح. يرن جرس الباب، لا ينتظر أحداً، يفتح الباب، يغادر الوجود الشهر زادي، تتمتم هي ببضع كلمات غير واضحة، تدخل إلى ابن حزم الأندلسي عبر «طوق الحمامة»، في صفحة حددها شهريار بورقة إضافية، قرأت:

«يحكى عن الحسن بن هانىء أنه كان مغرماً بحب محمد بن هارون المعروف بابن زبيدة، وأحس منه بعض ذلك فانتهره على إدامة النظر إليه، فذكر عنه أنه كان لا يقدر أن يديم النظر إليه إلا مع غلبة السكر على «محمد».

وقبل أن يأذن الصباح، لتبدأ شهرزاد بالكلام المباح، أقبل شهريار متعباً، يجر ساقيه إلى المخدع الزوجي.. ونام، يجر في أدمغته ألف عام.

***

في الصباح الباكر، تسرع شهرزاد الخطى إلى المرسيدس السوداء التي تقلها إلى أمكنة مختلفة، كعادتها، منحت السائق الهندي ابتسامة غامضة، ورمت بجسدها الثقيل على المقعد الخلفي، ضغطت على بضعة أرقام في هاتفها المحمول، همست، برفق شديد، أسعدت العالم بأسنان بيضاء

أضاءت العتمة التي تكسو الفضاء الداخلي للسيارة، العقد اللؤلؤي في عنقها المترف أثار السائق فأصلح وضع المرآة العاكسة، وحين تهادت عبر باب السيارة ميممة شطر الباب الآخر، ابتسم الآسيوي.. كأنه يذكر الليالي الألف، ويسجل الليلة الأخرى كشاهد إثبات.

القاعة تزخرفت كعروس أسطورية، وصور شهريار تزين الحائط المقابل لبركة الماء التي تتناثر ألوانها طيفية حالمة. الإطارات المذهبة، والأرضيات بألماسها المرمري تتأنق في انتظار شهريار القادم، وشهرزاد على أريكة ناعمة تتولّه اشتياقاً لفارس كل العصور، يدخل شهريار وفي يده مجموعة من المجلات التي زينت أغلفتها بصورته، يأمر خادمه أن يوزع أوسمة على كل أولئك الذين شرّفوا مطبوعاتهم بذكره.. وقبّل شهر زاد.

أحضر الطاهي كأساً، وزجاجة خمر إسكتلندية، أفرغ واحدة منها أمام شهريار «أحبك، ألقى شفافا، لايقترب من هذه المتعة المحرمة». تلوي شفتيها امتعاضاً، يتناول «طوق الحمامة»، ويقرأ على شهريار حكاية الليلة الألف بعد الألف.يبتسم حين قرأ: «... وحدثني أبودلف الوراق عن مسلمة بن أحمد الفيلسوف أنه قال: في المسجد الذي بشرقي مقبرة قريش بقرطبة كان مقدم بن الأصفر مريضاً أيام حداثته لعشق بعجيب فتى الوزير أبي عمرو المذكور، وكان يترك الصلاة في مسجد مسرور، وبها كانت سكناه، ويقصد في الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب حتى أخذه الحرس غير ما مرة في الليل حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة، وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه فيوجعه ضرباً ويلطم خديه وعينيه، فيسر بذلك ويقول: هذا والله أقصى أمنيتي، والآن قرت عيني، وكان على هذا زماناً يماشيه...».

صدر الريح

دفنت رأسها في صدره، احتضنت قفصه الصدري بقوة، قالت: صدرك مملكتي، لكنه حكم شجرة الدر، غداً سيغادرني، وأبقى وحيدة كأنني الليل. ابتسم الرجل داخله: «أنت تلميذة في مدرسة الحب.. دعيني أعطيك دروساً أكثر».. أغمضت عينيها، وغابت في حلم العناق، وحين أفاقت سألته عن مدى صلاحية الحب في صدره.. أجابها: «سيحميك من الريح».

في الصباح وبينما كل شيء يتلون بالذهب.. تناولت حقيبتها المدرسية، وضمتها إلى صدرها بقوة.. كالرجل الآخر تماماً: «أحب أيها النهار، ذكرى حبيبي معي، ولون كلماته تحفظه رموشي».. تناولت القلم وكتبت قصائد شوق ملونة، رسمت صدراً يمنع موج الريح، وامتطت غيمة بيضاء إلى حلم بعيد كشفافية الروح، كالملكة المتوجة؛ داعبت خصلات شعرها بأصابع جميلة كساها عطر الحناء جمالا لا يضاهى.

***

الليلة الأخرى تتكدس في حقول الزمان والمكان، والأمكنة تتحول إلى ضفاف شواطئها جزراً من الأقمار لا تنتهي، وأمل تخضب كفيها من رائحة الانتظار أسفاراً تبدأ من صدر رجل العشق، ولا تنتهي إلا في مواسم جفاف العاطفة.

- جبينك سجادة بوح وغرام.

... وهي صامتة تعبث بالحلم يفجره نهار الغد.

- «أحب وجهك غائماً وحزيناً».

... يخفق رمشاها بدمعة حانية تستجدي آخر الحلم.

- صدري بوابات مفتوحة إذ يضيق بك الرعب من الحياة.

... من وراء زجاج الدموع تتكسر نظرتها إلى صدره.. إنه البوابة الوحيدة والبعيدة.

- لماذا الصمت يا حبيبتي، وبيننا بحور العشق تنتظر منا الإبحار؟!!

تلتقي نظرة الخوف، ونظرة الرغبة، عيناها تغسلان صمت اللسان وضجيج الجسد.

- ما آخر الحلم؟!

- حلم آخر.

- وأين يقظة الواقع؟!

واقعنا جميل، بحر لا نهاية له.. لماذا نغتاله بحسابات الغد، ويومنا مدفون في وحشة الجفاف، والأيام معركة الخاسر؟!!

الطريق إلى الجامعة تكسوه خفقات مطر البارحة. أمل تصارع خطوات الأمس القريب، ومن خلال السحب ترنو إلى قمر الليالي التي سهرتها تحلم بالحصان الأبيض.. الطريق يتلوى تحت عجلات «الباص»، والجامعة تبدو كأنها آخر العالم..

«السنوات تعبر جبينك يا أمل أسرع من عمرك».. يا صديقتي مَن يأمن العاصفة؟!.. «كانت نجمة تسكن القلب».. وفي مرماها تتباعد السنون..

«اختاري قدراً، ودعي النزيف يستمر، قد يتوقف يوماً، قد تولد الحياة من رحم الموت.. يا صديقتي، الريح تهب قوية على صدري، والحلم يتلاشى، وأنا..

***

هي... والسكون... وروزنامة هيبة الليل تتأرجح تحت ثقل العواصف.. أمل تختزل مساحات الظلمة، وتجر أنفاسها إلى المدن البعيدة، في الغرفة شمعة وكتاب جامعي أوراقه تسبح في فضاء آخر.. الريح تعبث بلسان الشمعة، وأوراق الكتاب.. تمتد يد مرهقة إلى الهاتف.. الستارة تخفق مع هياج الطقس..

- الشمعة تكاد الريح تقتلها.

- ....

- لكنه الليل يا حبيب العمر!!

- ....

- الريح تأكلني، فأين صدرك أقهر به محطمة الجبال؟

- ....

- الليل يزداد سواداً، والريح تمزق الستارة، والشمعة الوحيدة تأكلها الحلكة، وقف الليل يدثر وجهاً كأنه بقايا أسطورة قديمة، وسماعة هاتف تسقط، وشيء قد تهاوى كأنه آخر ما تبقى من أمل.

أطلال حلم

(1)

تمدد البحر في خاصرة النهار، وتثاءب ببرودة الموتى، رمى أوراقه وانسل يتبع الخطوة بالخطوة، الموجة بالموجة، حتى إذا وافاه الليل التهم الشمس وكست وجهه حمرة الموت.. أو المساء.

(2)

خالد يحلم بالبحر، وهو في شفافية الحياة يناجي السفن البعيدة، تلك التي بلا مرسى، يجمع الريح في باطن كفه، يكتب على الرمل شيئاً ما، لعل يوماً يأتي ستكف فيه السفن البعيدة عن الدوران وسط البحر.. على الشاطىء - وبحبر الريح - وضع علامة استفهام كبيرة، جاءت الموجة حطمتها، ضاعت العلامة، وبقي في رأس خالد سؤال.. أضاعت إجاباته مساءات البحر المتأخرة، ورعشات كأنها جلجلة الاحتضار...

- سنعود يوماً أيتها الريح.. صديقة الموج والسفر، سنحتضن الفجر، ونداعب أهداب القمر.

- ....

- السؤال ينتظر الإجابة؟!

- ....

كأن موجة حدثته أن الريح ستعود، وحين سألها الإجابة، تهاوت منكسرة على الرمل.

خالد، والبحر.. ورمال تنام بامتداد ملايين السنين، خالد في أسطوريته ينتظر الحورية تهديه زنبقة لليل.. نرجسة للنهار، والسؤال هو السؤال.. مدينة تشق هدوء البحر والمساء.. السؤال عقيم لا ينبت إلا أوهاماً كالزبد الذي يرميه البحر فتلتهمه الريح، يركل خالد بقايا الشاطىء فتستقبله المدينة بأبنيتها البيضاء الجميلة.. طوابير المصابيح تبعثر سواد الليل.. يحس خالد أنه عار، وأن شيئا يترصده.. يغمض عينيه فيرى الليل عائداً في إغماضاته، لا يحس إلا نفسه والليل، وصوت البحر القادم إليه من بعيد لا يزال يطارده.

(3)

خالد والبحر، ومساء حارق، نداوة الطقس تسبح في الفضاء كأنها شبح الحرية.

- سنستعيد النهار أيتها الريح.
- لكنك تخاف الشمس.
- أخاف كل شيء يكشف عن نفسي.
- والنهار؟
- نهاراتي لا بد أن تحتضن ملايين الغيوم.

... متوحد، عن هذا العالم يجلس على بساط الرمل يلتحف الظلام.. السؤال يكبر.. الإجابة في عمق البحر، «الليل من أمامي، والبحر من خلفي».. المدينة تعتصر أوردتها، وتنام كل فجر، والفجر حمامة دون جناحين، تسقط في قاع البحر.. فتموت.

يلوّح خالد بيديه صوب الماء، والموج يخفق بجناحيه صوب اليابسة.. في صدر خالد تتكسر ألف موجة، وفي غيبوبة يومه تتفرع أوهامه قطعاً صغيرة..

كالمرآة تتهشم فيكون لما حولها وجوه متعددة، إعياؤها يوحي بموت قادم.

اليابسة تزحف ببطء إلى صدره، والملوحة أشد إيلاماً، يتضخم السؤال ملحاً وجرحاً.. الشاطىء يقبع في مسائه هذا كالسكينة القلقة من رعب مفاجىء. خالد ينظر لليابسة حيناً ولسواد الزرقة حيناً آخر، بينهما انعطاف نحو الهاوية، صدر مزروع بالشجن والحنين، صدر تغتاله المساءات الهادرة بصخب البحر. الألوان تزداد حفيفاً بمشيتها المتكسرة.. صفراء وحمراء تترقب الليل، تخرج من قماقمها التي تنام فيها حتى منتصف الليل.. المدينة تضاجع أضواء المصابيح حتى الفجر.. والفجر حلم النائم، وخديعة الساهرين.. خالد، والمساء.. خالد، وحلم السؤال.. خالد، ووهم الإجابة.

(4)

يفتح خالد مفكرة عمره، نقاط من الليل تندلق على ركبة الجواد الخاسر.. الفنارات تمزق السواد، لكنها عاجزة عن الصياح وسط الشعب المرجانية كي لا تضيع السفينة وأرواح البشر عليها.. «نائم أيها الحلم في أوردة الليل، لكن الليل بائس».. خالد يمزق أشرعة غيومه، ويبحث.. والسؤال هو السؤال.. قارة الضياع.. سرّ برمودا حيث التيه لايستوجب إيضاحاً.. كيف؟!.. لماذا؟!.. متى؟!.. عناوين البكاء تكتب أحزانها بمكبرات الصوت، وصوت خالد ضعيف لا يصل إلى أذنيه.. ينظر ملياً إلى شهادته الدراسية، إلى حلم أبيه ودعوات أمه في ثورة الشقاء..

- خالد الطريق طويل، وزادك قصير.

- لكني سأصل يا أبي.

- دونك من الأشياء لا تزال صغيراً عليها.
- سأنحت في الصخر.
- سيأتي عليك يوم تكون فيه بلا أظافر.
... نعم يا أبي، صدقت.. وبدون صوت أيضاً.

(5)

خالد يعود إلى البحر، وفي يديه علامة استفهام كبيرة، وضع قدميه على الشاطىء، وصرخ في وجه البحر.. «ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي».. والبحر يتهاوى بعظمة.. يشعر خالد بضآلته.. حورية البحر تخرج من منعطف الليل.. تقول له: لا تحلم، وتمضي.. يصرخ خالد ببكاء.. لكن السؤال هو السؤال.. تأتيه موجة تسأله عن دوامته...

- السؤال؟!

يختنق الصوت في رحم الصمت، يزحف البحر نحو قدميه.. يلامسهما.. كأن المدينة تزحف أيضاً.. بين اليابسة والملوحة.. البحر.. الأمواج.. السواد.. عتمة الماء.. بين فكين يضيع.. يسافر بين موجتين.، وكأن ليلة مرت على الأعين المتعبة، وكأن فرساً كبا وسط ضجيج لا يقاوم، أحس خالد أنه انتهى.. سقط.. احتضنه الرمل.. الموجة تسأله عن السؤال.. يغص خالد أكثر، تجحظ عيناه نحو المدينة، ويشير بسبابته نحو الظلام، تأتيه الأمواج واحدة بعد أخرى.. ويأتيه الليل كابوساً لا ينتهي.. في غيبوبته شعر خالد بأن حلماً يرافقه.. حديث أبيه ودعاء أمه، تسبح الأمواج في فم خالد وصدره، تسمع المدينة غرغرة السؤال في زبد البحر.. وزبد آخر يخرج من صدر الضحية.

ليلة

أدرت وجه الليل في سماء قريتي، كان ظلاماً يلف أعناق النخيل بأرديته السوداء، حتى في المساءات ذات الظلال الكئيبة ترتسم أفئدة البشر معلقة في سعف النخيل.

« المستقبل ».. هذا الكائن الهلامي يرقد في جمجمتي مستكيناً دون لون. المدرس بصلعته المثيرة لضحكنا، سمعته يردد هذه الكلمة حيناً بعد آخر، كلنا أخفقنا في إجابة لسعنا بهذا الكائن المرعب الذي يسمى مستقبلاً.

النخيلات حول منزلنا عالية ناشرة أرديتها صفراء وحمراء، بعضها صار أسود إيذاناً بأن علينا - نحن معشر الأطفال - بذل جهد كبير مع موسم « الجداد ».. عصا أبي لا ترحم، وأجسادنا الصغيرة بينها والعصا ثمة علاقة لا تنفصم عروتها، المعلم أيضاً لديه عصا.. أكثر غلظة وعنفاً لكنها لا تبكينا، في احتمالها شيء من الرجولة.

يطل المساء علينا خافتا إلا من ضوء قنديل كسول معلق في نخلة « فرض ».. الريح تعبث بهامات النخيل فيصبح الصوت خطوات ساحر أو صرخات ميت يمشي بخوف جلّلته الحكايات.. جدتي تحكي عن الأفعى التي تحولت إلى حسناء.. تدهشني حكاياتها، تداخل الواقع والأسطورة.. بعضها حالة من الهذيان، رؤية غائمة في سماء مجدبة.. أردد مع جدتي « بنات النعش شالات النعش، بو قال سبع ما طاح النار ».. بنفس واحد أقولها خوفاً من النار التي قال عنها معلم القرآن ما أثار الرعب في قلوبنا.. ،كأنني ملكت مفتاحاً من

مفاتيح الجنة، قبلت بعيني القنديل.. القمر المبتهج.. النجوم المنسابة من خلال أذرع النخيل.. حفيف أشجار الأمبا، ،رائحة أتت من بعيد كأنها البهجة.

ألم في ساقي. كرة القدم التي لعبتها حافياً، بعض اخضرار على مساحات مختلفة من جلدي، لم أتذكرها هل هي عصا المعلم أم عصا أبي؟!.. مساحات تتمدد في قلبي الصغير.. انفجارات تولد في عيني، هاجساً يخبط رأسي بقوة.. شيء ما.. خوف ما، شحوب يعتري كل الأشياء حولي، هاجس يقودني للتمرد على هذه الكائنات التي تنبت في قاع قريتي. هناك حديث ما عن كائن خرافي يسمى التطور.. قيل عن قريتي إنها متخلفة.. لم أفهم الكلمة جيداً رغم وصول بعص أحرفها إلى فهمي المتواضع، هنا الخوف تسقطه ظلال النخيل فنحبس رعبنا هرباً من حكايات الصباح عن خنوع أبناء اليوم وجبنهم. نفتعل كل خوف، نصنع منه سلالاً لأحلامنا كي نرى العمارات والسيارات الجميلة.. في طفولتنا يظل القلب مساحة هائلة للتخزين، المدرسة.. قلق جديد، وإضافة أربكت خطواتنا الطفولية الحارة بين أساطير الجدات، وحقائق الكتب المدرسية.. سخر المسنون من كتبنا الجديدة التي تتحدث عن الدجاج، ومريم التي جاءت من لبنان، ولم تخبرنا عن علماء بلادي.

أغلقت عيني، شبح ما يدخل رأسي، يهدم ما تبقى له من سكينة، يسكب بقية رعب تحت جلدي، أربكتني خطوات أبي نحوي، تمتمات كأنها الحلم، صدى صرخات حولي، قناديل تشتعل فيها نار ميتة تتردد بين جنبات النخيل، صوت أبي يضيع بين أصوات أخرى تأتي أعلى من نخيلاتنا.. حسبته شبحاً قادراً على أن يرسم كل هذا الرعب، وكأنني أطرده أغمض عيني مرة أخرى، وكأي نفس طفولي زرع النوم جذوره في دمي.. نمتُ.. نهضت مذعوراً.. يد أبي ترتطم بتوة على وجهي، أدركت أن شخصاً في عائلتي قد مات.. من هو؟!..

لا أعرف.. جلست من أثر الصدمة على بطانيتي المتآكلة، هي كل فراشي.. مَنْ هذا الذي مات؟! مَنْ ذلك الذي أسأله؟! من الذي يجيبني؟! أصوات الجيران ترتعش بالبكاء، خوفي لفني بصمته، خطوات تأتي.. أخرى تذهب.. يضيع معظمها بين خفقات السواقي.. الأجساد تتزاحم حول لفافة صغيرة.. هي موضع الاهتمام إذن!! الميت.. فقيد عائلتي.. أخي قد مات.. الموت.. القبر.. الجنة.. النار.. شخوص يمرقون.. تساؤلاتي تزحف نحو قلبي، تنمو لها أذرع كأخطبوط عملاق.. أقف صامتاً دون بكاء، رمقني أحدهم كأنه يسأل عن هذا الكائن الذي فقد أخاه ولا يبكي.. استدررت دموعي، هي لا تأتي، لا تعني ما الموت.. أو أن الموت لا يعنيها.. قضية خاسرة في زمن خاسر.. يولد هذا، يرحل ذلك. لم أستوعب كيف تكون الصدمة؟! كيف يكون الدمع مولوداً من رحم الأحزان؟! شربته فقط من عصا أبي وصوت معلم القرآن، وعصاه حين تنهال تضع خرائطها رسوماً على جسدي، يبكي الآخرون بحرقة ذلك المسجى في لباس أبيض تحت شجرة أمبا ضخمة.. أخي انتظر كثيراً ثمرة منها تفرحه، يسابقني إليها.. رحل الآن.. والثمار لا تزال خضراء.. سؤال يقفز دون إجابة.. صرخات أمي المتتالية تزداد حدة عندما همّ الرجال بحمل أخي على أعناقهم.. مشيت خلفهم.. كلمات الاستغفار يطلقها هؤلاء.. والصلاة على الرسول.. أخي ذاهب إلى الجنة.. قال ذلك أحدهم.. فرحت له.. حزنت على نفسي رغم أنني قلت عبارة جدتي سبع مرات بنفس واحد.. تتلقف الأيدي جسد أخي الصغير بسنواته الأربع، كان مستكيناً، الموت شيء مختلف، يعلم هذا الآدمي كيف يصمت، أن يكون هادئاً للمرة الأخيرة على سطح الأرض.. اقتربت من صرة يقف حولها أربعة أشباح.. رؤيتهم غائمة.. وجوههم يكسوها لون الليل وغبرة التراب، أمامي الليل والقبور، مساحات عميقة

للحزن، دون دمع، كأنني كائن من عالم مختلف أقف على حافة القبر.. كل الأشياء حولي طبيعية لا تثير دهشتي، غسلت بعيني منازل هؤلاد الراقدين في هذا الليل « وحدهم ».. قشعريرة تُخرج جسدي من صمته، بدوت كأنني أفيق من حالة إغماء.. في منتصف ليلة.. بين القبور.. أموات يرقدون هنا بعضهم يعذب الآن وآخر يسأله ناكر ونكير، عقارب، أفاع، أشباح تأتي.. ديدان تنخر الأجساد المتعفنة.. نظرت إلى رجال قريتي.. دققت النظر فيهم.. أجسادهم ستشبع الديدان.

جسد أخي الصغير ينزل في حفرة القبر.. حينئذ عرفت أي مأساة كنت فيها، كحبة دقيق بين فكي رحى هائلة.. نزل التراب شيئاً فشيئاً على جسد أخي.. رداؤه الأبيض الطاهر خالطه التراب.. طوفان يغلي في قلبي.. زلزال يهز أركاني.. أتداعى.. أهوي.. صرخة فجّرت هدوء المقبرة.. أحسست أن صدري انشق، هويت إلى القبر أزيح التراب عن الكفن الأبيض.. عن أخي.. أصرخ في الجميع.

....

سكب الزمان أيامه في عمري.. وتذكرت كأن رجلاً قال لي إنه بعد دفن أخي حملني الرجال أنفسهم.. وبالخطوات نفسها التي حملوا بها أخي.. عدت أنا بين أيديهم أخطو مع السنوات نحو ما تمنيناه معاً..

وأخي لن يعود.

الكارثة

الجلسة الأولى

القاعة الواسعة، والمزينة من كل جانب كأنها بقايا أساطير ألف ليلة وليلة، القاضي بلحيته الكثيفة يقبع وراء طاولة مرتفعة، من وراء نظارته السميكة أطال النظر في الجالسين.. هو واقف كالعصفور الجريح وسط غابة من الصقور يحسبها تنقض عليه اللحظة قبل التي تليها..

ينتفض القاضي سائلاً بطريقة درامية:

- لماذا سرقته؟!
- لم أسرقه.
- لكن هناك عشرات شهدوا بأنهم رأوك تسرقه!
- لم يشاهدني أحد أسرق شيئاً.
- إذن لماذا تعتقد أنهم فعلوا ذلك؟!
- ....

يصلح القاضي جزءاً من هندامه الناصع البياض، ويرتد إلى الوراء قليلاً على كرسيه الكبير رافعاً نظارته قليلا يتفحص الواقف في الإطار الخشبي.

- الاعتراف أفضل لك، يجب أن تكون مواطناً صالحاً كالبقية.. لماذا سرقته؟!
- أنا لم أسرقه، وإنما .. أخذته.

سرت همهمة بين الجالسين وراء الطاولات، الطاولة الكبير المزخرفة، والأخرى الجانبية، وشيء مختلف بين من هم أمامها.

- ما الفرق بين السرقة والأخذ؟!

- ....

- لماذا تجمد لسانك؟! لقد أخرسك الحق.

- ....

يلتفت القاضي إلى اثنين عن اليمين والشمال يكتبان إفادة المتهم، وحين تأكد أن أقلامهم مستمرة في الكتابة، ابتسم حتى رأى الجالسون أسنانه الصناعية الجميلة. نظر إلى المتهم متهكماً:

- من يسرق الشيء الصغير يمد يده إلى ما هو أكبر.. لابد من قطع يدك.

فجأة انفرجت أساريره، وبدا كأنه يريد أن يفتح فمه، إلا أن سعلات القاضي تواصلت بشكل يدعو للشفقة، وحين أنهى نوبة السعال، كانت عيناه مفزعتين، وحشرجة في صدره تتردد كالعاصفة.

- يا سيدي! قلت إنه كان شيئاً صغيراً، وكل الشهود وصفوها بالكارثة.

- أرى فصاحة قد خيمت عليك.. ما أخذته ليس صغيرا انه شيء غال، كان سلساً وجميلاً.

- لكن يا سيدي.. كان فارغاً.

جحظت عينا القاضي، واحمر وجهه، ازدادت درجة الحرارة، وارتفع الضغط داخل القاعة، ومن فيها. مسح القاضي جبهته بمنديل ورقي معطر، يفهم شخص هناك ما دار ويدور، فيصيح:

- رفعت الجلسة.

الجلسة الثانية:

في المربع الخشبي نفسه، يقف بخشوع الموت، تتأمله الوجوه برغبة غير محددة، يغوص في نفسه أكثر، كلهم قضاة.. وحده المتهم.

يفتح أحدهم كتاباً سميكاً، وتنهال الأسئلة على المتهم.

- كم راتبك حتى تضطر إلى مد يدك إلى مال الغير؟

- هل أقول الرقم الموجود في دفاتر العمل، أم الذي يصل إلي صافياً؟!

ضحكة خفيفة لا تعبر عن الوضع المتأزم.. السؤال الإجابة يزيد من حدة الصمت والترقب، كأنها صلاة جنائزية، الصمت يمر بدقائقه كأنه الدهر.

- كفاك تذاكياً وأجب ، وإلا ..

- يا سيدي، ثلاثة يتقاسمون معي راتبي المقدر بمائتي ريال في ورقة التعيين.

- إنك تكفر بالنعمة.

- ....

- هل تنكر أنه أصبح الآن لديك؟!

- لا.

- أخذته إذن بعد طول انتظار وترقب.

- نعم، ولكنني أخذته من سلة المهملات، أخذته بعد أن أحسست أنه فارغ.

- أنت تعترف بالسرقة؟!

الأمر لمن يهمه الأمر..

رفعت الجلسة.

الجلسة الثالثة

الوقار يعم المكان، يدخل غارقاً في صمته، يتخيل ذلك البائس الذي يدخل في اليوم الواحد عشرات المرات حاملاً الشاي والقهوة، والأوراق، وأشياء أخرى

إلى سعادة المدير، تثقل كاهله الإهانة، تدمي آدميته، وحين يعود إلى البيت تقول له زوجته مواسية: «علشان خاطر الأولاد».. يصمت أمام تعزية زوجته، ولكنه يقول لصاحب المكتب الوثير: «أتمنى رضاءكم» و«أفضالكم علينا وعلى الأولاد».. والراتب يعزف مقطوعته القديمة.. يا من يقف وراء الكرسي.. الراتب يبكي أيام الشهر الأولى وأبكيه بقية الأيام.. يشرب المدير قهوته الصباحية من الفنجان الخامس، وبقايا الأربعة السابقين تراق كأنها الكرامة.

الحكم

إن العدالة هي مصدر فخرنا، وهي الميزان الذي تخضع له جميع نواميس الطبيعة، وبعد الاطلاع على ما جاء في المحضر، وما سمعناه من اعترافات المتهم، ولأنه مد يده إلى ما ليس له، وحتى لا يوجد بيننا سارق - فإن العدالة تقضي بمعاقبة من تسول له نفسه المساس بهذه النعمة التي نعيشها و.....

الواقف هناك، في المربع الخشبي، تتماهى الكلمات في أذنيه، والصور تزداد ضبابية.. مساند ساقيه تتباعد، كأنها مجاديف مهترئة لسفينة تغوص مع عاصفة حمقاء إلى الهاوية، وذلك المتكلم لا يزال يقرأ: «إن الله تعالى أمر نبيه بكلمة {اقرأ}، فهي البدء، والبرهان الكبير على قيمة الكلمة، وعندما سرق المتهم قلم المدير فإنه أنكر ما قام به ذلك القلم، وارتكب جريمة شنيعة في حق العدالة».

بعد دقائق أصبح المربع الخشبي فارغاً..

... بعد دقائق كان هناك امتلاء آخر

مجرد ملاحظة

في الناصية مدن تعبث بالأشياء، تعطيها عناوين الليل تضاجع مخيلتها حتى انبلاج الهاوية. كانت الريح تسكن الشارع، وكان الشارع يسكن أرجوحة العبث. ذات يوم أيقنت الريح أن الأسفلت محرق، وأن طعم النار هو لون الثلج، وأن طعم الثلج هو لون النار، فتح الجحيم داخل شرايينه، ورأى إذ أغمض عينيه بقعاً تتوسط المكان، في وسطها بقعة كبيرة تكتب الزمان بعقارب متباعدة كأن الريح تحركها. قالت الشمس: ضع خطّا فوق رأسك، واقرأ على روحك الفاتحة. رفع يديه على رأسه وقرأ كل شيء.

وراءه شارع، أمامه شارع، على يمينه شارع، على يساره شارع، فوقه ألف شارع، في كل الجهات ألوان سوداء، الخطوط البيضاء المفترضة لا تكاد تُرى، الشاحنات أكلت العربات الصغيرة وأقعدتها عن السير. على رجليه وقف متصلباً يحلم بخطوط بيضاء كبيرة، تنقله، تنقذه، ربما تعطيه «أسبرين» ضد الصداع، وضد التآكل.

عبره رجل ما، قرأ في عينيه السؤال، داعبه بحديث ممل..

- هل عبرت إلى الضفة الأخرى؟
- لم أجد الجسر.
- هل عبرت إلى الضفة الأخرى؟
- أضعت الدرب.
- قلت لك للمرة الألف، هل عبرت إلى الضفة الأخرى؟

- أضعت قدمي، لم أجد شيئاً إلا الضياع يا أبي.

غادره الرجل الوهم، جلس القرفصاء على حافة الرصيف، خفض رأسه كأنه يتأكد من وجود قدميه، أمعن في حساب المسافة للحظة الانعتاق نحو الضفة الأخرى، هذه الضفة ليست إلا مجرد ملاحظة.. «سألني أبي عن حدود الهاوية، لم يصدق حين قلت: لست أدري..».

كل الفضاء وجوه تعبر أشعة الشمس، والشمس حارقة، والغيم حارق.. والدم في بوتقة القلب حارق.. حارق.

وجه آخر يمتطي سحابة السؤال، يعطل هذيان الأمكنة. في الوجه دائرة وعواصف، وبراكين الأسفلت تغلي دون حمم. في القلب مقذوفات البراكين، وفي الشوارع الممتدة.

- إنك في الضفة الأخرى.

- ربما ذات موت.

- ماذا ستكون هناك؟!

- عابداً لصنم، ساعات كل يوم.

- لكنك ستكون نسيجاً فوق كرسي، أمام طاولة.

- دورة الحياة.

- أو دورة الموت!!

- أو قل دورة الموت لاستمرار الحياة.

تحسس مظروفاً في يده، كتب في مفكرته «مجرد ملاحظة: دورة الموت لاستمرار الحياة. فلسفة الجسر الذي يعبر إلى الضفة الأخرى».

.. كانت الأوراق ثقيلة، والمدن داخلها نائمة، سكرى، احتضنها أكثر؛ خوفا من الريح، ،الشوارع المثقلة بالشاحنات وبالبشر. الوجه يعود مكدساً

أشلاءه في المساحة الضيقة بين السطر والسطر داخل مفكرة مهزومة..

- تناول كل صباح آلة حاسبة، فلا تسعك الأرقام، ستتوه في زحام المواكب المتسارعة بحثاً عن مجد.

- أريد أن أمارس الحياة لتكتمل الدورة.

- ارفع رأسك قليلاً كي تمسك الحاسبة من مكانها الصحيح.

- لا رقبة لي لكي أضع رأسي فوقها في الوضع المعتاد.

- إذن عليك أن تحفر حفرة، البس بياضك وغادر سطح المدينة.

الشوارع نبضات تخفق بسرعة، والسرعة كارثة، والكارثة امتداد لخطوط الشوارع. حدثته أحلامه أن يعبر الكرة الأرضية تحت ظل غيمة، يعبث بالخطوط وألوان الزرقة، والحلكة. اقترب منه شاب أعطته الشمس لوناً قمحياً إضافياً، يحاول جاهداً أن يلملم نفسه وسط زوابع التبعثر. نظر الشاب طويلاً إلى الأرض كأن نظره مزروع فيها، والأشعة حارقة، والحلم حارق!

- كيف زادك؟

- شهادة جامعية، وعشرات النسخ منها توزعت في مدينة صديقة للبحر، متسعة ومالحة، لاترحم أسماك السردين.

- هل من أوراق أخرى؟!

- شهادة حسن سير وسلوك، فقط لاغير. آه، لقد نسيت، لدي مفكرة صغيرة لتدوين الملاحظات الخاصة، فيها أدون تفاصيلي بعد كل باب أسمعه يُغلق.

- أنت متشائم؟!

- على العكس تماماً، أنا متفائل، وإلا ما رأيتني وسط هذه الشوارع.. قل لي أولاً، ما معنى الكلمتين؟ أحس أن الشمس أفقدتني قاموس الكلمات.

خرج الشاب من الإطار الصغير، حمل المتعب ملف الأوراق إلى صدره، وتنفس بصعوبة. أخرج المفكرة وكتب: «الزمن يسكن قارعة الطريق، والمكان يسكن كل شيء. قال أبي: إن الشباب زهو وخيلاء. وبعد أن تقاعد قال: إن الشباب عزيمة ونجاح. ومنذ يومه ذلك يسألني عن الضفة الأخرى.. المستحيلة. قال أبي: اقنع بالقليل. وغضب إذ أجبته: إن القليل هو قناعتي، لكن أقل منه لا يعني إلا البؤس. دعني أحاول يا أبي لأصل إلى القليل».

أخرج الشهادة الجامعية من مخبئها، نظر إليه بتأمل العاشق، أعجبته الألوان، وبدت مساحة ضوء لما تساقط عليها من أشعة الشمس. ازداد الهواء نحيباً، لبست الشهادة جناحين، وتضامنت مع الريح. عبرت الخط الأول في لمحة عين، كأن روحه ارتدت جناحين هي الأخرى. تلك الورقة، العمر، انتفاضة الروح، أصوات تراكمت من كل حدب وصوب، متمعنة، محوقلة، مبسملة. من سيارة أنيقة وضحت عليها بعض بقع من الدم خرجت ابتسامة جميلة على وجه وسيم، داعبت الريح شعرات انسدلت قريبة من الأكتاف، لمعت الساعة الذهبية تحت شعاع الشمس، والتمعت العيون مرتبكة بين ذلك الذي على الرصيف، وذلك الشفاف صاحب السيارة. بين اثنين، من حقيبة جلدية صغيرة، خرجت بعض رزم نقدية ألقيت على جسد دام. الابتسامة كأنها تلاشت من الوجه الوسيم، إلا أن رجلاً تناول المفكرة وسجل ملاحظته: «لا أستطيع القول لتفسير غياب الابتسامة إلا أن هناك من يقول إن الرزم تجاوزت خمسة آلاف ريال، والشيء المؤكد أن الريح عبثت بالأوراق النقدية، ولم يبق إلا القليل منها غاص في الدم».

اقترب الشرطي من الرجل مستفسراً عما يكتبه، فرد الرجل: مجرد ملاحظة.

ابن سهيل

في مغارته أيقن بعبثية المثول لسيد الليل وحده. وضع بندقيته على الكتف المتصلبة كالصخرة التي يتوسدها. أصوات الليل تأتي هامسة ومرعبة، وقمر هذه الليلة لم يحن موعد غيابه؛ فالليل يتلصص البقاء والمكوث برعب حول الجبل الغربي لـ« سرور »، والمغاييب ينشرون أعلام مجيئهم هذه الليلة باكراً. أصاخ السمع للأصوات المشبوهة المتبعثرة على المسافات المفصولة بين جذوع النخل في الجهة المقابلة، حيث القرويون ينشرون التمر، ويناموون على أنسام الوادي اللاهبة. وبين الجانب الآخر، الجبل الذي يمتد من مسجد الفج جنوباً وحتى « الردة ».. الشمال البعيد في غيب الأسطورة، لا ينام، يترصد عيون القادمين إلى حتفهم، والمسيّجين بأوامر الوالي وشيخ القبيلة، والساعين إلى نزيفهم الأخير.

دخل وكره الصخري، يتأكد من غنائم الأمس. العينان الغائرتان في محجريهما تلمعان شرراً، وفي وسطه يسكن محزم جلدي له لون جلدي عبثت به أنواء لا تحصى. مع الريح ينفرج إزاره عن ساقين لهما لون الصخر وقوته، مغبرتين كأي شيء آخر تعبث به الأقدار أعواماً في اليوم الواحد، كأنه قادم من أقصى البداوة،غائر في أزمنتها، له الجاهلية المتصابية في خمسينيات القرن العشرين. يعشق تمرده. حطم أعراف القرية، وارتمى في صحراء صنع تجاويفها داخل كهف جبلي، تلتقي فيه هوام الليل. مع الصخور، نسي كيف يخاف؛ الاصبع على الزناد، والروح في كف عفريت يؤرجحها كل حين. في

وحدته له فلسفته الخاصة، يقتل حينما يشاء، يسرق حيث يشاء. فتى القبيلة الذي تفاخر به، وهو المتمرد على سلطة البشر.

خرج من بيته، في تجاويف الجبل، القرية تترصده من بعيد مخفية رغبتها في إنهاء هذه الحكاية التي تسمه بالأسورة المتوارثة. في الأربعين من عمره، له قامة لا يثقلها إلا التفق الموازي لها طولاً وعرضاً، الرفيق في درب النزاعات اليومية. ملامحه لها طابع بدوي يستقي صوره من الطبعات القديمة لهياكل لا تعيش زمنها، حاد النظرات، تلقي جمرات فيمن حولها رغم أن أحداً لم يستطع تخيل ما لون تلكما العينين، أو ذلك الوجه الكاسر. سالم لا يأمن العاصفة إذا ألقت بمراسيها على خطه الأحمر الذي وزعه على رجال القرى المحيطة، ولا يأمن أحداً أن يقترب من سفحه الجبلي.

الليل حين يسكب سواده في وجوه القرويين، تتدافع همسات خاصة في الجدر الطينية، تتعرى الطرقات من أمانها نهائياً، تتنازع الصمت المميت. سالم قد يأتي، لكن ثمة همسات قالت بالأمس إن سالماً غادر المكان إلى قرية أخرى. هو ذئب ليل، لكنه يأتي مع لمحات الغروب، حيث تدخل الأمكنة في دجلها وشعوذتها، تنصب خيام الخوف، تترقب غازياً لا يرحم. تحدثت القرى عن أصابع سالم التي لا تفارق الزناد. ارتجف نفر غير قليل، وتدافع الحقد في القلوب على هـذا المخلوق البدائي. سالم لا يزال - في صخرية المكان المتوحشة - مع الليل يتصفح وجه هذه القرية، سرور، تلك التي تصلي كل يوم خمس مرات، وتعانق جاهليتها آلاف الخطوات. قرية تنتظر دخول السحرة إلى قفص الحفل الليلي الصاخب. صراخ المغاييب، والجبال المفجوعة بالمطاردات، بيت قاتل وقتيل. سالم، يتحرك في خطوات سريعة كركضة حيوان الكنغر، يثب على أطراف أصابعه كعادة كل أولئك

الذين باغتتهم الحياة في بداوة لا تنتصر إلا للرجل الذي يقفز في الهواء بخنجر مصلت إذا باغته أحد ما على حين غرة. لها قانونها الخاص، تكتب تقاسيم يومها بمداد مختلف، شأنها ككل من حولها على امتداد وادي سمائل. وعلى طريق القوافل الذي يعبر من مطرح ماراً بقرية «سرور» متجهاً إلى المنطقة الشرقية. تتراءى من بعيد عيون كأنها نايات الليل المتعبة. القوافل تبحث عن طريق آمن، وسالم يتصيد غنائمه مع لحظات هجوع القافلة على رمال الوادي.

كأن غفوة تصيدت وحش الليل المتوحد، كان صوتاً عابراً، بعث سالم المتحفز رصاصة في عتمة الليل إلى مصدر الصوت، هدأت الحركة. في الصباح كان هناك ثعلب يسبح في دمه، والأحجار تبارك دماً متخثراً، لوى سالم رأسه وندم على رصاصة لم تدخل صدر رجل. أخذته لحظة التذكر إلى يوم ليس ببعيد.. في طريقه شاهد رجلاً يحمل كيساً كبيراً على ظهره، وبعد أن لعلعت الرصاصة في الفضاء الرهيب، انكب الرجل على وجهه، والسائل الأحمر يتفصد من فمه وأنفه. أخذ سالم الغنيمة ليجدها بقايا تمر متيبس، زمجر بالغضب: «ما أضيع الرصاص فيك»! قالها للجثة أمامه، تناول خنجره وقطع عضو الرجل التناسلي ليملأ به الفم المختنق بتخثر الدم في الحلق الساكن.

القرية.. تتقطع الحكاية في أفواهها، تضيفه إلى واقعها المسكوب دائماً بصلوات يومية كهذه. قال رجل: إن رسالة من الإمام وصلت إلى شيخ القرية. انتفض أحد الجالسين، تلفت في كل الاتجاهات، قال بصوت كأنه الهمس: الإمام ضاق ذرعاً بسالم بن سهيل، كم من الرجال قَتَل، وكم من الأموال سرق. في اليوم التالي سرت حكاية سوداء أخرى تروى عن رجل تحدث عن سالم

أنه سارق وقاتل.

أحس سالم بالعطش، مشى بخطوات نحو السمرة التي يتدلى منها وعاءجلدي، أرخى أصابعه عن الزناد،، حلّ عن فتحة «السعن» رباطها، اقترب بفمه من الماء البارد، في داخله عطش كبير، وصحراء من الملح لا يهدأ ظمآها. بينما الماء يكاد يصل إلى الفم المفتوح، كانت رصاصة تدوي تفتح صحراء من الدم. أيقن سالم أن فلسفة جديدة تُكتب أبجديتها. هذا الكائن العجيب الذي تمرد على الحياة، يقترب من غروبه الأخير. رفع رأسه إلى الفضاءات السوداء من حوله، حاول أن ينتصر على الأنفاس المتحشرجة في الصدر، لكنها تغدو وتروح كعاصفة. السماء تتلبد بغيومها، الرعد يزلزل الأرض، والدم يمطر من رجل الكهوف القديمة أودية وشعاباً.

كانت الخطوات أبطأ مما تعود، والنفق كأنه في واد بعيد. حين تمكن من تفقه كان الدم يزحف بين صخور الجبل الغربي المقابل لسرور، وأصوات الرصاص تدوي في القرية. وجّه سالم تفقه إلى القرية يرميها بما تبقى لديه من رصاصات، إلا أنه لم يستطع رؤية ما إذا كانت تلك الرصاصات تصل إلى حيث يريد أم أنها تتساقط في الوادي المفتوح؟!

دخل الليل طرقات القرية وحاراتها، معبأً بغيوم كثيفة. الصمت يقيد حركة الألسن خوفاً من انفجار مقيت. قيل إن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب من الجهة الأخرى. سرت شائعة أن سالم بن سهيل لا تزال فيه بقية من رمق، وأن الاصبع لاتزال على الزناد المخضب برائحة دم القاتل والمقتول.

على طريقتها، كانت القرية تبعثر همسها، وضحكات تغدو، وأحزان تروح، وسالم ظل مسيجاً بأفياء أسطوريته.

حدث

على الجسر، ؛ أصلح من انحناء الخنجر، ماسحاً على لحيته عدة مرات قبل أن تعبث به رياح «الغربي» الحارقة، ازداد تفصد العرق من كل المسام المختبئة تحت «دشداشته» عتيقة، تبدو بيضاء من بعيد.

القرية من ورائه خيال حالم، والشارع امتداد أسود يفصل النخيل عن الوادي الذي تتوهج أحجاره جمرات ترهق المآقي، يزحف إلى شقائه اليومي، في صدره حلم الشباب المتقادم، يخفق كأي شيء آخر أصابته المدنية في مقتل، في ذاكرته.

«المعونة الاجتماعية» التي تكاد تنفد من بين أصابعه، لأن ابنه وجد عملاً في أحد مصانع الرسيل بتسعين ريالاً تزورهم كل شهر مع مولد الهلال، وتأفل قبل أن يكمل الهلال محاقه السواد يزداد حلكة في العيون التي تضيق احمراراً من وهج الشمس وغروب العمر.

مرت به أكثر من سيارة، دون أن تقف، فقط.. يشاهد من وراء الزجاج ابتسامات خاطفة، يعرفهم جميعاً، ومن أي لعنة جاءوا إلى هذ الحياة، مثلما يعرف كل الشائعات التي تدور عنهم، كأنه وحده المتبقي من ضجيج الأمس. داهمه صداع ثقيل، صخب العالم، الأتون المتوقد. ازداد الصداع حدة مع توالي الدقائق في ساعة «الويست إند» على معصم جلده المتصلب بسمرة طافحة. استند على قدم واحدة ليريح الأخرى، حركة أصابعه لا تهدأ مع كل سيارة تاكسي، مع ضغط الهواء الساخن وأشعة الشمس المنصبة ذوباناً على

كل شيء. رفع يده أكثر من مرة طلباً من أي سيارة تأتي أن تقف.

من الشارع المخترق قلب القرية، ،الملتقي مع الشارع الرئيسي، لمح من على بُعد عدة عباءات قادمة، تحتك الكعاب العالية بالأسفلت فتثير أصواتاً مدهشة، تقترب الأصوات منه أكثر. ابتسم الرجل داخل نفسه فرحاً بهذه الكروانات الثلاثة المتهادية دفئاً في هذا الجحيم الصيفي. على بعد عدة أمتار هدأ صوت الأحذية، وانتصبت الأجساد مديدة بقاماتها، جميلة عكس أي شيء آخر. اقترب آملا في فرج قريب، وصحبة في سيارة مكيفة مع صبايا القرية. بدت له الابتسامات واسعة، والأسنان البيضاء جميلة جداً لانعكاسها الضدي مع اللون الآخر للبشرة. قبل أن يقول شيئاً، انشقت الأرض عن سيارات عديدة تزاحمت من أجل العباءات السود، والعيون السود الواسعة.

نجمة

للمرة العاشرة أسمع طرقاً، أفتح الباب، ولا أحد، إلا امتداد الظلمة في فضاء العتمة والاغتراب. أعود إلى كتبي، وطاولتي الصغيرة التي صنعتها من ألواح كرتونية مصفوفة بعضها فوق بعض. بعض الخوف غادرني، وبعضه الآخر ما زال يرافقني. تعودت أن أخاف، وأن أرتعد رعباً في مساءاتي الطويلة سني الدراسة التي شارفت على انقضاء نصفها.

ذات مساء فائت، افترشت الضوء الباهت في غرفتي النائية عن الجامعة، قاومت الحنين والرغبة الدفينة في البكاء، وأغرقت قلبي بفيض من الدموع. تداعت الذكريات بهياج غريب، تكسرت الأمواج الزاحفة نحو القلب، وتجرعت حمماً لا آخر لها من الهذيان الحميمي نحو قريتي البعيدة في مشرق الأرض. أردت أن أطفيء لهب الشمعة كي لا تبقى وحدها الصاحية في مهب الريح فتحرق الأشياء والذكريات ومنبع الارتواء من تلك الحالات التي تعبرنا في ساعات الغيبوبة والصحو، كأن هاتفاً أشار إلى أن أبقي اللهب متأوهاً؛ من أجل مساحات قليلة من الضوء، كي تبقى المشاهد، والظلال المتراقصة على الحائط العاري إلا من صورة طفل في عينيه اختزال الوجع، وأشياء أخرى مبهمة أتسلى بمحاولة الكشف عنها دون عناء من تكرار المحاولة. طرقات خفيفة على الباب، كأنها همهمة الريح، دندنتها المعهودة في ليالي الشتاء الثقيلة، لكن الطرق يتبين للسامع بشكل أكثر وضوحاً. نهضت أتأكد من أن الريح وحدها هي التي توزع هبات الوصال في الليالي الباردة،

والتي تفتقد الروح لمسامر يهدئ لوعتها حتى انبلاج فجر قادم. أدرت أكرة الباب متيقناً أن الريح ستصافح وجهي ببرودتها مطمئنة على مقيم وحيد في غرفة صغيرة مترامية أمام فضاء لا بأس به من الامتداد. من خلال مساحة الظلمة تراءى لي أن كائناً يسبح في هذا الإعتام المتخبط في شتائية رطبة، واجهت بقايا الضوء المنثال عبر باب الغرفة أتبين القامة النسائية المحاطة ببهاء الريبة، غمازتان بديعتان على الخدين كأنهما خيال مبحر من أساطير قديمة، وجهها تاريخي فرحي وسورة صمت في جمال سماوي. آنست إلى صوتها المتفجر حياء، يستميح العذر في هذا العطر الذي سفحه على طقس يرمي ببرودته حتى الدم. ارتبكت، ورميت عبارة ترحيب كأني لم أقلها، كأنها قالت وهي تهم بدخول الباب الخشبي شبه المتداعي إنها زميلة دراسة..

- لم نلتق في الكلية!!
- لأنك لا تدير وجهك في وجوه الفتيات.
- ربما.. ربما!! والاسم الكريم؟
- نجمة.

حل الصمت لحظات إلا أن صوتها أبى إلا الإبحار داخل شراييني المتكلسة بفعل الظلمة والبرد والوحشة.

- هل لديك بعض المراجع للبحث الذي طلبه المحاضر هذا الصباح؟
- نعم، لكنه المرجع الوحيد الذي استطعت شراءه.
- سآخذه لأيام فقط.

تبعتها عبر الباب تحمل الكتاب، وتخرج. يصارع الفستان القصير تأوهات الريح التي أحسها ترتطم بساقين من فضة لا أتبينهما عبر الظلمة، وإنما عبر فتات الذاكرة. حين تقرفصت تلم الثوب كي لا يفضح البياض المنساب من

الضحكة وحتى إخمص القدمين. وحين أغلقت الباب - كان الصدى لا يزال يحمل لي مع صوت الريح بقايا موسيقى زرعتها هذه المرأة في غربة الوطن والليل، كأن أنفاسها هنا، كأنها لم تغادر الزمان والمكان. نجمة ليلية ترشد الحائر في تيه متنائي الأبعاد.

في المساءات الأخرى، خيل لي أن الباب يطرق، وأن الريح ليست وحدها من يعبث بالقطعة الخشبية التي تحول دون تسرب الظلمة إلى الداخل. وحين أزيح المزلاج، ينبعث صديد اللهفة والخوف من أعماقي. لا شيء إلاّ الريح والليل، يحرسان بابي، ولايحرساني. اعتدت موتي اليومي، ولا طارق يأتي يعيد لي عناوين الذين رحلوا. إيه يا مرسى المفجوع، إيه يا بوابة البعيد.. أرجعي لي ذاكرتي، وحضن أمي. أعيديني إلى حارتي، وأرجعيني طفلاً تتعبه الأماني، ولايتعب من الهذيان البريء. يا تغريبة اليتامى في المدن المسيجة ببارود الذاكرة، ما زال لليل صلوات الكهوف المفرغة، وفزع الأنفاس الموحشة للغربة التي تتوالد حتى داخل الدم. للمرة الألف أضع رأسي بين يدي كأنني أنتزع ذاتي منه، والريح تطرق الباب، وتراكمات الذاكرة تطاردني بمخاوف الذين هناك، كأن السحرة على بابي يحملون طبول الرمسة، ويتناوبون العواء. كأنهم على بابي يتقاسمون دم الضحية، وتعاويذ جدتي تطاردهم ببسملاتها وآية الكرسي. الطبول تقترب أكثر فأكثر، تعتقل الفراغ الباقي بين عقلي وجنوني، كأنها ضحكاتهم، تقرع خشب الباب وطبلة أذني، لكن المشهد يقودني نحو بئر تعودت على رؤيتها حين سامرتني نجمة، وحين ضحكت نجمة، وحين غرست سكين الوجد. يتناوب السحرة الزعيق في أذني، والآخرون يجرون أطفالاً ونساء لوليمة الليلة. يتقاطع صراخ السحرة والضحايا، لا يكفّون عن الطقوس المميتة في ليل أشد مضياً من سكين

المتاهة. يقفز المشهد الآخر في عيني كاللعبة الليلية. أمام موظف الإدارة بالجامعة، أسأله عن نجمة زارتني ذات مساء، حملت كتابي وأشياء أخرى لا تحصى ولا تذكر، يقلب ذلك في ملفاته، يبحث في الأسماء، يجده بعد ساعة من عمر الزمان؛ قرن من عمري، يريني صورتها، أراها لأول مرة بهذا الوضوح، فالشمعة ألقت بظلال الرعب على كل شيء. قلت له: نعم، هذه صورتها «الغمازتان البديعتان على الخدين كأنهما خيال مبحر من أساطير قديمة، والوجه التاريخي الفرحي، وسورة الصمت في الجمال السماوي»، سألني: متأكد؟! قلت: نعم. أجال بصره في ملامحي، كأنه يتأكد من شيء، تفحصني لوقت غير يسير، وسأل عن اسمها مرة أخرى. أعطيته الاسم كما قالته في ليلة شتوية موحشة، اجتمع البرد والخوف فيها خانقين أنفاسي. أي سماء تلك التي دارت بروحي، أو أي أرض تلك التي غاضت بجسدي!.. «هذه ماتت منذ عشر سنوات في حادث سير عندما كانت في السنة الجامعية الثالثة».

لم أصدق صوته، مثلما أنا الآن لا أصدق أن الريح وحدها من يقف على الباب. ذهبت مرة أخرى، رفعت المزلاج من تقاطع ضلفتي الباب، وجدت الريح تبعث بكتاب، ووجدت ظلاً يتقاطر في ضوء القمر، ووجدتني أعبر الحد الفاصل بيني وما أمام الظل. أمشي يقودني خوفي وشكي، وتيار الليل البارد يحصد أعصابي، أخطو ظلاً وراء نجمة. ومنذ آلاف السنين مازالت نجمة تغيب في ليل الوحشة والظلمة والبرد، وأنا خلفها، تاركاً غرفة بطاولة صنعت من ألواح الكرتون، وشمعة تعبث بها الريح، وباباً فاتحاً ضلفتيه لايخاف من طارق ليل، وأمامه كتاب تقرأه أشباح العتمة..

ونجمة لاتقف فأسألها، ولا خوفي يوقفني فيسألني.

ما قالته فرح
أو ما قالته الريح

الإهداء

إليها..

سراب المخيلة التي داومت على استرجاع الصور، وفي حناياها شوك غادر مرايا الوردة. هل يجدي كل ذلك؟

(1)

اغتال الوقت، أتشظى في روائح الكون البائسة. الشجرة التي سجلت عليها الحرف الأول من اسمي، بقيت هناك تحمل العري في نحت الحرف الأول. تتقاسمني وجوه صدئة النظر الدائم، أشرد في مضيق الذاكرة كي لا تدخل قطارات الخوف كل شراييني، أعبر الجسر إلى الجسر، وأبدو من بعيد كالمعلقة بحبل مهترىء، وفي الأسفلت هاوية سحيقة.

البارحة، أعطاني الطبيب قرصا مهدئاً، قال إنه سيساعدني في الاحتفاظ بنفسي على أقل تقدير. صوت من بعيد أسمعه ينادي «فرح»، كأني أنا ذلك الاسم.أدخل أصابعي في شعري، أمسده، فيتساقط التراب جمرات في عيني..

«فرح» هذا الملعون الذي يسكنني كاسم منذ زفرة أمي الأولى، قالت أمي

هذه فرح، وقال أبي إنها كذلك.. تأخذني المنافي نحو البعيد، وآخذ البعيد نحو المنافي الساخطة في أوردتي. لو أمتلك الجرأة لاقتلعت رأسي، وأبكي أكثر. ولا أقول لو أمتلك الجرأة لمزقت رداء الحياة عن جميع من حولي.

« فرح » هذا النداء الخفي يعبث بأعصابي، إنه صوته، أعرفها تلك التراتيل التي ينطق بها اسمي، الفاء المفتوحة كمدينة خربة، والحاء بفحيح الأفعى المتساقط موتاً في جسد ناعم، كأن الريح تأتيني بصوته، كأن العاصفة تهب من تحت أقدامي.. تصعد بلون الجحيم إلى رأسي، أحتضن الشجرة أكثر، ترمقني النظرات متشرذمة بين الشفقة والجسد، ألملم أطرافي، أخفي جزءاً مكشوفاً من ساقيّ، قال عنهما ذات يوم إنهما نهران من ثلج، ابتسمت، وبادلته السكينة والصمت. رجل يعبرني، امرأة، آخر، أخرى. والمكان معبأ بالوجوه التي تزرع الرعب في نفسي « أيهذا.. كم أود أن تأتي على حصان أبيض تخلع عني أرديتي البيضاء هذه، وتغسلني لأبدو تمثالاً شمعياً كما تصفني ككل مرة ». لحظات تلك التي أقف فيها كالصخرة لا أجد سوى دمعي، وعينين زائغتين. مفصولة عن هذا العالم، أحتضن شجرة، أحتمي بها من الوجوه، من قسوتها، من عذابها، من بركان القلق المتفجر في السحنات الخشنة، في العيون النزقة.

(2)

وقفت تمسد شعرها، تربطه من أعلى الرأس كذيل حصان، في وجهها الدائري اشتعلت ابتسامة. نهداها النافران تحررا قليلاً من قبضات يديه النزقتين، جسدها وهج شفاف غسلته منذ قليل تحت قرميد أمطاره. يقف خلفها، بعض من وجهه يدخل إطار المرآة، التفّت يداه على جسدها، ووضع

رأسه فوق كتفها. في المرآة وجهان. بأصابعه تحسس الحلمتين في استكانتهما بعد لحظات من العاصفة، وادعتين، أتعبهما الرحيل في محيطات الشبق الجحيمي. تحسسهما بلطف بالغ، خاف أن يربك حركة الشرايين حول الحلمتين الورديتين، كعنقودين من العنب أسلما لونيهما للشمس تنعكس عليهما مرايا تتفجر حميماً. نثرت خصلات من شعرها على كتفه، أطلق سراح إحدى الحلمتين: «فرح، أحبك وردة، رغم نزيف الشوك في مسامات جلدي».. استدارت، تحتضنه، تعتصره في شغف مجنون، وحين شاهد مقلتيها رآهما في مطر من الدمع.

(3)

في مواقف للسيارات، تركته، يعبث بغيومه وليله، انسربتُ إلى دهاليز نفسي، وغادرت بي السيارة دون شعور بالزمن والمسافة، وحين دلفت إلى غرفتي، أوقفت بصري على كومة من الأوراق، ملونة كالحروف. أحبه. لكنه ليس لي، يغريني بفرحه وحزنه، يغزلني بكلماته غمامة جميلة. دخلت أمي، في ضوء عينيها إشعاع كثيب، ارتبكت، كأنها ترى على جبيني بقايا قبلاته، كأن جسدي يصدر التأوهات نفسها التي كانت منذ قليل، اقتربت مني، احتضنتني، خفت أن تجد أنفاسه اللاهبة في نبضي. بكت، احمرت عيناها. دون أن أعرف شاركتها البكاء، خجلي، أنزف. أدخلت مفاصلي في بعضها، ومسحت أمي دموعي، وانسحبت من الغرفة.

(4)

جلست على حافة السرير، ساهمة، وهو يجيل عينيه في فضاء الغرفة أمامه، تناول يدي، ضغطهما، قبلهما، تعلو أنفاسه أكثر، مثل الطرقات إلى

داخل قفصي الصدري.. عيناه غائمتان، وعيناي تمطران..

- ابتسمي، كي أعرف أن أتكلم.

- ....

- الجوكندا تهب ابتسامتها للجميع، إلا أنت، فابتسامتك «ماركة مسجلة» باسمي.

ليست لي قدرة على الحديث، وأنفاسه الحارقة تكاد تذيب وجهي، أحاول أن أقول لا، هذه المرة على الأقل، حتى أتمكن من صوتي، أخرج من سجن الصمت إلى ثرثرة البوح، أن أقول له... آه لا أستطيع. يداه سبقت لساني وها هو ذا يضع راحة يده على ظهري، كأن يده تخرج من الجانب الاخر لجسدي. أتمنى أن أقول لا، لكن سدود مقاومتي تتلاشى أمام سيوله. أضع رأسي على صدره، يحتويني بكل كيانه، تمتد أصابعه تخرج جسدي من العباءة، يزيل غطاء رأسي، ينهمر شعري قصيراً، يخرجه إلى فوضويته، يحتضنني قليلاً كي يتحطم السدّ الأخير، يبعدني عن الالتصاق به، أصابعه مرة أخرى في أزرار فستاني «رائع كروعتك»، يضع إبهامه على مساحة في صدري، تتفتح معها براكين الجسد تريد أن تحطم كل الميدان، كأنه يرسم لوحة، يختزل جسدي كله في دفقة عطر. لا أقاوم، هو فنان، لماذا لا أتركه يرسمني لوحة من شفق.

- أزهقت روحي.

- إذن دعيني أزهق هذا الشمع.

- لكن...

- هل الجسد أغلى من الروح.

انعزلتُ إلى الصمت مرة أخرى، حلقي يجف من أنفاسه، يرتعش جسدي

كله، يرقص معه في موسيقاه الصاخبة، يمطرني قبلات، يتوجني أميرة، يضع ريشته على حلمتيّ، يداعبهما بحنان العاشق، وصدري بوابة النصر لهذا الفارس. الشفاه تتحول إلى جمرات تلقي عواصفها في أفواه الجنون، شفتاه تمزقني، تحرقني، تجرفني نحو البعيد، تضع أسطورة آلهة الحب في السديم المنثال بين شفتيه وبيني. آه من أمطاره، هذه السيول تغرق أرضي، هذا الفارس يحملني إلى أقصى حدود الحلم...

... ... وحين أفيق، تنسل من أمامي نظرات كأنها الجحيم. عيون أبي، أمي، صديقاتي، والأحاديث التي تدين من يكون مثالياً في ظاهره، بينما العمق رجل يستوطنه.

(5)

أهذي، مع زحام الوجوه، أعود إلى الشجرة، أحتمي بها كعادتي، ثيابي البيضاء مهلهلة، صخب العالم في رئتي، تلكما اللتان أتعبهما دوار البحر «فرح، كم أحبك يا فرح».. صوته أو صداه، رائحته تأتي بها أوراق الأشجار في تصافقها، كأنه هناك على الجانب الآخر يغنّيني، يداعب أطيافي، يمزقني، يجمعني.. «فرح.. في القلب يافرح»، أجري في الاتجاهات الأربعة، أصطدم ببقايا الأشجار، أطارد الصدى، وأبحث عن الصوت الذي توّجني بأحلى الأحلام. أنا غيمتك، هبني رعدك، برقك كي تهطل أمطاري. جارتي في الغرفة تركض معي كأنها فقدت فارسها، تنازعني ثورتي، أيها الغائب، أدخلني في حضورك، قبلني، ازرعني جحيماً في فردوسك. ومازلت أطارد الصوت، ويزحف خلفي الصدى، يؤويني إلى مدينته. قال: «سأهبك مدينة أخرى»، وأهداني رواية «هذه تخوم مملكتي» ليحصد الكلمات التي تتيبس في

هجير الصحراء. خلفي، أمامي، غلالات بيضاء تلفّ المكان، وأخرى تلفني، تحصدني كزهرة برية، ثم أخرج من غيبوبة وعيي إلى غيبوبة أخرى، لم أعِها.

(6)

يدير المفتاح كأنه في صدري، على حافة السرير، بعيداً عنه، ينهي الحدّ الفاصل.. يلغي المسافة، كأن جسداً يحتله يحدثني عن دوامة تطحنه في اصطفاق رياحها، أبالغ في صمتي.. على وجهه كآبة..

- أخشى أن أنهزم، ألا أعرف حدود المتاهة، هذا الدهليز يقودنا نحو الحدود المستحيلة.

- ....

- مدن صمتك؛ لا تلقي أي ضوء في مفاوز القلب، الدهاليز مظلمة، وليست هناك في الأفق ثمة شمعة، والخفافيش تضرب بأجنحتها، كأن الروح تستبقنا نحو المتاهة الأعمق، وكأن الجسد لا يرتوي وسط هذه الوحشة.

- ....

- في إيماءة الروح نحو المدن الخربة، استغاثة، وفي الغابات المحروقة، يخرج عصفور النار يبني أعشاشه، كالجسد تماماً، حتى إذا غابت أدخنة الحرائق طار العصفور يبحث عن نار أخرى، عن مدينة مشتعلة، يسقط فيها أعشاشه.هل فطنت إلى الذبابة التي تحاصرها خيوط العنكبوت، تظل في تلك الخيوط الواهية تفتش عن خيط النجاة، لكن ذلك الكائن المتوحش في هيئته يطبق على الضحية، هي لن تقاوم، مكبلة بخيوط الشبكة، كالجسد تماماً.

- ....

مؤكد أن المتاهة بالغة الوحشة، العاطفة بركان ثائر، والجسد كذلك، لكن في أي نقطة سنلتقي، سوى بوابة الدهاليز، أعرف أن النور يؤذي مثل هذه المتاهات.. لكن، لعبة الوقت، المغامرة، الخروج من شاطىء البحر إلى مياهه، ملوحته، أسماك القرش، لعبة الموت أيضا.

بمساحات الصمت أتدثّر، لا أكاد أسمعه. في داخلي صراخ أقوى، أحتمي به، أهرب من فلسفته، أفتح الباب المغلق، وأدخل في العالم الذي أحسه يركض خلفي، هذه الأنثى التي....

(7)

وقت مضى، وقت بقي يترصد أنفاسي. أضيع في متاهاتي، صوته يلازمني، يفتح بواباتي لجحيم لا ينتهي، على السرير الأبيض تفاجئني كل هذه المساحات من البياض. أتناول كتاباً أحضره الطبيب، أطوف بنظري ساهمة، معلقة في الصوت الذي قيل لي عنه إنه وهم. يسألني الطبيب: «ماذا تريدين؟» أردت أن أجيب: «هذه المعاناة»، لكن كأن صوتاً مزق أذني: «فرح، كم أحبك يا فرح»، وكأن حلماً جميلاً عبر بيني وأرديتي البيضاء. بكيت.. ضحكت.. بكيت.. ضحكت، والصوت أسمعه يناديني «فرح».. «كم أحبك يا فرح».. نهضت من سريري، دفعت الطبيب بقوة من أمامي.. وجريت.. لكن؟!

طفل المساءات الباكية

في المساء تستلقي القرية على ضفاف الوادي، يتمدد البشر على رماله الساخنة بحثاً عن نسمة هواء. البعوض ينبعث شرراً من التمور المجففة على مساحات الوادي الممتدة حتى سفح الجبل. تفترش السكينة المنازل المتناثرة، والأجساد الرطبة تتوزع على الأسطح الطينية. يتقاسمون حكايات الأساطير النائمة في المخادع الهرمة، ويقتاتون من أشجار الليل، حوقلات وبسملات.

تململ خلف في فراشه المتهالك، الرطوبة التي تخنق المكان بصيف قائظ .نفض رأسه يطرد أنين بعوضة، أجال بصره في سقف العالم، النجوم تتلألأ بانتفاضة همجية في الليالي الموحشة والحالكة. انبعث إليه صوت أنين مخنوق يعبر المسافة عبر «فرخة الغرفة». الحصبة الملعونة التي أخذت أولاده السبعة تراود الطفل الثامن. بثقل العمر، أخذ خلف يعدو نازلاً درجات المنزل الطينية. صوت الأنين الشاحب يظهر بوضوح أكثر. فتح الباب الخشبي دالفاً إلى الغرفة المتوهجة، رائحة زنخة، ولهيب خانق يسيطر على المكان.. «كيف صحة الولد يا زوينة؟»، يأخذ بصره بعيداً عن الجسد المكتوم، يقترب من المهد يحمل اللفافة المتهالكة، يقربها من «الصريدان» المتوهج بجَمَره، يمسك بأصابع مرتجفة قطنات اقتربت من اللون الأسود، وضعها في فنجان يرزح بما تبقى من البول، عصر قطرات منها في عيني الطفل وفمه وأذنيه: «يا

زوينة، إن شاء الله خير. أمي قالت عليكم ببول ذكر لم يتم ختانه، وعليكم بالصريدان، هما سيغسلان الحصبة عن الولد».

انحدرت دمعة بللت اللحية البيضاء الكثيفة، امتزجت بالثياب الملتصقة ورطوبة الجسد الهرم. الحبيبات تغطي الجسد الرقيق على العظام البارزة، عينا الطفل تدوران ببياض، مميت، متورمتان، وصوت البكاء لايكاد يظهر من الحنجرة الصغيرة.. «يا زوينة، امني بالله. الصباح سنأخذه للمعلم، أظن أن الولد أصابته عين، أنت تعرفين الحسد في عيون الناس. يا زوينة، أولادنا الأوّلين... ... »، تتردد في الصدر الهرم الكلمات، يجاهد أن تخرج، ينفتح الجرح واسعاً، تنمو له شفرات حادة تمزق الأوردة والشرايين، تسقط المقاومة، يذهب الرجل في بكائية مخيفة، يخرج شيطان الحزن من قمقمه، يغطي فضاء الغرفة بدخان يلتقي مع وهج الصيف والجمر. يلقي بركان الأم حمماً من النحيب، تستيقظ القرية على صدى أسىّ جديد.

تعبر الهالات السوداء الطرقات المتربة، تحمل أنينها الفطري تسابق الليل في جنائزيته البغيضة. خطوات متباعدة تجتاز الحد الفاصل نحو البكائيات، تعبر الزمان والمكان، وأرصفة العمر البائس. تجتاز الليل، فيجتازها الدهر. الألحفة على الرؤوس تلتقي بسوادها مع الخطو المبهم في دجى الليل البهيم، تتدافع الأكتاف على ضلفتي الباب الأخير في غرفة خربة ببيت خَلَف، تتوحد الأصوات والصلوات، تزيل الغبار المتكلس في الرتابة، تتحلق في الغرفة الصغيرة الضاجّة برائحتها وعرق النسوة اللاتي أرغمن رغبة البكاء في صدورهن على الصمت رحمة بالروح الثكلى في صدر الأم. تقترب إحداهن من اللفافة تزيل ملابس الطفل الغارقة في صديد بثور الحصبة، تدهن

الجسد الهزيل بخليط من الثوم والعسل. أخرى تقترب بفحمة تدهن بها الوجه الشاحب كأنها ترعب الموت من الاقتراب. أنين خافت ينبعث من الجسد الصغير، يتدافع زبد أبيض في هذه المساحات الهائلة من السواد. ينتفض الطفل كعصفور ذبيح، يلبس جلده أردية قاتمة، يحرك يديه بضعف تداخله قوة النزع الأخير. تتراقص الظلال على جدران الغرفة، يسجى الطفل قريباً من الصريدان، والصوت الواهن يجاهد في الانفلات. تتكدس على اللفافة بطانيات البيت العتيقة، تجحظ العينان في محجريهما، تتفتق البثور على جانبي الفم فيمتزج الصديد ببقايا سواد فحمي. يختفي صوت الأنين في الكومة، يململ الصغير رأسه باختناق عجائبي بائس، كأن أنشوطة مشتقة تضغط على العنق الضعيف بحبل مأساوي بالغ المتانة، تتدافع الهالات سوداء منتحبة إلى خارج الغرفة، ينسحبن إلى المبرز الطويل، كامتداد السواد .

يخبو ضوء القنديل المعلق في وتد ارتدى سواد الدخان المنبعث من لهب الفتيلة، ينسحب الضوء أمام تيار العتمة ودفق الأسى، تعصر الشفاه أدعيتها المتشققة الكلمات، تمارس اللعبة طقسها الأخير.

في النزع الأخير من الليل تحوم الطيور السوداء على أسطح المنازل، تلقي شظاياها على الهالات الباكية.. على الجانب الآخر حمل الريش الأبيض الشفاف لفافة صغيرة وخفيفة، يتوجها الطهر الأزلي من بين روائح تنضح بالبؤس، تتفتح فضاءات السماء لطير أخضر يعبر الزمان والمكان والحياة والأسى.

الرؤية

.. « الشمس لم تطلع ».. في الطرقات تتدافع الأكتاف « الشمس لم تطلع ».. تتقاذف الألسنة العبارة بمزيج من المشاعر المتباينة، ينفجر السؤال: من جاء بهذا الخبر؟! يرد أحدهم: علي بن ساعد. تعلو بعض الوجوه ابتسامة معبأة بالقلق والخوف: « هذا مجنون »، يأتي رجع الصدى: « خذوا الحكمة من أفواه المجانين ».. يتأفف الرجل: « لكن.. الشمس لم تطلع ».. يجيبه آخر: « أصلاً هذا لو فيه عقل ما يخلي الثياب الجديدة على رأسه ويلبس دشداشة قديمة وسخة. لكن صح، وين الشمس؟!.. « يا رجال يمكن تأخرت ».. يتشاقى طفل: « يمكن ما حد صحّاها من النوم ».. يغضب رجل ملتح: « استغفر ربك قليل الأدب ».

قطعوا الطرقات والسكك الضيقة باتجاه التقاء الجبال على الطرف الغربي للقرية، على صخرة بنية قاتمة اقتعد علي بن ساعد باللفافة الكبيرة التي على رأسه، واضعاً البطانية التي هي لآخر ميت في القرية، علي بن ساعد الوارث الوحيد للفراش الأخير لأي إنسان يموت في القرية، وأيضاً لملابسه. بلحيته الكثة المغبرة رأى الجميع أن الدموع غزيرة، وأن علي بن ساعد لم يكن هو الذي يعرفه الرجال والنساء والصبيان، الرجل الجامد الذي يهمهم في أثناء مشيه بكلمات عن القيامة والحياة، وعن شركة الهند الشرقية.لا أحد يعرف حتى الآن من أين جاء بهذه الكلمات، مرة قال لهم الشيخ: إن علي بن ساعد

عالم. اعترت الدهشة الوجوه: «معقول؟!!»، قال لهم: إن علمه هو الذي جننه. اتسعت الأحداق أكثر، ولولا أن الشيخ قال هذا لكذبوه في الحال.

تحلقوا حول علي بن ساعد، عين عليه والأخرى تمتد إلى الجبل الغربي الذي تبدأ منه الشمس سفرها اليومي. تكاثرت الأعناق المحدقة في طرف السماء، والليل فاتح في سواده. تحولت العيون فجأة إلى شبح قادم من بعيد، زاده السواد سواداً، تبينت الجموع صوت خميس، استدارت الوجوه عنه بسخرية كأنها تنتظر شيئاً غير هذا الثرثار الذي يدعي المعرفة بكل شيء.

- هل أخبرتم الشيخ؟!

تفجر هذا السؤال بركاناً في رؤوس الجميع، مندهشين متعجبين أكثر من قضية احتجاب الشمس عن المجيء. انطلق أحدهم صوب البيت الكبير، يعدو كأنه يحمل بشارة النصر في معركة حاسمة، تدافعت الجموع زرافات ووحداناً، نساءً وأطفالاً. النساء رغم ثرثرتهن تجمعن في حلقة ليست ببعيدة يسترقن حديث الرجال كأنهن ينتظرن معجزة يقوم بها أولئك المشدودون بفحولة ثائرة. وصل إمام القرية، يكاد يتعثر في خطاه لضعف نظره، لوى رأسه شمالاً ويميناً: «هذه ولا شك القيامة»! سرت قشعريرة في كل الأجساد التي كادت أن تتساقط هلعاً، ارتفعت رويداً رويداً أصوات الاستغفار، وفي هزيع الرعب كأن أصوات بكاء بدأت تلفظها الصدور، بخفوت في البداية. اندفعت الرغبة أكثر فتعالت الأصوات. يجيل علي بن ساعد النظر فيهم واحداً واحداً، لم يلاحظ أحدهم أنه ابتسم، واتسعت ابتسامته، ثم ضحك بقوة، واستمر يضحك. حينها وقفت أصوات البكاء قليلاً، وكل ما في الوجوه يسأله السبب،

لعله يعرف سراً ما، «علمه جننه» وربما يدرك لماذا لم تطلع الشمس، أو ربما يكون السبب علمه. صرخ المطوع إمام القرية: «تذكروا ذنوبكم واستغفروا ربكم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم». اقترب أحدهم من المطوع..

- أريد أن أتصدق بمالي في سبيل الخير.

- لا ينفع هذا الآن.

اقترب آخر..

- أريد أن أرجع ما أخذته من أموال وأتوب عن الأيمان التي حلفتها.

- لا ينفع هذا الآن، فات الأوان،

اقتربوا ، سألوا المطوع أن، وأن، وأن......

اشتعلت القلوب بفيض نوراني، تفتحت أمامها طرق بيضاء، لكن المطوع أرجعها إلى بكائية طويلة كامتداد الذنوب والمعاصي.

اقترب شبحان من بعيد، وحين وصلا إلى الجمع تركوا مكانهم وتحلقوا حول الشيخ ناسين علي بن ساعد وصخرته. وقف الشيخ مبهوتاً، تدور عيناه في الفراغ الكبير الواسع، تحركت قدماه باتجاه علي بن ساعد وصخرته: «قلت لكم إن هذا الكفر الذي يقوله سيأتي لنا بالنقمة».. قال المطوع: «لا يفيد هذا الآن، استغفر ربك الآن»، رد الشيخ: «أستغفر الله العلي العظيم إذا كنت قد أذنبت».

ضحك علي بن ساعد بصوت قوي وقال: «حاش لله، أنت لم ترتكب ذنباً طوال حياتك». غضب الشيخ من لهجته الساخرة، ورفع عصاه، ارتفعت

العيون مع العصا مستغربة الموقف، مع ارتفاعها رأت في السماء ضوءاً باهتاً، ازداد وضوحاً، هدأت ثرثرة النساء، والأعناق معلقة، تخاف الرؤوس أن يفوتها شيء من اللحظة، مرت الساعات باردة كئيبة، والأعناق مشرئبة إلى الفضاء، تجمدت الأعضاء، وحين أرادوا أن يخفضوا من رؤوسهم ، صعب عليهم الأمر.

التهوا مرة أخرى بشهاب يلتمع في السماء، المطوع لا يرف له طرف يأمرهم بالاستغفار، يستغفرون، ويبكون بصوت يحبسونه في داخلهم، يتقاذف الأطفال بالأحجار، ينسحب علي بن ساعد يجر خطاه، بهدوء، بعمامته المكومة من آخر ثياب الميتين، بدشداشته المتسخة،و يدلف نحو القرية الخاوية على عروشها.

في صمته العجيب يحفر حدود الرؤية، متناسياً الشيخ الذي ما زال بصره معلقاً في الفضاء، والرجال الذين ينظرون إلى فوق ويبكون، والنساء اللاتي لفّهن المشهد الحزني. هذه القرية مثلما هي، الطرقات المخضبة بالتراب، والنخيل أشباح سوداء تغازل القمر، وتحلم بالشمس. علي بن ساعد ترك انتظار الشمس التي لم تطلع، ليدخل في دهليز الحكمة التي قرأها في الكتب الغيبية، يقرأ في أسفار الرؤية عن قرية يرفع رجالها أعناقهم للسماء، ويجبرون أطفالهم أن يفعلوا ذلك، وحين يدلف غريب إليهم يسخرون من رأسه الذي لا يرتفع إلى فوق؛ لأنه مجنون، مثل علي بن ساعد تماماً.

شفاه المقابر

أعلم جيداً أن الشمس ستأتي غداً، وأن النهار سيقلع من مرساته عائداً إلينا، وأعلم أيضاً أن جبال هذه القرية ستدثرنا موتاً، ومع رحلة الغائبين سنسارع إلى فتح أفواهنا كأنها الجحيم الأخير.

ماتت شعلة القنديل، وأغمضت أجفاني أحلم بدشداشة العيد أرتديها ذات نهار قادم، هذه الجدران الطينية تختنق برطوبة شتاء الأمطار الذي فاجأنا هذا العام. ومنذ الأسبوع الماضي مازلت أترقب طيف جدي ينبت مع الظلمة والرطوبة، قيل لي إن جدي مات بالروماتيزم الذي زرعه الشتاء في كل المفاصل، أيقنت أن روح جدي لاتزال تحوم حول أسطح البيوت المصابة أيضاً بالروماتيزم لكثرة ما سقط عليها من أمطار.

وإذا أغمضت عيني تذكرت جيداً صوت خطوة جدي، وهو قادم من المسجد، وحشرجة سعاله وطرقات عصاه على ظهر الأرض، أحسست بالخوف حين توهمت أن جدي سيدخل الغرفة المظلمة بعد قليل، أحسه يناديني......

- يا سالم.. إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً.

وأجيبه: عندما أكبر سأصلي، وسأكون من المؤمنين.. ينظر إلي بصوت تقطعه سعلاته المتكررة: الله يهديك.

في حارة متاهتي تلمع السماء بالبرق، وأندس داخل نفسي أتقي البرد الذي

أشعر به يخترق عظامي فيميتها الواحدة تلو الأخرى.. جلجلة الرعد تتواصل، وأرى في عيني أبي وهجاً لشيء لا يود الإفصاح عنه. يتكدس اخوتي في زاوية بعيدة عن باب الغرفة هرباً من البرد والماء المتسرب. أبي ينفخ بفمه: « الصريدان » فيتوهج الجمر، يزيد الوهج الغامض في عينيه. فضاء الغرفة تعلوه مسحة من الكآبة والثقل المتعفن، والسماء تصب أقدارها على الجدران البالية.

الرعب أسلمني لموت مؤقت ظننت معه أنني فارقت الحياة، وأن رجلاً في هيئة غريبة اقترب مني، وجه غريب لا أتبينه جيداً من خلال الحلم، لحية طويلة مرعبة كأمطار الشتاء.. سألني:

- أين جدك؟

- مات.

- ليس صحيحاً.

لم أتكلم.. عقدت الدهشة لساني، وأبصرته يشير بيده إلى ناحية ما، اقتادني - رغم الخوف - إلى حيث المقبرة تعج بساكنيها. الرعد يقصف الأجساد التي انطفأت فيها شعلة الحياة، النائمون ينتظرون يوم القيامة، الأرض مبلولة، والماء يتسرب إلى أجساد الموتى فيبللها، يزيدها مهابة تصل إلى قلوب الأحياء فاجعة. ألفيت نفسي وحيداً عند باب المقبرة، وقفت لا أعي ما حدث ويحدث، وجهي بلله المطر، وقلبي جلله الخوف، البرق، الرعد، دوامتي، والمقابر تصيح في هذا الواقف يحسب الخطوة بالريح، تنبع من رأسه براكين للعذاب.. صوت من بعيد يأتيني: سالم!

كأنه رجع الصدى، صوت جدي، أعرفه كنفسي، لا أنطق، لساني سمكة

متجمدة.. قلبي توقف عن حركته الكسلى. يعود الصوت ثانية: سالم..ألتفت في كل الاتجاهات.. أدور.. أضرب بيدي كل الفضاء، ألمسه بحثاً عن منفذ للمتاهة. شيء من بعيد يقطع المسافة بيني وبينه، الخوف والبرد يعصفان بجسدي، أغدو كالقشة في قلب الإعصار. جدي بعينيه الغائرتين، وسعاله، وهذه العصا، والخطوة البطيئة..

- سالم.. اقترب.

- ....

- هل تظن أنني مت؟!

- ....

- هل أنت متأكد أنك حيّ؟!

- ....

- الحياة خدعة كبرى.. كلكم تظنون الحياة!!

الكلام يعجزني، يقترب جدي، يضع يده على رأسي كما تعود أن يفعل وهو حي، لكنه حي الآن كما يدعي. أحس أنفاسه المتعبة، وأرى الوهج نفسه الذي رأيته في عيني أبي، ولا أفهم سره. يأخذني، ولا أصدق أنني ميت مثله، أو هو حي مثلي. وبين القبور كنت ألمح شبحاً ينسل كلما أضاء البرق أجداثها، كأن عظاماً تتوجع، كأن عقارب ضخمة تخرج من قبر لآخر. ورأيت حين رأيت قبوراً لم أشاهدها من قبل. لمع جدي في داخلي استفهاماً ما.. قال: كانت قبوراً صغيرة،. تضخمت.. في داخلها كائنات مفزعة.

وفي جانب من المقبرة فتحت بضعة قبور أفواهها بسبب الماء، حيّات ضخمة تتلوى بين الحين والآخر، والرعد يتواصل، والأنين ينبعث من القبور

المفتوحة.. قال جدي: الأنين دليل حياة. واستمر سائراً بين الأجداث كأنه يبحث عن شيء ما، وأمام خط مستقيم من القبور توقف، وقف على أحدها، فاجأه السعال، وكأن الميت سمعه، خرج من القبر كائن لم أعرفه للوهلة الأولى، حتى إذا أخذ البرق مساره في السماء إلينا، عرفت أنه أبي.. اعتدت الرعب. قال أبي: يا سالم، أين ذهبت بك الحياة؟.. انتظرناك.. قبرك الأخير فاتح ذراعيه يترقب، اخوتك أخذوا أمكنتهم، وناموا.

كأن زلزالاً فجرني إلى قطع صغيرة تناثرت مع كل قطرة مطر، تتسع عينا أبي وفيهما ذلك الوهج الغريب. كل ما أعرفه الليلة أن الخوف مات، صوتي علاه الصدأ، ولساني تراجع منسحباً داخل حلقي، أبي يواصل إلحاحه أن أذهب إلى قبري، وأن أغلقه جيداً دون المطر، ودون... ...

أدهش صمتي الواقفين أمامي، لم ينتظر أن أقول شيئاً، حملاني عنوة إلى الحفرة الرطبة، بينما السماء تلقي بثقلها دون هوادة. أردت الصراخ، أن يسمعني الموتى، أن أقول إنني حي، وإنني ... ...

بعد حين صرخت وتوالت الصرخات، كأنه ألف عام مرّ. فتحت عيني داخل غرفة مظلمة.. رطبة، في بيتنا القديم، والمطر لايزال.

بقي صراخي أياماً طويلة أعوض بها وقتاً تمنع علي صوتي فيه بالخروج.

قال والدي: سنحمله إلى « المعلم ».. وبين صحوي وغيابي حملني أحدهم في بطانية قديمة، ،لايتبعني إلا صوت أمي الباكي، وحين رآني "المعلم" قال كلاماً لا أفهمه.. في شبه غيبوبة سمعت كلامه لأبي، الصوت سمعته من قبل. بعد جهد فتحت عيني، هو نفسه الرجل الذي قادني إلى حيث يكون جدي.. أعطيت صوتي أقصى قدرته على الصراخ، حطمتني الجدران من حولي،

شعرت بيد أبي تتلقى وجهي عشرات المرات.. لم أشعر بالألم.. هو مات أيضاً. قال "المعلم": به عفريت لايخرج إلا بالضرب. في غيبوبتي كان هناك شيء يمزق جلدي، كأنني من بعيد أسمع أبي يبكي رافعاً رأسي، ورجلاً آخر يقول "لقد مات".

رجعت محمولاً إلى الغرفة القديمة، أمي تبكي، وأنا أشعر بدموعها تغسل عني الموت. ألبسوني دشداشة العيد البيضاء. وخرجت على الأعناق، نمت في قبري، القبر نفسه الذي رأيته في حلمي. وحين خرجت أبحث عن جدي، ألفيته غادر مكانه، فقط كان هناك سعاله وبقايا الوهج في عينين بللهما المطر.

مُـنَى..

مواسم الجفاف والمطر

تقاطعت الأيام في ناظري كسلى كأنها حلم خريفي يتبدد بقسوة خانقة، حين أطلت شمس يوليو كنا نقتسم الغيم في متاهات عقولنا، ونمسح آلاف القطرات تتندى من كل مسامات جلودنا الخشنة.

يصرخ داخلي صوت جريح تستقبله الأيام بوحشة السنوات التي مضت، بوحشة السنوات التي تأتي. وعندما يبحّ الصوت تتحشرج الكلمات بغصة المختنق، الغريق المنتظر للنقيضين.. الموت، أو الحياة. في لحظة يستوي الزمن قطعة واحدة، وجهها أمل وظهرها يأس. مساءات الصيف تأتي دون وجل، عارية الوجه تغسل صمتنا ببحار العرق. هذا الفرن الكبير يتسع مداه ليضمنا نحن ،الأشجار، والكائنات المتصلبة تبحث عن قطرة ماء.. أبحث في داخلي عن كلمة باتساع الكون ألقيها في أذن مُنَى، لكن مُنَى لا تسمعني، وأنا لم أتكلم.

كرت الأيام في مسبحة الدهر، وعشقي القديم يبحر بصمت الخائف، يغرق في صمت الساعات المتعاقبة، وصوت مُنَى لا يأتي، والستائر لا تتحدث إلا عن همهمات الريح، ورائحة الغبار المختنقة برطوبة يوليو وجفاف أيامه.

الماء لا يأتي، وأعناق الرجال في قريتي أصابها التعب والوهن كلما رأت سحابة تطير من الأفق إلى الأفق دون أن تلقي بالنزر اليسير. الطاعنون في السن يتحدثون عن السواقي التي تآكلت يبوسة منذ عشرات السنين، وعن السحب التي تطل على رؤوس الجبال طيوراً جميلة تدغدغ المشاعر بالفرحة لكنها لا تصل إلى القلوب فترويها. انكسرت الأواني الفخارية مع زحمة أسلاك الكهرباء، لكن السماء صافية، زرقاء صافية كاللون المنبعث من عيني حبيبتي، ممتدة كامتداد الشوق. والأرض عطشى، والسماء لا تهبها قطرة ماء.. السواقي تنام بهدوء حزين، كميت يرقد في تابوته.

منى تأتي كل مساء تحمل تعب الكون، وحين يغوص قرص الشمس في حضن الجبال المتوقدة كفرن كبير يغيب الطيف، تنام الأعين تحلم بابتسامة، بالسحابة التي تضحك في وجه الأرض حياة وأماني.

تنكس الأشجار رؤوسها، تنعى النفس الأخير في شرايينها المتيبسة، الأوراق تتلوى ألماً، عطشاً، تشرب اللون الأصفر، يستحيل الأصفر إلى حزن رمادي يتهاوى كل يوم، تغرورق الدمعة في عيني كَهْل، يحتضن حزن الأشجار، يغسل بدمعته بؤس النخيل التي تتلوى أعناقها، وهي الشامخة بكبرياء العاشق المنتصر.. ترتعش الشفاه بالدعاء والاستغفار، والجبين الذي شاخ رغم عنفوان الزمان يسجد في خشوع المتبتل. يا جدي الذي أفنيت عمرك محني الظهر تغرس الصلوات في عيني الزمان والمكان، لا بد للسواقي أن تفيض بالماء. يغيب طيف جدي من أهدابي، ويرحل نحو البعيد، وأنا ما أزال أرقب طيف مُنَى، أروي الجفاف الذي أحسه.. "ليس معي مال يابني، والنخيل ميتة، إذا جاء الخصب يكون لك ما تريد".. لكن الخصب تأخر

يا أبي، و مُنَى ستذهب بعيداً.. ويقول أبي "القدر".. أسأله عن هذا القدر، يجيبني «الذي يعرف متى يأتي المطر، الذي بيده أن تتزوج من تريد».

يزداد العطش، والآبار تتيبس مفاصلها. يغيض الماء في أغوار الأرض، تلاحقه الآلات الساحقة للأحجار، يزداد امعاناً في الهرب. كل يوم أمد قامتي نحو السماء أترقب، أتمنى ألا أرى الشمس. العرق ينز من مسامات جلدي، ويوليو العنيد كأنه يخاطبني ألا أنتظر سحابة صيف، لتكن أي سحابة، من أجل الماء الذي يعطينا الحياة، من أجل الأشجار التي تموت واقفة، من أجل... ...

تمضي مُنَى في لباسها الريفي جميلة كنخلة صغيرة طرحت ثمراً في سنواتها الأولى. مُنَى شجرة شهية ترفع قامتها للسحاب فترتوي منه.. "في عينيها ينام البحر" والبحر لاتنضب زرقته.. تمنيت أن أشبهها بواحة نخيل في موسم رائع، إلا أن النخيل مأساة تصيبنا بالدوار كلما نرى فيه غصناً يذوي.

مُنَى صوت ريفي ينطلق كأنه صدى حفيف الأشجار، ابتسامتها إطلالة حب في ليلة قمرية ترتعش أضواؤها على ثمار الأمبا، وحين تختال زهواً بجمالها في ردهات الحارة تلتفت عشرات الرقاب نحوها. كم أتمنى أن أكسر كل الرقاب التي تسرق النظرات من كائني الأسطوري.

غابت شمس يوليو، وغابت الشمس شهوراً أخرى، وذلك الكهل الذي رأيته يناجي بقايا نخيله قطع حديثه بعد أن استحالت إلى أغصان جفت الحياة في ينابيعها، ومازلت أبحث عن خطوات مُنَى، وعن الوعد الذي يأتي مع زمن الخصب، ورغم أن العيون اعتادت رؤية السحب والبرق والرعد.. إلا أن السماء لم تمطر.

في البيوت الأسمنتية التي نمت دون انتظام، هجعت النفوس. ذات ليلة من ليالي الشتاء المحملة بروائح الزكام والتهاب المفاصل، كانت ليلة ثقيلة، مع الخوف الذي يأوي إلى القلوب، الرياح في الخارج تعبث بكل شيء، وأذرع الأشجار تتساقط مثقلة بجفاف الشتاء. أحسست صوتاً حميمياً يدخل أذني بالبهجة، كأنه صوت مُنَى، أرهفت السمع لاقتناص فرصة من عمر الزمان.. مطر.. مطر.. تحشرجت الكلمة في حلقي.. مطر.. مطر.. أزحف إلى النافذة خوفاً من أن يكون وهمَ حالم. السماء تضيء جدران البيوت من أمامي. هواء بارد كالخدر اللذيذ غسل وجهي، أعاد إليه حياته ونضارته. يستيقظ كل مَنْ في المنزل، وحّدتنا الفرحة. صوت المطر أيقظ القرية من سبات شتوي ثقيل، الصوت الذي فيه وداعة الحياة، فيه العشق. سافرت إلى وجه حبيبتي، كأنها هناك تلتقط حبات المطر كاللآلىء تنشرها على جبينها، تغسل عينيها ليزداد الوهج، تغدوان أودية وشعاباً، تغدوان ضفافاً ليس لها نهاية. يا مُنَى، جاء المطر.. جاء الوعد.. الليل يتوارى يفتل الجفاف من صحارينا، يبعد وراء أنوار البرق التي توارت عنا سنوات طوالاً.

في الصباح يتداول الناس أحاديث الخصب والأودية.. جريت إلى منزل الكهل ألتمس في عينيه عمق الفرحة.. وجدته أكثر حزناً..

- المطر.. الأودية.

- ما مات انتهى.

- لكن الأودية جاءت جارفة.

- النخيل ماتت.

- ولكن الأفلاج عادت.

- نخيلي لن تعود إليها الحياة، وأنا كذلك.

عجبت من الفرحة التي ماتت داخله، كسر الكهل حائط الفرحة الذي انتصب عملاقاً في كل أنفاسي، وعندما تذكرت فرحتي بمنى هربت من رؤية العجوز، ألتمس الفرحة مع ساحرتي الجميلة.. أصرخ ملء أعماقي: مُنَى.. وتجاوبني القطرات الساقطة من سعف النخيل بقايا مطر..

وأصرخ مرة أخرى: مُنَى.. يتردد الصوت في سواقي الفلج المملوءة بماء بلون الطين.

غابت مُنَى عن ناظري.. في كل مكان، ومر الزمان، ولم تكتحل عيناي برؤية مُنَى، كانت طيفاً في زمن الجفاف. أقلق السر خافقي، ضاعت حلاوة الخصب من بين أنفاسي.. وبعد أن كنت أنتظر حلماً اسمه الخصب.. أصبح حلمي الجديد سراباً اسمه مُنَى.

خمس رسائل ووردة

الرسالة الأولى

ككل الصباحات الجميلة ترقبت عاشقة العالم أن تأتي، فمدينتي كسلى، وطرقاتها تزحف ببطء قبل وصول أشعة الشمس إلى خاصرتها، وعندما تستيقظ بعد غفوة الصباح تركض في كل الشوارع مئات القطع الحديدية وآلاف الأرجل.

في هذا الصباح ألقى العالم إلى نافذتي وردة حملها عصفور دوري من أقصى الشرق.. نامت.. واستدارت تحلم بيد حانية تغسل عن كاهلها رحيل الشتات. في أزرارها استيقظ نبض محروق الأنفاس، في لونها غفت الألوان السبعة. وردة.. لقب العمر، وصلوات العشق الآتي من أصداف اللآلىء.. أدارت الوردة رأسها إلى عيني، وابتسمت قوس قزح كان هناك يعبث في فرح بالغ بنداوة الأرجوان.

الرسالة الثانية

سكبت قطرات الندى شهداً، واستعارت السحاب ظلاً لتغفو الوردة هادئة مطمئنة لا يزعج سحرها ضجيج العالم، ولا ثرثرة الألسن. نمت الوردة في قلبي، ذابت في دمي، أعجبها لون الشرايين متوزعة في جسدي كخارطة مسحورة، أعجب دمي لون الوردة، ملمسه الحاني. استحال ملاكاً يزرع البهجة في كل مكان، نحلة تمتص رحيق الزهر يخرج من بين أعماقها شهداً.

شجرة رمان بآلاف الأغصان تحتضن المشرق والمغرب، صارت الوردة بوحاً.. قمراً.. سفراً.. شعراً.. صارت أجمل مملكة عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ،

الرسالة الثالثة

استدارت الشمس في كبد السماء.. أشعتها جلدت كل ما تحمله الكرة الأرضية بوابل من سهامها الحارقة.. ضحكت في وجه الشمس.. غازلت قرصها كعاشق أخير على وجه الأرض.. شعرت بطعم التحدي في استدارته.. ركزت بصري أكثر، وضحكت أكثر، تحولت الأشياء من حولي لوناً آخر.. أيتها الشمس.. قادمة أنت من بحر النسيان.. وردة تستيقظ معي كل صباح تمنحني القدرة على أن أحلم وأنا مفتوح العينين. أن أبدل الكون من حولي، أغير زواياه واتجاهاته.. أصنع من اللاشيء سفناً، ومن الأشرعة واحات نخيل.. أيتها الشمس.. وردة تغفو كل مساء قادم، تعطيني ملايين الشموع وأحرقها في وجه الليل يستحيل في حلكته كرة من نور تقتل كل السواد، نترك للعشاق لوناً رمادياً كي لا تخنقهم أسطورة الخطيئة، أنسيت أن العاشق يحتاج إلى بعض ظلام وقليل من أشعة القمر؟!

ألقت عيني بعض مائها، وأحسست بدوار.. العاشق يتلاشى من بؤبؤ محجري، العالم كتلة سوداء من حولي، قيل لي إني ذهبت في رحلة طويلة من الغيبوبة امتدت ألف عام.. زاد خوفي على الوردة أن تتحول إلى نبات متحجر يثير فضول علماء الآثار.. سافرت في صمتي وعشقي داخل الأساطير كطائر العنقاء.

الرسالة الرابعة

وأنا مغمض العينين، رأيت يداً تسبح في دمي، تلتقط عطراً منه، صنعت من العطر وردة أرجوانية عرفت أنها الوردة التي عشقت. جاءت يد أخرى، عبثت بالأوراق في أكمامها، ألقت بشرايين الوردة حرفاً حرفاً بهمجية عبثية، كل ورقة تحولت إلى دمعة، كل دمعة نبتت حبراً. جمعت كل ذلك وكتبت به بعض قصيدة، قبل رحيل الشمس إلى المجهول، جاء العصفور يطالبني بالوردة التي منحتني إياها هذا الصباح.. او ذاك الصباح الذي كان من ألف عام.. قرأ الجواب في شفتي.. أعطيته ما كتبت من كلمات.. بكى العصفور.. سالت دموعه براكين على الورقة.. ضاعت معالم الحروف.. أصبحت الورقة حروفاً وبقايا حبر.. شرب العصفور تلك البقايا وطار.

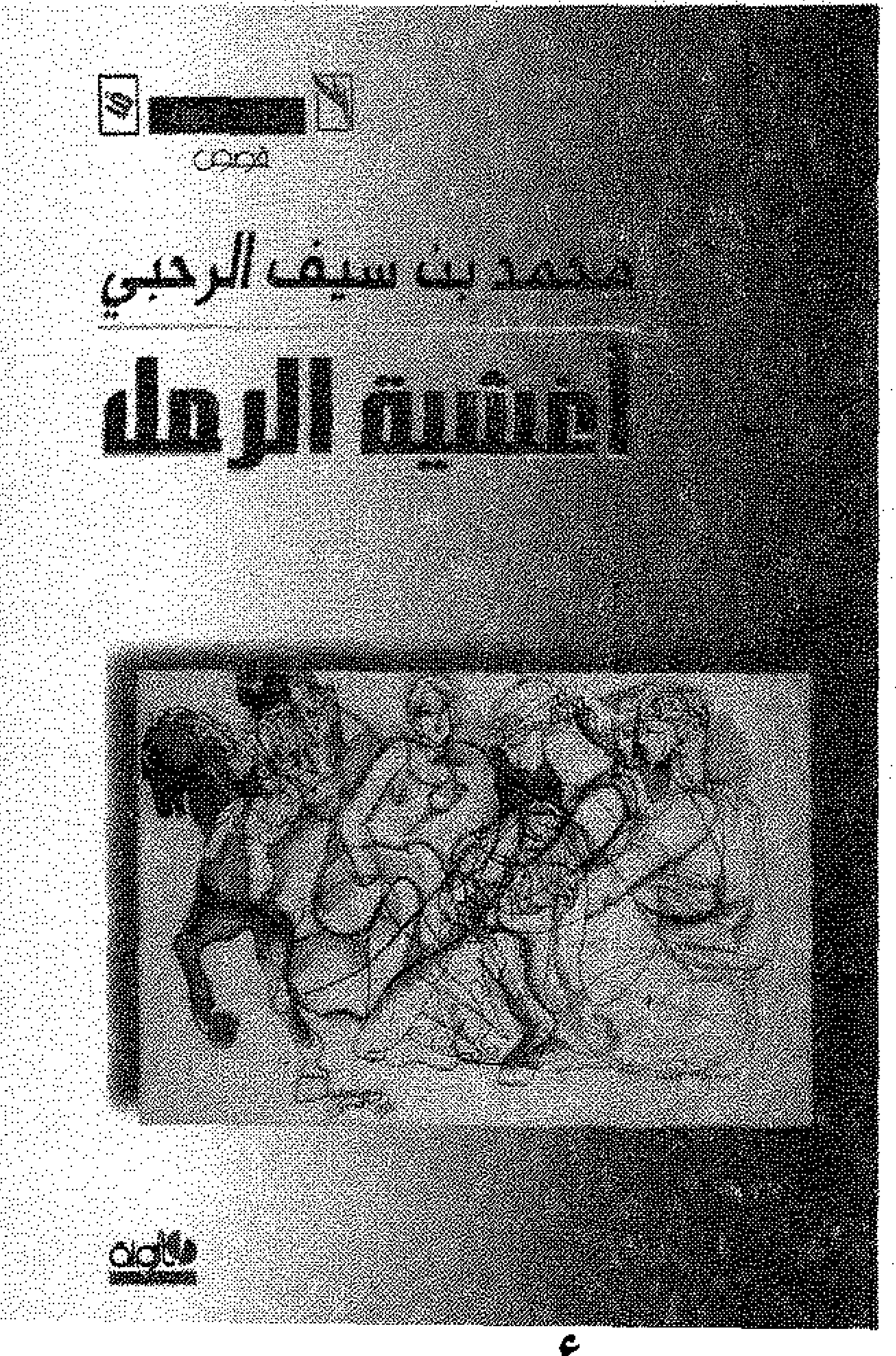
الرسالة الخامسة

حين نظرت إلى الشمس تختفي في رحلتها اليومية، أحسست أن طعم سخرية يخرج من حمرتها.. ذكرتني بدمي، بلون الوردة.

وحين أفاقني العالم من غيبوبتي.. كانت الشمس التي أراها في صحوي تقترب أيضاً من خط النهاية. تذكرت مرة أخرى دمي.. الوردة التي استحالت عشقاً داخلي.. أطلقت لساقي العنان إذ أبدأ في استيعاب أن الوردة لاتزال معي، والليل يتنازل عن زرع الخوف.

وردة تبدد حزن المساء..

وردة تختزن عشق الطفولة.



الطبعة الأولى - عمّان 2002

خطوتان للريح والبرد
(إغفاءة في سيح الكدس)

قمر الليلة اختنق وراء الجبال ، والمدى عابر سبيل .

اصطبغ كل شيء ، وتدفأ المكان بجسدين آويا الأرض قامتيهما والتحفا السماء كعادتهما.

وسط عناكب الليل وضعا ما فوق رأسيهما أسفله ورنيا إلى البعيد البعيد.

الجبل الأخضر يحرس المكان باللاشيء من كل شيء (نزوى) تشعل حطب الليل تتدفأ من شتاء قاس ، تقلب نظرها إلى الجبل القريب البعيد والى حارستها، قلعة الزمان والمكان، والى سوقها حيث يتجمع الفقراء والأثرياء والسحرة والمغيبون والباعة الجوالون يحملون السيوف والخناجر والشياه التي يأتي بها البدو، وما فاض عن حاجة أهلها.

في اللامكان ،عينان تدوران في الفضاء الفارغ إلا من جسدين وهوام الليل، العينان تجوسان في خطوط الظلمة تستودعان الحلكة أسرارهما، والحلكة شتاء مفرط في برده يسقط على الجسدين النحيلين اللذين أطلقا عنان التوحد للريح، يداريان هذه الريح بملاذ يرتفع قليلا عن انبساط الأرض من حولهما، الجبال تحيط المكان من زواياه الأربع.

حين وصل إلى (سيح الكدس) نما إليه أمر ما شغله إذ أعطاه خلفان بن صالح صرة القروش، التفت إلى رفيق سفره حمدان، وجده تشاغل في البحلقة

إلى الجبال التي تقترب من المكان بآنية الليل المحيط بهما، لم يستطع قول ما في ذهنه لحمدان، وحمدان ربيب الصخر ، ينظر إلى كتل الصخور ويضطجع على إحداها، هذه ليلتهم الأولى منذ الصباح الذي غادرا فيه بهلا ، كانت أقدامهما تتثاقل بحدس غريب تعززه ريبة أبدية في هذا السوق العتيق ، كأن أحدهما يلتفت إذ يلتفت ليتأكد من حضوره خارج هيبة النقصة الطينية ، يأتي خلفان بن صالح بحضوره الساحق وهو يعد القروش في يده ، قرش ، قرشين ، عشرة ، عشرين، كان يضغط عليهما يجبر عينيه على قراءة النقوش عن قرب ، إنها خدعة السحرة، يعطون أحجارا يوهمون البائع على أنها نقود ، اخرج القروش من صرته ، توهمها أنها ليست تلك التي رآها تحذفها يد خلفان بن صالح ، عقد أمره على أن يعرضها على سليمان بن حمد حينما يصل إلى بدبد ، سيجده حتما يغالب المحل يحول به بينه وبين نخلاته الجافة ، تذكر سليمان بن حمد وقصته في سوق (البانيان) في (مطرح) ، كأنه يرى شفاه جده تطلق الحكاية للمرة المائة :

وبعد أن اشترى عمكم سليمان بن حمد (السامان) من (البانيان) تذكر انه نسي قروشه في بيت خالكم سعيد في (الزبادية) ، وضع (البوك) تحت رأسه قبل أن ينام فوق العريش ، ووقع عمكم في الحرج ، (البانيان) ما يعرف ربه ، خرج عمكم قليلا من الدكان وجمع بضع أوراق وقرأ عليها ، وتحولت إلى روبيات ، وعاد إلى (البانيان)، لكن تعرفون عمكم ، إنسان متدين ، طلب من (البانيان) أن يعزل هذه الفلوس حتى يعود إليه ، وفي (الزبادية) عرف أن (البوك) لم يكن في مكانه تحت الوسادة لان حرمة خالكم رفعت الفراش وأدخلته تحت (العريش) عن الشمس، وعاد عمكم إلى (بدبد)، وعندما رجع إلى (مطرح) بعد اشهر ، اخرج (البانيان) النقود ليجدها أوراقا عادية، أعطاه

عمكم الفلوس الأصلية وتعجب (البانيان) من تقوى عمكم ويقال انه قال اشهد أن لا اله إلا الله لكنه رفض استقبال (الزطي) لختانه، ومن يومها عمكم سليمان بن حمد يشتري على راحته وبالصبر.

(سيح الكدس) ممتد حتى ضفاف الجبال الحارسة للمكان ، وسلاسل شموخ الصخر تصل الجبال بالعاتي الجبل الأخضر ، تذكر شيئا ما ، تحسس بندقيته وراقب ناقته الرابضة عن كثب مرتابا، حمدان يغط في نومه وإصبعه على زناد بندقيته، لا تجرؤ كائنات الليل الاقتراب من هذا النائم ، يصوب على أي شيء ويصيبه حتى وان تبين الصوت فقط، تبدو (بدبد) بعيدة ، والرحلة معتادة، من سوق (نزوى) اشترى صمعا جديدا و (زانه) من بائع متجول ،البدويات ماكرات، أغوته إحداهن بنظرة من إحدى اللؤلؤتين المطلتين من فتحتي البرقع ، كاد أن يقع لولا بقية محاذير ، عبرته عيناها اكثر من مرة في ليلته هذه، (سيح الكدس) موحش واجتيازه يستلزم جهدا خوفا من قناص ليل ، أحس بالجوع ، تناول الخبز المدهون بالسمن والعسل من كيسه الجلدي ، أكله على حذر خشية من هوام الليل تقترب منه في هذه الهاجعة، انه لا يخشى المنظور منها ، ما يخشاه أن تعطله إحداها في الطريق وتؤخر رحلتهما ، تحسس القروش للمرة الخمسين، « الخروج من بهلا غنيمة »، قالها في سره وهو يزدرد لقمة لاعقا وراءها ظهر يده من السمن المتسرب.

قفز حمدان من نومته مذعورا ، ويده في حالة توثب لإطلاق الرصاص ، مسح النوم عن عينيه ، وطلب من الشايب عزيز مغادرة المكان..

دون أي ملامح لرفض أو قبول أطلق الشايب عزيز ناقته من عقالها ، وجمع ما تناثر على الأرض من زاده وامتطى ناقته ، وحين استوى حمدان على ناقته

أيضا، تفجر نبع أسى على وجه حمدان رغم الليل الذي يخفي الأسى لكنه يبقي الأنين نايا حارقا:

يا عمي عزيز، (سيح الكدس) يخوّف ،حلمت أنني واقف قرب نقصة سوق بهلا، وأشار لي أحد الداخلين في المناداة أن أتبعه ، أخذني من يدي وأنا لا ادري لماذا، لم أر القلعة والناس والطرقات التي عبرناها والحارات التي تفصل السوق والجبال، ورأيتني أسير على أربع ومن رقبتي يتدلى حبل طرفه الآخر في يد الرجل الذي أشار اليّ أن أتبعه ، يا عمي عزيز لماذا لا تريدني أن أخاف وأبكي وأنا الذي شعرت بالذل والمهانة؟!، يا عمي عزيز آه لو تشعر بما شعرت به حينما عاد بي الرجل إلى السوق مرة أخرى والدلال يصيح علي والمشترون يتحسسون لحمي ويقولون: ثور مطعوم،حينها تمنيت أن أقول لا تصدقوا أعينكم، الأمر خدعة سمعت صوتي لا يفرق عن صوت بقية البهائم من حولي، أحسب أن دمعة سالت من عيني ، تمنيت أن يراها أحدهم ليتأكد أنني إنسان ولم أتذكر حينها أن البهائم يمكنها البكاء أيضا، وددت أن أمسح الدمعة، لكن الأمر قد حسمه المشتري الذي كان أحد الذين أعرفهم من القصابين الذين يعملون على ذبح الثيران كل يوم وبيعها بـ(المن)، يا عمي سلوم آه لو تدري كيف تصلبت أقدامي عاجزة عن المشي، للمرة الأولى أشعر وأنا الثور، اقصد أن الثور يمكن أن يعرف مصيره بعد قليل، أخرج القصاب سكينه وهو يقول: امسكوه، سأذبحه هنا، وهجم علي الباعة والمشترون، وإذ تجري السكين على عنقي نهضت لتراني كما رأيتني.

على ناقته ينصت الشايب عزيز لحديث رفيقه ، والناقتان تطويان الخطوات لعل (سيح الكدس) ينطوي تحت وقع خفاف ثمانية، هالات سوداء تسير غير

بعيد عنهما فيمعنان السير على غير اهتمام والقلبان ينقبضان من تلك الهالات التي قد تكون لساحر يرعى بهائمه من البشر في هذا الليل المدلهم ببرده المسفوح على البشر والصخر.

تجاوزت الذاكرتان المكان ، كل يسبح في البعيد ، في المغيبين الذين يمخرون عباب الليل بشعورهم المنكوثة وملابسهم الممزقة ، في مبارك الآيل الذي عاد بعد دفنه إلى أهله وسموه الآيل بسبب انه آل إليهم مرة أخرى ، عن الشايب علي الذي يهدد عائلته الكبيرة بالسحر إن لم يرضخوا إلى ما يحكم بقاء مملكته تحت إمرته، عن الحكايات التي تتناسل في ليل وادي سمائل.

كانت الريح تسكب برودتها بقسوة المكان ،لا قمر هذه الليلة، سماء مدججة بأنجمها ، وأرض منبتة لأحجارها، امتطى الشايب عزيز حنجرته وأطلق صوته يعبث في الريح، هذه التي كأن الجبل الأخضر يرميها إلى سفوحه بطشا بقاطني الأودية والمنخفضات الأقل منه قربا للسماء، كأنه النشيج توزع صوت الشايب عزيز في الأرض المنسحبة دون هداية تحت الظلمة ، تعثر الصوت بالأحجار وأشجار السمر وبقايا النباتات الجافة ، تذكر نساءه اللاتي ينهضن قبل الفجر (يزجرن)، يدفعن الثور لعل وعاء الجلد في طرف الحبال التي يجرها تخرج الماء من بطن الطوي الغائرة بباطنها، كادت النخيل أن تذهب قممها المتبقية ، ولا شيء في البيت إلا تمرات يأكلون ما يمكن أكله منها ويطحنون النوى يصنعون منه دقيقا ، تذكر أطفاله الثمانية الصامدين في وجه الجوع والموت، كل عام يموت أحد أولاده، والبقية يحملون في أعناقهم عشرات الوسوم والحروز، تعصف الريح الباردة بعينه فتبدو في ليل (سيح الكدس) دمعة ضنت بها العين لولا أن الأسى محرق اكثر من التصبر.

لعن في سره جارهم، هذا الساحر الذي قالوا له انه يأكل أولاده، كلما مات أحدهم هم بقتل الساحر، ويقول له إمام المسجد : اعقل يا مجنون، هذا قضاء ربك. يكتم حزنه، هذه النخيل تموت أيضا لكن السحرة لا يأكلون النخيل، في ليالي البكاء تخيل ابنه علياً يأكله السحرة، بكى وهو الذي يدرك أن البكاء للحريم فقط ، وماتت نوارة البيت سلمى ، ذهب إلى الشايب علي الساحر وقال له: أعطيك ما تريد ، دع سلمى ، اتركها وخذني مكانها، اقتلني مرة واحدة فقط، لا احتمل الموت كل عام.

كانت -حينها-عينا الساحر تجوسان المكان طلاسم لا تقرأ، وسلمى في كفنها الأبيض هزالا يختبئ مشدودا إلى الرحيل الأبدي ، تمنت القرية أن يرجع الساحر عن قراره بأخذها وتعود سلمى الطفلة التي تطلق ضحكتها تقاوم اليباس والقحط، كأنها الماء يسكب فرحه على الأرض، والأرض بحاجة إلى ألف سلمى بعد سلمى.

مضى الشايب عزيز يجتر سنواته الخمسين والناقة تجتاز أحجار (سيح الكدس)، على رفق مع مطية حمدان التي تشمخ بعنقها في وجه الريح الباردة.

حمدان يطلق وجعه في اتجاه الهبوب ، مستكينا لصوته، مسافران لا يلتفتان إلى بعضهما، في مزودة كل منهما سبحات لا متناهية من الشجن المر، في كيسيهما بعض نقود وقليل من التمر وألواح من (العوال) اشتروها من سوق (نزوى)، القليل لكبح شيطان الجوع ، على مهل يمضي الشايب عزيز إلى سنوات الشباب والشبع، حين ركب حماره مقسما جراب التمر إلى قسمين على جانبي (الثوج)، تمرة من يمينه وأخرى من يساره ، وقبل ان يصل إلى وجهته وجد الجانبين خاويين، ألقى التمر المتجمع في (غبابه) إلى حماره، أيتها الذكرى، تجود بتفاصيلها في ليل (سيح الكدس) المرهق، آه أيها المسافر من

قحط إلى قحط، من موت إلى موت، اترك لذاكرتك فرصة العبث في دهاليز الداخل المصمت كصمت الجبل الأخضر، هل ما زلت تذكر زوجتك الثانية زوينه، حملتها عروسا على ظهر حمارك من (سمائل) لتبلغ بيتك في (بدبد)، وأنت تجتاز الوادي شاطت رغبتك، أنزلتها وباركت دخلتك الصخور والجبال الحارسة ، أطعمتها التمر وبين مسافة وأخرى كنت تنزلها ومن ثم تعطيها التمر، كان شبابك، كان شبعك ، في (سيح الكدس) تهب الريح عكس اتجاهك ، وسلمى واخوتها جروحك المتوالدة، كل جرح ينفتح على جرح، زوجاتك الثلاث وأولادهن يقاومون اغتيال المعد الخاوية في انتظارك، الطوي لا تعطي إلا ما يمنع العطش، أخوه سافر إلى السعودية وأولاد عمه هجروا مزارعهم اليابسة إلى البحرين، الشايب عزيز مرتبط بما تبقى على أمل أن يأتي الغيث ذات حين.

سأل رفيقه حمدان : إذا كنت تعبان فالأحسن أن نرتاح.

قال حمدان : لا احب النوم في (سيح الكدس)، بعد قليل سيطلع الفجر، لو كانت (بدبد) خصبانة كنا استرحنا من كثرة السفر.

قاوم الشايب عزيز رغبته في فتح المواجع :ربك كريم ،الخير يجيء في لحظة، تتذكر (جائحة السبعين) ، كان قبلها محل شديد ، وأمر ربك يأتي في ساعة ، تعرف يا حمدان أن (بدبد) لم تبق فيها إلا نخلة واحدة ، هرب الناس إلى الجبال يعتصمون من الماء الذي يأتي من الاودية وقمم الجبال والسماء، آه لو تذكر يا حمدان كيف وقف الناس يكادون يبكون وهم يتجمعون حول النخلة الباقية يقيسون عليها أراضيهم، يقال إن (القرن) في نفعاء غطته المياه ، السحرة بقوا ، سبحان الله، مات الطيب وبقي الشرير، سمعت أن المغاييب كانوا يصرخون، مساكين، عقولهم ليست معهم، لم يعرفوا الطريق إلى الحياة

فماتوا غرقا، آه يا حمدان لو رأيت في تلك السنة السحرة وهم يطوفون البلاد يريدون تعويض ما فقدوه من مغاييب، الله يلعنهم، الله يلعنهم، يدفع الواحد منهم احب الناس إليه يعطيه ثمنا للسحرة كي يعلموه السحر، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل.

لم يدرك حمدان أن ما يسمعه في ليل (سيح الكدس) كان انتحابا مكتوما يضيق به صدر الشايب عزيز أم أن للريح انتحابها أيضا ؟

ازداد الليل برودة، والفجر امتنع عن الظهور ، والممتطيان ناقتيهما أرهقهما المكان وحشة وبردا، حاولا أن يتدفآ بالذاكرة، لكن الدفء جد بعيد لأن الأمس جد موحش، جاء صوت آخر لليل، مضى القليل ليأذن لرصاصات القناصة بالمرور من خصاص الظلمة ، تبدد الليل عن صباح رأى فيه عابرو النهار ثقوبا دامية تفجرت في جسدين أرهقهما ليل (سيح الكدس) وبرده..

سال خصب قان خضب الحصى الذي اعتاد هذه الروائح، إذ الليل قاتل ومقتول، وإذ الصبح يسفر عن مسافرين باغتهما ليل طويل. طويل.. طويل.

ما لم يعرفه الشايب عزيز ورفيقه حمدان:

جلس عابرو سبيل تحت حصاة الذهب في (بدبد) يتحدثون عن الشايب عزيز الذي وجدته زوجته يحاول أن يشرب من (الخرس) نصف الليل ، صرخت وأغمي عليها، ومضت أيام تحدث العابرون عن زوجها الذي غضب عليه الساحر علي لكثرة ما اتهمه بسحر أولاده.

قال العابرون ان الشايب عزيز لن يرجع إلا إذا مات الشايب علي، وقالوا ان الشايب علي مات عشرات المرات ودفن في عشرات القبور، وعندما يعودون في كل مرة يجدونه سبقهم إلى البيت.

إضاءات:

سيح الكدس : منطقة تحيط بها الجبال تقع بالقرب من مدينة نزوى.

السامان: الحاجيات والأشياء.

الزبادية: من حارات مدينة مطرح.

البوك : المحفظة.

العريش: بناء سعفي يستخدم مكانا للجلوس نهارا وللنوم ليلا.

زانه : عدة البنادق من رصاص وأحزمة.

المن : وحدة موازين محلية تعادل أربعة كيلوجرامات.

يزجرن: من آلة الزيجرة وهي وسيلة تقليدية لاستخراج الماء من الآبار.

الثوج : البردعة، أي ما يوضع على ظهر الحمار.

غبابه: ثني الدشداشة او الجلباب ليكون مثل الوعاء.

جائحة السبعين: فيضان وقع في عام 1370 للهجرة.

الخرس: آنية فخارية لحفظ الماء وتبريده.

حصاة الذهب : حصاة في بدبد يقال انها أطبقت على رجل انكشفت له عن كنز من الذهب فملأ (الثوج) بالذهب ومضى، في الطريق نسي أن يملأ آنية صغيرة عنده، عاد ووضع رأسه داخل تجويف الحصاة لكنها أطبقت على رأسه ويقال ان البياض المنسكب من تحت غطائها يدل على دمه.

المغيبون: الذين يعتقد أنهم عادوا إلى الحياة لأن الساحر أوهم الناس بموتهم.

أغشية الرمل

من شعر الليل الفاحم خرجت القبيلة، وقبل جباهها أول شعاع للشمس.

على السهول الممتدة من حافة الجبل المسكون بأساطيره العنقاء، إلى حافة الوادي حيث الأشجار تصطف حامية ومحمية، تفقد الحاكم بأمر الله جنده، ميمنتهم وميسرتهم، مقدمتهم ومؤخرتهم، الصبايا أطللن بعيون حالمة على فرسان قبيلتهن، بأفواههم الواسعة المنكشفة على أسنان بيضاء متوهجة وأنوف فطساء وعيون واسعة مرعبة، همست صبية لجارتها: «لماذا قبيلتنا محرومة من وسامة ذكورها؟. ردت: «لأن الجمال وصل إلينا وألقى رحاله». تهامست الصبايا كثيراً عن الفرسان الذين يعدون العدة للذود عن حمى القبيلة من غاز جديد، انها قبيلة مجاورة.

حين آوت الصبايا إلى خدورهن حلمت كل واحدة منهن انها وقعت سبية في أيدي فرسان القبيلة الغازية، فرسان تأملوا شفافية الجمال طويلا، عيونهم زرق أو خضر ووجناتهم حمر أو بيض وقاماتهم سبحان الخالق فيما أبدع، منت الصبايا أنفسهن بأسر جميل مع أولئك الفرسان، لكن رجال القبيلة أشداء، همجيون في الحرب كما في الحياة، ومتوحشون مع ملمس السيوف كما هم مع ملمس الأجساد، يحنون للدم يتفجر من أي شيء يتعاملون معه، والصبايا أقمار حالمة، تناجي الليل سحراً وترسم للصحراء لون الزنابق والياسمين.

حين أدركهن الصباح، التقى الغدير بالوجوه التي أتعبها الحلم، تقاسمن مراودات ليلة البارحة، قلن أشياء كثيرة ليس من بينهن حلم السبي، غسلن النوم عن العين الذابلة، ومسحن الخدود الطرية عن كسل المبيت تحت خيمة تتنفسها رياح الصحراء..

- يقولون ان لديهم خدوراً من الحرير ومنامات تنضح بالعبير.

- ويقولون أيضاً انهم يتكلمون بلغة العصافير الناعمة، كلاماً لذيذاً كأنه العسل المصفى.

تناسلت أفواه الصبايا عن وسامة الغزاة، وحين تعبن، حملن الماء على رؤوسهن، ومضين يحسبن الخطوات إلى مضارب القبيلة، وفي الوجوه بقايا من رؤى الليلة التي كانت.

هبت العاصفة أسرع من المتوقع، وعادت العيون وجلة تنبئ عن الغبار المتصاعد إلى عنان السماء، الفرسان على جيادهم شموخاً ومهابة، والشيخ يهز السيف في يده فتتفاعل الشمس مع لمعان حديده، يطلقون عليه لقب الحاكم بأمر الله لسطوته وحدته، خوفاً أو تزلفاً، خرج الفرسان يتلقون السيف بالسيف والنصال بالنصال، واحمرت عين الشمس من قسوة النزال.

وفي الظلام أقبل الفرسان إلى مضارب القبيلة، منتشين بخمر النصر، يحلمون بأفراح النسوة والصبايا اللائي اقتعدن الخيام منتظرات، حين دخل الفرسان مضارب القبيلة، لم يجدوا أحداً في انتظارهم، الزغاريد غابت عن سماء الساحات التي تتوسط الخيام، والأثواب الجميلة تخلت عن الأجساد البضة التي تزرع الجحيم في التواء أغصانها، وجلوا للوهلة الأولى، لكن صدى صوت خرج من خصاص الخيام، حين دخلوا الخباء، كانت النساء تبكين

حلم السبي، كان الشيخ يتفقد الخيام مرددا: «لا تبكين ما دام هؤلاء الأبطال أعمدة القبيلة ورجالها، لن نهزم».

في صباح تال، توالدت الخيام عن صبايا في لون العنب الذي أرهقته الشمس، والعيون محاجر كأنها لم تعرف النوم دهرا، خطوات متكسرة ووجوه منكسرة، تتابع الأقدام بنقش الحناء إلى الغدير، كل وجه ينظر إلى خطى الأقدام تحته، وما يخلفه على الرمل من رعشات الأجساد الثائرة والمضطربة، كان الحزن خفياً وعميقاً، يندس في قاع القلب بعيداً عن العيون المتلصصة، لم يقلن شيئاً كأن هناك اتفاقاً سرياً على الكتمان، فارس وآخر عبرهن دون التفاتة إلى القامات الممشوقة بأنوثتها الفائرة.

- فرسان حرب وليسوا فرسان حب.

تكلمت احداهن كأنها تستكشف المناطق السرية المحرمة داخل كل منهن، ردت العيون عليها بنظرات شبه متفقة، وشبه ساخرة.

في الليل عادت القبيلة إلى خدورها، الفتيان على حدود المضارب يحرسون بأعين شبه مفتوحة، يتنافسون أيهم أكثر شجاعة وارادة، النساء داخل الخيام، قلوب معلقة ببصيص حب أن تعود السيوف ولو للحظات إلى خدورها، أنفاس متعطشة للحب، لكسر الحاجز القاتل الذي تزرعه الصحراء الواسعة، قطرة للعطش في الحلق الذي غص بالرمل، لكن الجباه التي تشمخ في السماء لا تنزل عن كبريائها حتى لتقبيل امرأة، انها لعبة الارادة، تنافس وفروسية لا تهمد.

ذات يوم من أيام الصحراء، دخل الحاكم بأمر الله خيمته، شوهد الأطفال

والنسوة يخرجون، لكن ليس بينهم احدى زوجات الشيخ الأربع، تناقلت النساء والصبايا الخبر، وبقي الأطفال ينكثون في رمل الصحراء ويلعبون بالعصي لعبة السيف والمبارزة، خصاص كثيرة انفتحت في كل الخيام تتلصص النظر إلى خيمة الشيخ، من الخيام التي ليس لها خصاص تطل على الخيمة المعنية خرجن منتحلات أعذاراً كثيرة إلى خيام لها تلك الخصاص والخصائص، عيون مفتوحة على آخر أبعادها، وقلوب تهفو في تخيل مكبوت، بعضهن يدعي عدم الاهتمام وينصحن الأخريات بالابتعاد وعندما تتاح الفرصة يقلن بأن غيماً يأتي من بعيد لعله بشرى خير.

في تلك اللحظات المتعبة، تحلبت الصبايا وحركن شفاههن كأن قطعاً من السكر نمت على تلك الأراضي العطشى، حسدن من في الخيمة، والخيمة والأرض التي تبرك عليها الخيمة.

وحين كانت الشمس تقترب من غيابها اليومي خرج الشيخ من خيمته، وأمر أن يجتمع القوم، همست صبية في عمرها الوردي: «سيأمر الرجال بدخول خيامهم». ردّت فتاة أملح منها: «وما يفيدنا نحن، فرساننا لا يعرفون إلا السيف ولغة السيف، في كل المواقع وكل المواضع». ضحكت الأولى من اشاراتها، وجلسن أمام باب خيمة يستمعن لكلام الحاكم بأمر الله، صمت الشيخ طويلا، تنحنح، وقال: «لا بد من تأديب هؤلاء الذين يهاجموننا، أمليت وصيتي لزوجتي منذ ان رأيتموني ادخل، سنرحل في الصباح إلى تلك القبيلة التي اعتدت على قبيلتنا لنعلم أنصاف الرجال أصول الحرب».

مر زمن على ذاكرة الرمل الواجفة في لهيبها الحارق، الرجال لم يعودوا، والصبايا اشتقن إلى رؤية رجل على أقل تقدير، وبعد أيام عادت العيون

منكسرة وذليلة، الحرب في غير صالحهم، ابتسمت أفواه كثيرة في تلك الخيام، وكتمن الفرح الذي يهز القلوب الغضة في أنوثتها الثائرة، تكرر الحلم ليلة البارحة، والصبايا مصبحات على الغدير يتفقدن في مرآة مضببة رسم الكحل على العيون الكحيلة الأعمق من أبعاد الصحراء، سرحن جدائلهن بالعطر، وغسلن أجسادهن بماء الورد، وتلك الأجساد تمايست بأنوثة يستغاث منها، على جدول الماء، تحرر الشعر من اساره، والتمعت السيقان بتوهج ملغية الصحراء رملا، وأبقت عليها عاصفة، وداخل خيامهن - بعد عودتهن من الغدير - تأكدن من الكحل وصفاء الوجه، وسطوة الثوب على الجسد، نظرن في بعضهن ممسكات على سرية التبرير، عجائز نبتت بشبق ثائر داخل التواءات الثوب عليها، وأثداء غصت بما عليها تود أن تنفجر توحشاً ورغبة، حين دخل الغزاة مضارب القبيلة وجد الفرسان السبي جاهزا، دهشوا حين لمحوا الصبايا يتقاذفن بتلقائية على الجياد وبأيديهن صرة خفيفة لملابس وضروريات.

ركض الفرسان بالسبايا وابتسامات السبايا، وأحلام في ليال خصبة من الحب حين يلتقي الفرسان في شهوات مبيتة منذ قرون.

جاء عام، مر عام، الكحل لا يفارق العيون، والأثداء بصراخها، والأرداف بروعتها واستدارتها، قبلات محمومة كل مساء وأجساد تئن بشهيق تتناقله الصحراء، لكن أغنية الرمل تتسرب إلى أغنية داخلية نضجت، وخافت أن يفوت وقت حصادها.

الأقنعة

طرق المدينة تبدو للرائي خطوطا صغيرة، والأبنية الجميلة تتقاطر بهدوء على امتداد المنحدر الذي يفصل بين طبقتين، وعبر حقول الأسمنت والرخام ـ لأول مرة ـ يقترب بحدقتيه من هذا العالم المخملي، في قصوره وأناقته، حين دلف الفيلا منذ عشر دقائق، وبعد ان غادر المرسيدس الزرقاء، تجول بعينيه طويلا في موقف السيارات الذي يحتوي على عدد فاخر منها، احتضن الممر الرائع الذي يقسم ضفتين من الأزهار وأشياء أخرى اختفت في ليل المدينة الخافت الاضواء، من أعلى وقف يتأمل حديقة الفيلا، انحدارات متدرجة تكسوها أزهار اللوتس والنرجس وغيرها مما لا يعرفه، على الجوانب تتشكل الجهنميات في قوالب عديدة مميزة، على البعد، بجانب السور ارتفعت أشجار المانجو والكافور وبعض النخيلات التي أضاءت المصابيح الملونة ثمارها فأعطت بعدا شفافا ،في مساء طري، تقف الفيلا فوق تلة مرتفعة وسط الحديقة، الأنوار الخافتة الموجهة الى الفيلا تبرز الشرفات بألوان مدهشة، تتقاسم الألوان وتدرجات الظلال روعة المشهد الليلي في الانبلاج المدهش لتجليات الذات والاكتشاف، عبره سائق الشيخ يحمل أوراق سيده، رمق الفتى بنصف نظرة، اقترب الشيخ من الفتى الذي لم ينتبه الى وجوده، تأمل الشيخ للحظات هذا الفتى الوسيم.

- هل أدهشك المنظر؟

- كثيرا.

- سيكون لك بيت مثله، ربما اجمل.

-حلم اكثر بعدا من المستحيل.

- لو تعرف الطريق فقط.

- لا افهم.

تناول الشيخ يد الفتى، ومشيا عبر الممر الطويل المخترق ضفتين من الزهور، روائح الحديقة بدأت تنحسر أمام رائحة اللبان الذي أضاف أبعادا أسطورية إلى مساء مختلف، حين دلفا صالة الضيوف، انسحب الشيخ الى الداخل، الفتى مندهشا بأناقة المكان، قلب بصره في اللوحات الثمينة، الصالة واسعة ومزخرفة على امتداد التقاء الجدران بالسقف، في الوسط تنتصب نافورة تقذف الماء والألوان، وعلى الامتداد الدائري للصالة يستلقي السجاد الثمين بأناقة على الأرضية الرخامية المزخرفة، أطقم الجلوس تصطف بعناية حول النافورة، على زوايا الصالة تماثيل لحيوانات محنطة، أمامها طاولات زجاجية تقف عليها مزهريات أنيقة بألوان طيفية لباقات من الزهور والورود، يدخل الشيخ فجأة.

- هذا المجلس الأوروبي.

(إذن هناك مجلس آخر) أسرها الفتى في نفسه وهو يعطي يده راحتها للاستلقاء بين يدي الشيخ اللتين ضغطتا بقوة محسوبة.. وحانية، تفاعل النبض في قلب الفتى، خرجا من الصالة الى الصالة الأخرى، تشبه الأولى إلى حد كبير، يفرق بينهما تلك المساند المزينة بطواويس تفرش ألوانها على اتساع المكان.

- وهذا هو المجلس العربي.

- جميل.

- ليس اجمل منك، هناك مجلس آخر، لكنه خاص، الأفضل ان نذهب اليه، انت تعرف معزتك عندي، لا يجوز ان أعاملك مثل الآخرين.

في المجلس الخاص، دولاب خشبي برزت دقة الصنع فيه الى حد مدهش، مؤطر بحواف ذهبية، خلف الزجاج الشفاف للدولاب تصطف زجاجات متفاوتة الحجم ذات أعناق طويلة، أمام الدولاب منضدة طويلة، مستديرة ومرتفعة، تقف بقربها أربعة كراسي طويلة دون مساند، في الزاوية أريكة عليها مفرش جلدي تشبه في شكلها سريرا بسيطا.. قاده الشيخ الى النافذة الوحيدة في الصالة تطل من عل على الأبنية الأنيقة التي تفترش ارتفاعات المكان.

- انظر. ذلك بيت..............

- منزل ضخم.

-هذه الفيلا بناها منذ سنة تقريبا بثلاثة ملايين ريال.

- قيمة كل منازل قريتنا.

ضحك الشيخ بقوة...

- ظريف، ووسيم، كل الصفات التي أتمناها موجودة فيك، سنكون صديقين رائعين.

- شكرا.

- انظر إلى تلك الفيلا، إنها فيلا... الناس يقولوا عنه انه صاحب هواية، تماما مثلما يقولون عن فلان وفلان، هذا لا يهمهم، كما تعرف، كلام الناس،

هم أحرار.

- تقصد...

- نعم، وما أبرئ نفسي ان النفس أمارة بالسوء، تصدق، أول مرة شاهدتك فيها أعجبتني، شكلك حلو، لا تسيء الظن بي كثيرا، سنقضي معا أوقاتا حلوة، سنكون صديقين، سأعطيك ما تريد، فقط لا تقطع زياراتي.

- أتشرف.

- لا تقل هذه الكلمة، نحن صديقان، سأخبر مدير مكتبي ان تكون لك أولوية الدخول إلى مكتبي.

اقترب الشيخ من الفتى، وخلع ما على رأسه، ذعر قلب الفتى، كأن شيئا مريعا سقط داخله، عاد به الزمان نحو صحراء بعيدة، ذات يوم مشى الفتى وراء والده المبتهج بلقاء مشايخه الذين يتحدث عنهم كثيرا، وفي كل مكان وحول مائدة الغداء، التف الكبار حول الطعام، بينهم الفتى الذي أسعده ذلك الاهتمام من أولئك ،تبادل الكثير من النظرات مع بعضهم، كانوا يبتسمون، وهو أيضا يبادلهم الابتسام.. والاحترام، وحين التف الجمع مرة أخرى حول آنية الفواكه الضخمة تكلم أحدهم سائلا الأب.

- أين يدرس ولدك؟

- في العاصمة.

وهل يذهب يوميا؟

- لا.. أعطوه سكنا.

- انه ولدنا، ونتمنى ان يزورنا (اتجه نحو الفتى) أبوك صديق قديم، ولا تبخل بالزيارة.

فرح الفتى بهذا التواضع الجم وأحنى رأسه عدة مرات دلالة الموافقة.. اخذ أرقام هواتف البيت والمكتب والنقال والمزرعة وابتسم.

هب النسيم اللذيذ من النافذة التي ترسم المدينة الجميلة من اجمل زاوية، خصلات شعره الغض انحنت تقبل جبهته.

- شعرك جميل.. لماذا تعذبه بهذا الرباط، الأشياء الجميلة يجب ان لا تسجن.

انكمش الفتى الى داخل نفسه اكثر فأكثر، خائفا من شيء ما كأنه المجهول، لاحظ الشيخ خوفه، وجفوله.. لا تخف، لن أجبرك على شيء لا تحبه (اقترب منه اكثر) هذه بداية الطريق، بعد فترة سأعرفك على أصدقائي، لديهم أيضا، أظنك صرت تفهمني بدون ان اكمل.

احتضن الشيخ الفتى، قبّله طويلا، الفتى كأنه أسير صدمة ما زالت تسجنه.

- هل تشرب؟

- لا.

لماذا؟

- قناعات.

- لن تصل بك الى شيء.

- بدونها لا أريد ان اصل الى شيء، إضافة الى كونه حراماً.

- لماذا؟ ألأنه مسكر؟.. لو شربت قليلا فلن يكون كذلك.

- وأيضا مضر.

- كل شيء إذا تجاوز حده مضر، الماء مثلا.

- لا اصدق ان لديك هذه الأفكار وتؤم أولئك الناس.

- الحسنات يذهبن السيئات.

أحنى الفتى رأسه، الهواء خانق، القصر تضاءل إلى غرفة إعدام كئيبة. أنفاس الشيخ تقترب منه حارقة عفنه، الغيبوبة تشل حدود العالم من حوله.

في الجهة الأخرى من المكان، كانت المرايا المتواجهة تكرر صورة الواقف بينها لدرجة الدوار، مسح عينيه طويلا لعله يستعيد ثبات الصور في حدقتيه، النوافذ تختلط مع سحابات الألوان والأرضيات ، لكن الدمع في عين الفتى حجب عنه رؤية الأشياء الشفافة والجميلة.

بعد دقائق، كان الطريق يتلوى انحدارا، لم تكن في عيني الفتى نفس الصور التي أدهشته، ظلال المصابيح تتخفى على أشباح، والفلل جوامد كئيبة تدلع لسان الأفعى صوب البحر، تلك المساحة الراقدة على سواد ممتد، حين فتح باب السيارة لمغادرتها، امتدت إليه يد تدس في يده شيئاً ما.

- لا تنس، أريدك قريبا، نفس المكان، بعد صلاة العشاء، سأفرجك على مكان آخر، في كل مرة سنذهب الى مكان آخر، الاحتياط واجب.

البارع

حرك قدما باتجاه البحر، حرك أخرى باتجاه اليابسة، طفول تختبئ هناك بين أشجار النارجيل ترصد حركة أقدامك، أمسك خنجرك جيدا وسر مع خطوات رفيقك على البساط الممدود فالأرض مثقلة بخريفها .

استدر للوراء، خذ دورتك كاملة ،انتهى المشوار الأول ، انتهت المساحة المهيأة أمامك، ارفع قدمك وأستدر، تعلم أن تضع إضاءة المكان على حد خنجرك، طفول ربما ، هناك ، تراقبك ، تنسل من بين أحراج الموز خضراء مدهشة، يبتل خمارها برذاذ الخريف، كم مرة بحد خنجرك أخرجت الماء من بطن نارجيلة؟! حين شربت طفول ماء (المشلي) أردت أن تخرج لها البياض الطري، لكنها انسربت منك داخل أشجار الموز الكثيفة، أعجبتك اللعبة، دخلت معها، لم تكن كما أردت، حينها غضبت، وتحركت خنجرك في سيقان وأوراق الموز تمزق بشراهة الأجساد الطرية .

أزل الذكرى عن كهوفك الآن أيها البارع، فالموسيقى لا تزال تسكب عنفوان الصور على مخيلة الواقفين حواليك، والطبل (المرواس) يحمل حدة صوته، جلية، متتابعة، كأنه يموسق موج البحر، والطبل (المهجر)عميق كعذابك، تختال في أذنيك أصوات الناي، حزين هذا الناي كحزنك، شجي وعذب، كطفول، لكن طفول، نزق الأرض، وشموخ الجبل، لا تقبض الخنجر

لترقص .. واصل استداراتك فرفيقك يهز خنجره :

« حبل المحبة الهي رب لا تقطع

والشمل تجمع لمن له قلب هجاعي »

عين على الخنجر ،وعين على أطراف المكان ، وطفول ، دفقة خضبت جراحك حناء لا يزول.

أيها البارع خفف الذكرى حتى لا تثقلك: حتى لا تقع والخنجر في يدك ، طفول كانت رائحة الوقت والمسافات نحو البعيد، مضت كغزال بري صوب الجبل ، طفول لا تشرب موج البحر ، لا تسكن إلا ظل الصخر، غادرتك طفول منذ زمن، وما زلت تقبض على الزمن في حد خنجرك، خنجرك مرهف، عنيد، متوحش، جسور .. كخطى طفول، لكنك لست كخنجرك:

« لله محبي صغير السن يتواضع

يعطف ويرحم من اللي كبده لساعي »

ارجع خطوك مرة أخرى، الزمن ليس في صالحك، جرد ذاتك من ذاتك، ستكتشف أن الأرض انسحبت من تحتك ، أن البحر غادر مياهه، أن الدم لم يرض بشرايينه.. وحدك تختال مرحا بين الجموع وفي قلبك لهيب الموسيقى وإيقاع الطبل.

« اللي مجاري دموعه جرح المجمع

واللي فؤاده قطار دماعي »

ابتعد عن رفيقك كي لا تقعا معا فالبساط يمتد بامتداد خطوكما، ليس أبعد من ذلك، ارفع قدما، انزل قدما ، حرك قدما ، سكن قدما ..

ارفع ، انزل ، حرك ، سكن

احرق اليابسة من تحت أقدامك لعل المكان يخضر بسهوب خريفك، أشجار العمر تساقطت، ضاعت في صحراء الربع الخالي وخريفك ممتد إلى ما لا نهاية، ممتد لكنه لا يصل، فقط يحلم بطفول .

الوجوه تتكاثر من حولك، تتزاحم لرؤيتك، وأنت فاقد للرؤية، الضباب من حولك يلتئم على عينيك، لا رؤية إلا وجه طفول، يبعث الفضاء ضحكة طفول، تنشق الرؤيا أمام عينيك، تسرع في خطوك، تبتل قبضتك على الخنجر، طفول ترسل ضحكاتها في اتجاه البحر وأنت لا ترى إلا اليابسة، ولا صوت إلا الناي يتكسر دمعا، ومن حولك لا يرون دمك أيها البارع، كانت طفول ثورتك، لكن لست ثائرا ،غادرتك أيها البارع ، منذ زمن رحلت طفول إلى الجبل، تذرع أنفاس الوحوش وحدها، كغابة ضيعت أشجارها، طفول، هذه الثائرة في زمن اللاثورة لم تعد كما كانت، أنت المبلل بالضباب وموج البحر، تعود إليك الأصوات ثانية:

« حبل المحبة الهي رب لا تقطع
والشمل تجمع لمن له قلب هجاعي »

حرك قدما ، تقهقر إلى الوراء بظهرك ،وخذ دورتك كاملة، عد إلى الوراء الذي كنت فيه، ما زالت الرقصة مستمرة.

حرك قدما، شاطئ مرباط بعيد عنك، والسفن يعبث بها الموج في انتظار الإبحار، حرك قدما، استدر للوراء، ربما السفن تغادر مراسيها، لا تثق بالموج، فقط احفظ توازنك، يدك اليمنى تتمسك بالخنجر أكثر فأكثر، تصبح كأن اللحم جزء من مقبض النصل، ورفيقك معك، الموسيقى ثائرة والكون ضباب أبيض.. أبيض.. كالبياض الطري الذي جعل طفول تنسل إلى أحراش الموز،

لكن لا مكان أمامك تنسل إليه.

ارفع قدمك، بادل بينها والأخرى، لا تبطئ، أسرع فالنواخذة شدوا صواريهم، حرك قدما، لا تبطئ، فطفول لن تأتي، تذكر أيها العاشق أن البحر أسطورة المغامرين، الجبل ليس كما هو الجبل، أخرج الأسطورة من جيبك، تقول الأسطورة انه في رأس الحمراء تم العثور على 220 مدفنا لرجال متوفين في وضع القرفصاء وباتجاه البحر، أياديهم تمسك على الأصداف الفارغة، إلا واحد يمسك لؤلؤة في يده، تمنيت لو تكون أنت ،لكن طفول ،لؤلؤتك غابت، غامت سماؤها، أمطرت جبال سمحان والقمم المجاورة له .

حرك قدما، هذه الغزالة البرية لا تسمع نغمات برعتك، لا تلتف إلى حركات قدميك.. ربما.. ربما تفكر فقط في نصل خنجرك .

حرك البارع قدما في اتجاه البحر ..

الأخرى باتجاه اليابسة ..

تهاوى صوت الإيقاع ،وصوت الناي ..

كان البارع يقبض على مقبض الخنجر بيده اليمنى ، وعلى النصل بيده اليسرى، لم يكن المطر وحده يسقط على البساط ، كان هناك شلال أحمر من يدي البارع ، وحدقتيه.

اللّه.. وأمريكا

في زمن الردة..

سألني جدي هل صليت؟ قلت له: لماذا؟

سألني مرة أخرى: والحروف الهجائية؟! قلت له اعرفها عن ظهر قلب.. الف. قال جدي: كل العالم يعرف أنها تبدأ بحرف الالف، اكمل ما بعدها. قلت: الف، ميم، راء ياء، كاف، ألف. قال جدي: حرف الألف مرة أخرى، أسألك عن الحروف الهجائية وليس عن الحروف المتحدة. قلت له: وحياة أمريكا ،هذه الحروف الحقيقية. صفعني بقوة وقال: يا كافر، ربك الله وليس أمريكا، قلت له بوجه نصف مخلوع: يحدث هذا يا جدي، يحدث هذا كثيرا، كثيرا، اكثر مما تتصور.

****

ذات يوم من أيام جدي الكابية كحزنه الذي اعتاده، سألني جدي: من يملك هذا العالم؟ قلت: أمريكا صرخ في وجهي: هل هي المتحكمة؟ هل هي التي بيدها تعز من تشاء وتذل من تشاء؟ قلت له: تعودت ان أطأطىء رأسي إلى الأرض دائما ولذلك لا اسمع إلا صوتها. قال جدي وكأني اسمع نشيجا داخليا محتبسا في أعماقه يثور محاولا الخروج من رحمه: حسبي الله ونعم الوكيل، توكلت على الله.

في اليوم الأول.. رصدت أقمار التجسس قول جدي..

في اليوم الثاني.. رصدت عمامته..

في اليوم التالي.. شكوا في طول لحيته..

قال أبي: أمريكا تقول جدك ارهابي، امنعوا عنه الرغيف، واحبسوا عنه الدواء.

****

في كل تلفزيون رأيت صور جدي، في كل صحيفة، في كل مشنقة، توضأ جدي وقام يصلي، رفع يديه بالدعاء، قالت أمريكا ان جدي يتآمر عليها، متطرف، يقتل الأبرياء، أحكمت إجراءات الأمن في كل سفاراتها، خوفا ان يتحول دعاء جدي الى قنابل تنفجر.

- لماذا لا تسلم نفسك يا جدي؟

- سلمتها لله سبحانه وتعالى.

- لا.. اقصد سلمها لأمريكا.

- لا أخاف أمريكا، بل أخاف الله.

- لكننا نعتقدها...

- هذا يحدث للجبناء فقط.

****

.. إذا سعل كلينتون قالوا ان السبب جدي.

.. إذا تعثرت هيلاري قالوا انها دعوات جدي.

.. في البيانات السرية قالوا ان جدي سلط مونيكا على عشيقها.

قالوا في مجلس الأمن: شددوا الحصار عليه.

في اليوم الأول امتنعت زوجاته عنه.

في اليوم الثاني غاب طعامه.

في اليوم التالي: نفد دواؤه.

لكن جدي لا ينحني.

مثل هاته النخيلات التي تظلل جسده الواهن.

مثل هذه الدمعات التي تشق طريقها الى لحيته الجليلة.

حاولت مساعدته، لكنني خفت امريكا.

****

في اليوم الأول انطفأ النور في عينيه.

في اليوم الثاني جف الحزن على شفتيه.

في اليوم التالي..

في اليوم التالي، لم نجد من يصلي عليه.

بعد شهر قلت لأبي: يا أبي لا تقل توكلت على الله؟ لم يتكلم أبي وأحسست انه ـ أيضا ـ لم يسمع ولم ير.

المواطن « س »

أشباح وخيالات تفرض سطوتها على الغرفة الممتلئة بأجساد المرتدين ملابس بيضاء وخضراء، عيون الطبيب تتسع ممعنة النظر في الجسد المتهالك، والمتعب بالحشرجات التي تكاد تشق الصدر، يتبادل الواقفون النظرات والأدوات الجراحية، العيون التي تدور في مآقيها استدارات ينعكس بياضها على الجدران البيضاء، وسوادها على كل شيء في الغرفة ،يدخل ممرض يهمس في أذن الطبيب كلمات مبهمة ، فيضع الطبيب مقص الجراحة ويهمس في أذن مساعده، حين يغادر الطبيب الغرفة يهمس مساعده في أذن أخرى ويخرج ، بعد دقيقة واحدة لم يبق إلا الجسد المغلق على جراح شتى، وأحلام يخشى عليها من التكلس: أن يخرج من المستشفى يقبل طفلته بعد طول غياب، ويقول لأمه صباح الخير، ويقول لمديره حاضر يا سيدي ، ويصفق بيديه في الحفلات مبتهجا ، وفي الليالي الطويلة يمسح دمعه الذي يغسل القلب كل ظلام .

بعد ساعة عاد الطبيب ومعاونه إلى الغرفة التي غادراها ، كان الجسد يصلي في تابوته للمرة الأخيرة ، نظر الطبيب بأسى على اللحظات التي لم تنتظره، نظر في ساعته، قال :الصدف تلعب دورا ، لماذا لا نبدأ العملية إلا في الوقت الذي يعبث فيه ابن الشيخ حمد بلعبته ؟! كان صراخه مبكيا .

نظر إلى الجسد الراقد أمامه .. وصمت .

***

أمام باب غرفة العمليات، يقف اهل المريض بسحابات الحزن التي

تعكسها الوجوه، أقدام تحاول الثبات في وجه العاصفة .

يخرج احد الملثمين باللون الأخضر، يسأل أحد المنتظرين ..

- هل عليه قرض اسكاني ؟

- طبعا .

-اذن قد حط عنه .

- كيف ؟

- المهم ، هل عليه قرض تجاري ؟

- نعم ، بالتأكيد .

- أيضا قد حط عنه ، شركة التأمين ستدفع .

- لم نفهم .

- لكن تذكروا ، نعم تذكروا أن قسط السيارة سيظل .

***

وقف الطبيب وقائمة في يده، الممرضون يتجمعون بأكياس جاهزة وأصابع ملفوفة بالواقي الطبي ينتظرون التعليمات، قال الطبيب: لدي طلب عاجل، قلب سليم، هذا لا بأس به، اقطعوه. اقترب أحد الممرضين : اسمح لي يا دكتور، شقيق رئيس أخي في العمل مصاب في رئتيه ، اعتقد أن أخي سيرقى لو قدم هذه الخدمة ، قال الطبيب: لا بأس. كلمات من هذا وأخرى من ذاك ، المقاص تتلاقى في البطن الذي آوى كل هذه الخدمات دفعة واحدة، كيس بعد آخر، يقطعون ويخرجون ، بقي آخرهم يبحث عن عيني المريض ، عن لسانه، عن أذنه، وجد كل ذلك قد تيبس منذ سنوات طويلة، أيقن شيئا، فكر وخرج .

بعد ساعات، دخل الواقفون على الباب الذي كان موصدا دونهم، اقتربوا من السرير، نظروا إلى الكهف الذي يغلفه القفص الصدري، لم يجدوا داخله إلا المرارة .

حدث في جمهورية سرقستان

في مدينة الليل..

وفي صباحات باكرة خاصمتها أراجيح الضياء..

أحس البشر بالعاصفة التي تعتقل النمل والنحل والدبابير والعصافير في غليانها الدائري، تحسس الناس طبلات آذانهم، إذن لم تكن إشاعة.

مصلح الأحذية احدث ثقوبا في يده المرتعشة، لم يصدق أنها ليست اشاعة، والموظف البائس في محطات تعبئة البنزين ينظر بعين الى فتحة السيارة التي تستقبل السائل الملتهب وعينه الأخرى على عناوين الصحف التي أوردت صور المدعو الذي صار حديث الشارع، وحديث البنايات البيضاء الضخمة ،وربابنة الأحداث وضحاياها.

الإشاعة ليست إشاعة ،الألسن تعصر اسمه، رجل يعبر آخر بالقول (سمعت آخر خبر) يرد عليه (انه أول خبر) سرق الملايين، قال البعض انه استغل مشروعا قيمته مليون بينما كتب في الاتفاقية عشرة ملايين، صرخ رجل استند على لوح كرتوني على أحد الأرصفة: الله اكبر عليه، إذن سرق سبعة ملايين، صحح له صاحب القهوة الرقم وقال له تكون عشرة يا ذكي، انبرى صوت آخر، قال: الحكاية ليست كما يقولون، ولأنه مثقف بينهم، اعتدل واكمل: الرجل لم يدخل في أي صفقات باسم المشاريع، القضية تكمن في انه.......، قاطعه شخص آخر: بلا فلسفة يا أستاذ المهم انه سرق،

احمرت وجنتا الرجل المثقف وقال: لو كنتم رجالا ما كان أحد سرق.

صمت الجميع، ولم تسمع إلا غمغمات متطايرة، وكمد استعمر القلوب التي أحست أنها طعنت فوق جراحها، سائل لزج يلف المرارات التالفة، الوجع يتمرد كأنه يبدو خرج من الجسد ليكوي حتى الجلد، أحس الجميع ان الكل قد تمت سرقته، ان الأرض من تحتهم تناقصت، وان نجوم السماء نقص عددها، وان الأطيار نسيت ألفية البلابل ورددت ما قالته الغربان في بينها وشؤمها..

في الليل، نسي العاشقون حبيباتهم وضاجعوا سفر الحكاية الذي يتناسل غربانا وبوما تفتح احداقها عن رعب دائري مبهم، تقاطعت الأصوات للمرة الألف حول هذه الحكاية..

- مازالت إشاعة.

- كيف والصحف نشرت عن الموضوع؟.

- لتخفيف الكارثة فقط.

- لكن، كم مليون؟

- آخر الأخبار تقول مائة مليون.

- يحتاج الى عملاق لينقل له هذه الملايين.

- بجرة قلم ينقلها يا عبقري، آه لو لم يسرقها، تعتقد كم بيتا ستبني؟!.. كم مدرسة؟! كم وكم؟!..

- دعك من هذه التسطيحات ،ربما هي حكاية وراءها ما وراءها.

- لكن المحاكمة ستكون علنية.

- معقولة؟!

تنابت البشر من جحورهم صباحا، وذهبوا الى مقاصدهم، الأمهات نسين أن يرضعن أطفالهن، والأزواج لم يهتموا بليلتهم كما ينبغي، وبدلا من ان يقبلوا زوجاتهم سألوهن عن الحكاية، والعجائز نسين أطقم أسنانهن دون تنظيف لأنهن لا يستطعن التحدث بدونهن ان هن خلعنهن، وحين استيقظ الأولاد من نومهم وجدوا الإفطار أحاديث لا تنتهي عن الملايين وصاحب الملايين وخروج الملايين من بيت الطاعة.

على طاولات المكاتب شخص يقرأ الجريدة، والآخرون يستمعون، وتطول المناقشات، والمراجعون ينتظرون خلف الأبواب الموصدة، البعض يعلق بكلمات صارخة ويخاف البعض الآخر منه، فتدور العيون في محاجرها بارتباك وترقب، خبر صغير عن آخر فصول الحكاية، وتحقيق كبير هناك عن أسراب الجراد وسبل مقاومتها ودراسة ضخمة عن مأساة بوروندي، ومقال طويل عن عمل المرأة.

قالت امرأة لزوجها الذي تعب واشتاق الى الجسد المخملي، المحاكمة الاثنين القادم، نهض الى سماعة الهاتف وضرب مئات الأرقام وبعد كل ستة أرقام منها يقول ان المحاكمة الاثنين، يحلف اغلظ الإيمان أن المحاكمة الاثنين وانه سمع ذلك من مصدر موثوق به، وحين عاد الى الجسد المخملي وجده جثة هامدة تطير في أجنحة النوم فنام بجانبها يحلم بالاثنين.

في الصباح التالي قال شخص لمن هو جانبه، ان المحاكمة السبت، ورد عليه إنها الأحد وأكد مستمع إليهما أنها غير ذلك، ومر الموعد على أيام الأسبوع السبعة، لكن أحدهم صرخ: مستحيل، الجمعة، لا يمكن، المحكمة إجازة.

غضب من قال انها الجمعة: هذا حدث استثنائي.

يا مكابر، الجمعة يوم العزومات،لن تجد قاضيا مستعدا ان يتنازل عن عزومات يوم الجمعة، من يرى تلك الولائم لا يمكنه التنازل عنها.

تصاعد الجدل، وفي كل جانب مناصرون.

في يوم ما، لم تشهد مثله جمهورية سرقستان حتى في أعيادها الرسمية، خلت الأسواق من مرتاديها، والشوارع أقفرت الا من عابر سبيل لا يجد بدا من التواجد، القاعة ازدحمت بالكراسي الإضافية التي قيل أنها دفعت فيها مبالغ ضخمة، قبل الموعد بساعات بدأ الناس التوافد على القاعة وعيونها على المكان الذي قيل لهم ان السارق سيقف فيه، عيون مفتوحة على مداها تنتظر، آلاف أخرى وقفت على باب المحكمة، منهم من ارهف السمع على الباب، ومنهم من اقتعد الطرقات المؤدية الى المحكمة، كان هدير أصوات ولغطها يعطي المدينة أجواء استثنائية غير معتادة اقبل القضاة يملؤون مقاعدهم في الصف العلوي للقاعة، تفرسوا طويلا في سيل البشر الذين عيونهم على مكان آخر، تخيلوا طويلا شكل هذا المخلوق الذي خطف الأنظار والقلوب والملايين بشرا ونقودا، قال شخص ان المدعو تناقص وزنه كثيرا بعد الفضيحة، قال آخر في زاوية أخرى ان المدعو كان يصرخ انه مظلوم، تناثرت الهمسات، وكبرت حتى أصبحت نهرا يسير بإيقاع متصاعد، يزداد جريانه كلما طال امده، شعاب تروي غليانه الصارخ بالمزيد من التيارات المندفعة.

همهم الجالس وسط قضاة العدالة، صمت الحضور قليلا، بعد دقائق شهق الحضور على مرأى رجل يمشي ببطء مصطنع، شك الحضور انه الشخص المعني، قسمات وجهه باردة وعادية جدا، وقف كأن الأمر لا يعنيه، والقاعة من أمامه تخيلها فارغة من كل شيء، العيون تتناهشه ببريق محرق، أحس

الحضور بالصدمة لان غليلهم لم يحفز فارتد الى دواخلهم أنين مرعب، تمنوا ان يروه منكسرا ذليلا، ان يبكي، ان يصرخ من هول العذاب الذي ينتظره.

تفرس القضاة في المتهم وقتا غير قصير أحسه الحضور دهرا..

سأله أحد القضاة: هل صحيح ما نسب إليك؟ أجاب المتهم بهزة رأسه مؤكدا. سأله آخر: تسرق الملايين من قوت الناس؟! أجاب المتهم بنفس الحركة السابقة. رد قاض كان مسرورا بالحضور الكبير: إذن تعترف بالسرقة، صاح آخر: الحكم بعد المداولة.

كأن الحضور يدقون طبول الزار، وكأن المحكمة تتراقص بارتعاش مرعب، في أفواه الحضور تتخايل الألسنة تصطك الأسنان ترقبا، ينثر الحضور توقعات الأحكام ،يقول شيخ وقور ان المتهم ستقطع يده، ينظر إليه شاب نظرة ساخرة وقال لصاحبه: كان زمان، يثور صوت واضح من الواقفين عشر سنوات لا تكفيه، مليون سنة، (يا بلاش)، القاضي غاضب عليه جدا، صوت آخر، سيعدم، بالتأكيد، ملايين، لا اله إلا الله.

عاد القضاة يحملون دفاترهم العريضة.. بدأ كبيرهم في القراءة، القاعة تخلو من الأنفاس، لا صوت إلا ما تقوله الحنجرة الواثقة من نفسها على أعلى مكان في القاعة، في آخر المطاف قال القاضي: يطلق سراح المتهم.

شهقة عالية وصاخبة تطلقها الحناجر دفعة واحدة، زلزال حدث فجأة، اسقط الأفئدة من أمكنتها، ألف عام مرت في لحظة واحدة.

القاضي يأمر الجميع بالهدوء.. أكمل القاضي حكمه (وان سرق فقد سرق أخ له من قبل).

خريف الياسمين

- خائفة

احتوى يديها الناعمتين، وقلب بصره طويلا في أصابعها الصغيرة، ارتجفت حين أحست ان قبلة تسربت الى عظام يديها، رفعت شعرها المنحدر على جبينها وأطالت النظر في وجهه، في زوايا عينيها بقايا حزن بعيد، وارتجافة الأصابع تدخل في شفافية اللحظة..

- احبك كأني لم أحب شيئا آخر.
- مجنون، لكنك رائع.
- هل تتحول هذه اللحظات الى أوهام من الذكريات؟.
- لعلها الذكريات الأروع.
- لكنها تبقى ذكريات.

غرق في صمته، اقتربت منه اكثر، سكن بحزنه العينين الواسعتين اللتين تنظران إليه..

- هل تحبينني؟!
- أما زلت تسأل؟!!
- أريد ان اسمعها منك.

أحنت رأسها إلى الأرض كأنها تهرب الى شيء ما، تدس أسرار الكلمة في سماء كثيفة الغيوم، تغوص في قلقها من هذا التوهج الذي يكتبه القلب،

غاصت يده في شعرها تمسده ،أغمضت عينيها باستكانة العاشق، استسلمت لنسائم يديه تهب على شعرها الكستنائي الرائع، وصل رأسها الى صدره. تأوهت كأن العالم كله يحترق في لحظة حب..

أتمنى أن يقف الزمن عن هذا الحد.

- احبك اكثر من أي شيء آخر.. وأنت؟!

- كل هذا.. وتسأل!!

- افتحي عينيك لأرى الإجابة.

- دعني أغمضهما لأراك اكثر.

- أموت حبا فيك.

تسللت شفتاه الى فمها، كقطعتي سكر وضع شفتها السفلى بين شفتيه، فتحت عينيها تتأكد ان الواقع لحظة معاشة، عاشقها يرتوي من شهد شفتيها وهي كذلك تغسل العطش عن صحرائها الملتهبة شوقا الى حضن تتفيأ ظلاله، غاض السواد في عينيها فتحولتا الغيمة بيضاء، تأوهت اللحظة بجمر العشق ، ترك حديث الشفاه ليقول لها (احبك).. سحبته اكثر الى وجهها مستعذبة ريح الأنفاس الملتهبة، تطلق السحر في صمت المكان، ألقت بالأسئلة في متاهة بعيدة، وحده يقف الحب هنا يبارك خطو الغيمة بمطرها الدافق، رفع رأسه ونظر في عينيها طويلا، رأى انعكاس الأطياف في الاتساع الرائع لعينيها، وشفتيها قطعتان من الكرز طال وقت نضجهما.

شفتاك تزدادان حلاوة كلما شربت الشهد منهما.

ابتسمت، واحتضنته بقوة، أحس بتكور صدرها يود الخروج من فستانها الوردي لمعانقته، وضع يديه حول خاصرتها يتلمس الجسد البض في استدارته

العذبة، حرك يديه نحو مواطن الألم واللذة، شهقت كأن شمعة أحرقت بثورة لهبها المكان والزمان معا. ذابا مرة أخرى في عناق حميمي، ارتوت الأنفاس من الأنفاس، وتجاذبت الشفاه طويلا، وحين أتعبهما العناق وضعت رأسها على صدره..

- أريد ان أسألك.. لقد أنسيتني.

- لماذا الأسئلة؟!

- ضرورية رغم كل شيء.

- اعرف ماذا تسألين، لكنني لا أملك الإجابة.

- وماذا بعد؟

- لا اعرف، أتمنى أن أضعك في عيني أغمضهما عليك كي تظلي فيهما للابد.

- متأكدة انك تعني ذلك، لكن..

اعتدلت في جلستها، وتركزت الأعين في الوجهين المتقابلين، غرقت عيناها بالدمع، مسح بأصابعه ما استطاع عليه من دمع، لكن التيار أقوى.

- لا يجوز ان يبكي الورد.

- كيف أنسى هذا الذي بيننا؟!

- لماذا تنسين؟!

- لأنني لا أستطيع أن أتذكر.

- إذن تورطت في عاطفة..

- لا تكمل، أرجوك، لست نادمة على ذلك، كنت لي شيئا لا يوصف، كنت خائفة ان نصل الى هذه النقطة.

ضمها الى صدره بقوة، أحست أن صدره ينتفض، كان نشيجه يخترق الدفء الواصل بين الصدر والصدر، أحست باشتعال الدمع في البؤبؤين اللذين احتوياها.

حين أطلقها من حضنه، كانت عيناه محمرتين..

- ليس ذنبك.

- إنها.

- اعرف، لا تكمل، لا أستطيع أن اصف لك منتهى بؤسي حين أحس أن الإنسان الذي يهبني كل هذه العاطفة لا يكون لي، أعطيتني الحياة بكل ما فيها من ثقة ومشاعر لكنني..

وضع يده على فمها، تناولت عباءتها وحقيبة يدها وخرجت، تركت الباب دون أن تغلقه، وهو لا يزال في غربته يجمع ما تناثر من شذاها، بقايا دمعها في يديه، وصدرها المتكور الذي لا يزال يضغط على صدره، وعيناها اللتان مازالتا تسكنان عينيه، وعبق عطرها في أنفاسه، وطعم شفتيها في فمه.

في الخارج كانت الشمس تغادر سماء المدينة، تغوص في بحر المغيب، تسكب حمرتها، وتقرأ سفر الوداع ليس للمرة الأولى، وليس للمرة الأخيرة.

.. عيب !!

(1)

تمعّن الطفل كثيراً في وجوه الضيوف الذين تحلقوا على مائدة عامرة بأشهى الطعام، تسارعت الأكف إلى الأفواه تلقمها اللحم والأرز المطبوخ بالسمن البلدي والزعفران، تتقاسم العيون نظرات مذعورة، وواجفة من شيء ما، قلقها حاد الطبع وقاس في ملامحه، تناول صاحب البيت رأس الذبيحة يقدمه أمام رجل بدا انه الأكثر وجاهة، وضح ذلك من خنجره الثمينة والتي تبدو للرائي كأنها حزام يمنع وقوع الكرش المتدلية، الصغير يقيس بنظرات البراءة اليدين اللتين أمسكتا برأس الذبيحة كأنهما في لحظة ثأر لقصة قديمة وقعت في زمن باد، توقفت الأكف والنظرات تتبع الرأس الذي يتأرجح بسكينة مميتة، العملية صعبة، والرأس يأبى الرضوخ، صاحب البيت خجل من الموقف، احمر وجهه خجلاً من الشيخ، وغضب على طابخ اللحم الذي جعل الرأس لا ينكسر، قال الشيخ: ان الرأس يحتاج إلى سكين، أسرع القوم في إخراج النصال من الخناجر يقدمونها لليد التي ما زالت تمسك بقوة رأس الذبيحة، غمد الشيخ نصل الخنجر في فتحة العين وأخرج زفرة قوية، ولكن دون جدوى، الأكف متحرقة لنهل الأرز واللحم، والشيخ يعارك الرأس، ورجل آخر قوي البنية يود لو أتيحت له الفرصة أن يعالج بقبضة يديه هذا الرأس الصغير، تكلم صاحب البيت طالباً من الشيخ أن يكمل طعامه ويتفرغ

بعد حين للرأس.. ابتسم الطفل وقال: ان الرأس قوي. لم يشعر ان جملته اكتملت حين أحس بسخونة في وجهه اثر لطمة من والده، رأى الصغير شفاه والده ترتطمان ببعضهما البعض غضبا. قال الأب: قلت لك ألف مرة، عندما يتكلم الكبار، يسكت الصغار.. لا تفعل ذلك مرة أخرى.. عيب!

(2)

دخل الفتى الفصل الممتلئ، أشار المدرس بالجلوس للواقفين تحية، وكتب على السبورة التاريخ واسم المادة، أسهب المدرس في الشرح حول قانون الجاذبية، رفع الفتى إصبعه مستأذناً في الحديث.

- من اكتشف الجاذبية الأرضية؟.

- اسحق نيوتن.

- ولماذا هو بالذات؟

- لأنه شاهد التفاحة تسقط.

- كان لا بد لها أن تسقط!

- لأنه ذكي عرف أن هناك قانوناً يجعلها تسقط.

- هل كان من الممكن أن لا تسقط إلى الأسفل مثلا؟.

- أحسن لك أن تجلس وتكف عن هذه الأسئلة.

جلس الفتى، وبعد لحظات خطر له سؤال آخر، استأذن، وعلى مضض سمح له المدرس، سأل الفتى عن معنى هذه التفاحة التي أضلت آدم وأخرجته من الجنة وأرشدت نيوتن وهدته إلى قانون الجاذبية.

احمر وجه المدرس غضبا، وبدون أية مقدمات اقترب من الفتى وهو يصيح: يالك من طالب سيئ التربية، يا بني، أنا أستاذك، والذي تفعله عيب!

(3)

قلّب عينيه طويلاً في سديم الظلام المنثال أرقا في كل زاوية من الغرفة، قلبه متسارع بنبضات مدهشة، هي الأولى التي يحس بأن عينيها تمازج وادع، حلم بها طويلا، وحين فتح أوراقاً ملونة، بعثر الحبر الأسود طويلا يكتب الخرائط المؤسسة لدولة العشق يقف على عرشها أمير وتقف هي بجانبه أميرة ترتدي ورد التفاؤل الأبيض، وحين انحسر الليل عن صبح هادئ، انتظر طويلاً كي يتم المحاضر خطبته، وفي ردهات المكان اقترب العاشق من وردته يدس في يدها أحلام الربيع.

تتابع العمر أياماً من الانتظار، فالمعشوقة لا تهدي إشارات الوصول للبحّار، ودوران البحر متعب ومنهك، وذات صباح آخر بعد ليل طويل من السهد، سأل العاشق عن الحكاية التي نامت دون جواب.. دست ورقة في يده، طار فرحا، بعيداً عن العيون، بعيداً عن فضاء العشق، في الورقة كلمة واحدة.. «عيب!».

(4)

كبر الفتى، وذات يوم على مقاعد الوظيفة، تمعّن في صحف الصباح، قرأ العناوين أكثر من مرة.. الشركة تكرّم عدداً من الموظفين المتميزين. قال في نفسه: هذا لم يحدث. في صحيفة أخرى رأى صورة الكنـّاس الذي يعمل في الشركة واقفاً بابتسامة مع المدير العام، في خلفية الصورة سيارة، قرأ أن الكنـّاس فاز في السحب الكبير الذي نظمته الشركة، حمل ضميره ودخل على المدير العام..

- صباح الخير

-صباح الخير.. تفضل.

- لقد نشرت الصحف أخباراً كاذبة.

- وما دخلك أنت؟.

- أردت ان أفهم.

- عن المتميزين وصاحب الحظ السعيد!!

- نعم.

- هذا ليس من شغلك، لا تضيّع وقتي في حوار لا يؤدي إلى نتيجة.

- أريد ان أفهم.

- ليس ضروريا ان أفهمك، عليك أن تفهم فقط أنني أنا المسؤول هنا، وما تفعله عيب!

(5)

هاجمه الأرق طويلا، كان في المشهد بقايا من أجندة الأمس الفائت، في ورقة ارتمى رأس الذبيحة يتقلب في يد باحث عن طريقة لاخراج المخ، وسؤال يتأرجح دون اجابة من المدرس، وحبيبة من أزمنة التكلس والغياب، وكنّاس يقف أمام سيارة السحب الكبير.. تناول أوراقاً وكتب عليها كلمات وفواصل، في المساء التالي طرق باب مدير التحرير، تناول المدير الأوراق وقرأها بينما الوجه الآخر يسابق الثواني في قراءة تعبيرات الوجه المتنقل بين سطور الأوراق.

- قصة مؤثرة.

- الحمد لله.

- هل واقعية؟.

أحدهما يسأل والآخر يجيب. وحين دخل شخص آخر استأذن المجيب في الرحيل، وقبل ان يأخذ طريقه في الممر الطويل، سمع صوتاً خافضاً يأتي عبر الباب الموارب، شخص ما يقول لآخر: ماذا يريد هذا المخلوق؟ من الصعب نشر هذه القصة له، لأن نشرها - بصراحة - عيب!

(6)

استمرت الحوارات طويلة في قلبه، نبت الخوف في داخله نصالا محمية، تمادى في محاورة ذاته، فجأة تذكّر. كأن خنجراً ارتعدت فجأة في خاصرته، قال لنفسه: لا.. هذا عيب!

قطاة الزمن الغابر

(1)

أخرج من قمقمك، افرض هيلمانك، واترك أحجار «قطون«.. أيها البائس، تعبت نعالك من الترحال، في كل واد لها آثار سيارة عبرت، وأنت المتلون ككهوف الجبل، غادرك الزمن، لم تبق إلا وحدك، كلهم غادروا، كلهم افترشوا الغيم، وناموا في غرفهم المكيفة، لا تحرق نفسك بغبار الأمس الغابر، يا أيها المجنون الذي يرمي القرية بالشرر المتطاير من احتكاك أظافره في الالتماعات البنية للجبل، ماذا تنتظر؟! وقد غادرتك البشرية تجر أوحالها، تلقيه في سرية محبطة، إلا أنت يا فارس الجبل، ما زلت تترقب الصفارد والعقاعق على السفوح، بندقيتك على الكتف، لا تهتم، أولئك أصحاب الفيلات والمنازل الجميلة مرهقون بمدنيتهم، لن يتذكروا، البندقية التي جعلتك أسطورة مبهمة.

(2)

ذات صباح، الشياه على المرعى، والبندقية على الكتف، فارس الجبل، يحمل ثقل قلبه، دامياً وحزينا، كالظبي، من صخرة إلى أخرى، يستشرف المكان، وسرور تلويحة الصباح الأولى، وجبالها ترتاد الشعاع الأزلي.. الفارس يرقب من بعيد، تلك القطاة الضامرة، أمامها أكثر الشياه، وحواليها البعض

منها، نقطة ملتفة بالسواد تحيطها ألوان مبرقشة من البياض والسواد معا، تتراكض في السبحات الطويلة لزمن عتيد.

حين وضع فارس الجبل إصبعه على الزناد سبقته آهة الجحيم، «ايه يا ابنة العم، ليلة عرسك لن ترينها، يا ابنة العم، أنا البحّار الوحيد، وما بين أبناء العمومة رصاصة أو مصاهرة، كلها تتلون بالحمرة القانية من أثر الدم»، وحين وصلت الرصاصة إلى القطاة الجبلية، جفلت القطاة، وتهاوت بوداعة، رغم ان الصخور لم ترحم اليناعة في قطاة السنوات الأربع عشرة، ارتاعت الشياه، وتفرقت، وكان هناك، فقط هناك، قطاة تتدحرج من وسط الجبل إلى سفحه، والدم ينز في العروق الصغيرة، والقلب يدق للمرة الأخيرة، في زفرة الأنوثة التي حلم بها ابن العم لحظات طويلة، واغتالها ابن العم في لحظة.

(3)

يا أيها الفارس، اضرب الصخر بقوة، احفر في الأرض، كي تكون لك جنة من نخيل وأعناب، اطعن الأرض، وحدك، لا تهتم بالفضوليين الذين يتندرون بالمجنون الذي يحفر بئراً بنفسه، افرغ صبرك، الشمس لن تحرق الجلد الذي أواها سنينا طويلة، وحدك من الزمن الماضي، وحين يفت عضدك وتتعب تلك العضلات التي يزحف إليها وهن الشيخوخة اربطها بقلادة من سعف النخيل أو من الجلد كي لا تحس بالألم.. يا فارس الجبل، أولئك الناس ذاكرتهم ضعيفة، يلبسون ذاكرة الرمل، وأنت ذاكرة الجبل والصخر، هذا الصخر الذي يتفتت تحت ضربات معولك، لا تترك لهم فرصة التذكر، ابنة العم ماتت، وعريسها مات، وعمك مات، وأنت ما زلت المزروع في عنفوان

المكان، لكنك، يا فارس الجبل بدون قطاة، عشت بدون قطاة، لا قطاة الا ابنة العم، كادت أن تذهب ابنة العم إلى الغريب، وأنت الذي أسكنتها صدرك، يا ويحه ذلك القلب الذي يعشق حتى الفناء.

(4)

وحين رموك في (كوت الجلالي) لم تفارق ألسنة الناس في قريتك والقرى المحيطة، انتهى العزاء، ولملم عمك حزنه ومضى، وهلكت امرأة عمك على وحيدتها الباقية من أزمنة القحط والخراب.. وبقيت يا عاشق الصخر، حجراً كبيراً في ممرات الأودية والشعاب، تشمخ في عرس الماء، تنقل للريح حكايات الرمل، والريح حافظة لأسرار الرمل.. أسرارك.

(5)

في ممرات الحياة يتقاسمون حكاياتك، المجنون، هرب من (كوت الجلالي)..يتساءلون: من يمكنه فعل المستحيل ويهرب من (كوت الجلالي)؟! انه السجن الذي يقيد الموت في أقبيته المبتلة، لكنك رجل المستحيل، قلت لسجانيك: أريد ان اصنع ما يفيد، أعطوني سعف النخيل أقلده بأناملي زركشات طويلة من الخوص، وحين استوى امتداداً طويلا، علّقته في كوّة السجن، بعد أعوام ما زال خبر فرارك من السجن يحيّر ويدهش، قال من قال ان ذلك صعب. وقال آخر: انك رجل المستحيل.

(6)

إيه يا أسطورة الجبل، عدت، ولكن القطاة لم تعد، (كوت الجلالي) نسي ذاكرته، وأنت القوي، اعبر الطرقات بخطواتك الواسعة كركضة ظبي جافل،

من يراك يعرفك، هو أنت الذي أقدامه لا تكاد تلامس الأرض حين يمشي، وأنت الذي ترتدي دشداشة تهبط من الركبة قليلا بينما تبرز عند البطن بصورة واضحة، سكينك مكانها، كأنها شيء من جسدك، انطلق، واحفر القرية بأظافرك، من يتذكر؟ ماضيك الذي غرسته رماحاً في خشوع الليل على جبال سرور، من يتذكر اثنتي عشرة سنة نمت فيها وحيداً على الأرضية الرطبة لـ(كوت الجلالي)، وضربات الجلادين.. «اعترف».. ولكن أقوى.. «اعترف».. والسوط يتبع السوط، والرطوبة تنخر في الجسد الهزيل، لكنك يا فارس الجبل، تنكر انك سفحت دم القطاة، حبيبة القلب، والشهود، رأوا جسداً ضئيلاً يرقد وراء صخرة يقفل عينا واحدة، والأخرى تنظر بامتداد ماسورة البندقية، وحين ضغط الإصبع على الزناد كان القلب يرجف بالحرية، وها هم الآن يصادرون حريتك.. لا تعترف، من أجل حريتك، حرية الجبل الممهورة بالصخر، وانشقاق الماء.

(7)

«أيها السائر لا طريق، تتحدد الطريق بمقدار ما تمشي» والسنوات تسبق جرحك، والريح تهب كتلاوين المساء، في المدى المترامي، تنبت آثار خطوات خفيفة لأقدام سائر لا يكاد يلامس الأرض، تأتي رياح الصحراء تسكب أغانيها على الخطوات، والفارس ممعن في السير، كظبي شريد، يبحث عن ليل يخبئه في أردية الجبل، والجبل باق، وأنت باق.. لكنك تائه ووحيد، لا يد تلوح لك بالوداع.. ولا قطاة.

ليلة خلف الأخيرة

قابع في سديمية الموت، يطلق أنفاسه الوحيدة في محيط المكان، موحشة وخانقة هذه البقعة ،تطلق عفاريت الخوف من قمقمها المجنون والوحشي، يطوف أرجاء الغرف، متحفزا لخطر ما، صمت قاس ومريب ،والساعات تتحول إلى قلادات افعوانية تحيط معصمه الذي تكاد شرايينه أن تنفجر .

جلس على الكرسي الوحيد ،يحلم أن يتكلم ،أن يسمع صوتا ، صرخ في أعماقه بذهول: « ماذا ،ماذا لو تكلم أحد هؤلاء »، عشرون جثة بالعدد، كل يوم يمر عليه رئيسه في العمل يتأكد من عددها ،عشرون جسدا ترقد بلا حراك حوله تنتظر شحنها إلى منفاها الأخير ،أحس بسخرية مريرة مما يعيشه من تناقض، وحيدا وحوله كل هؤلاء، سكت عن حلمه بأن يتكلم أحدهم، فتح فمه بموال حزين، سكت فجأة، تخيل أن دمعات يسكبها أحد هؤلاء شجنا أو حزنا .

مر أسبوع كامل منذ أن استلم وظيفته الجديدة في هذه المشرحة المنسية، ومنذ أن تخرج من قسم الآثار بالجامعة ،كان يحلم بالكرسي الدائري ، وبالسكرتيرة التي تبتسم كل صباح ، ويغازلها بطرف خفي في المرحلة الأولى، يكلمها عن امرأته التي تزوجها عندما كان طالبا في المدرسة ،وحتى حينه لم يشعر انه ارتبط بامرأة كتلك التي يسمع عنها في كتب الشعر والروايات ، يكلمها عن سيارته الجديدة التي اشتراها بعدة آلاف وعن البيت الكبير الذي

يبنيه في شاطئ القرم ، طوى أحلامه في طرف خفي من رأسه .

يخرج إلى بيته كل صباح ، ينظر في الأجساد التي تمر أمامه ، يتخيل اليوم الذي تنام فيه بصمتها الأبدي ،ويقف هو حارسا على الأموات خوفا من أن تهرب منها أجزاؤها ،يقبل أطفاله ببرود ،وتسأله زوجته إن كان احضر حاجيات البيت قبل أن ينام إلى الظهر ،في الحلم يرصد صور موتاه ، يعاتبونه على تركه لهم ،وحيدين في مشرحة المستشفى ، لأول مرة يرى وجوههم في الحلم .

في المساء ، وحينما حانت ساعة مناوبته أصر على رؤية وجوه هؤلاء الذين يحرسهم ،و الذين يشتاقون إليه بعتاب حارق .

اغلق الباب جيدا ، وقف أمام الجسد الملفوف في غطائه الأبيض ، وجه مكدود كأنه الباقي من زمن الانقراض الكامل ، عيون منطفئة على حلمها البعيد ،حمل الجثة ، وضعها على الكرسي برفق ،جلس قبالتها :

أيها الرجل الذي كان، اقف أمامك أنا المواطن خلف، أحرسك من الأحياء، لا ادري لماذا ؟ اقبض آخر الشهر راتبين لأنني افعل ذلك، بعد كل ليلة خوف اقضيها بينكم أيها الأموات أعود إلى الأحياء اكثر رعبا، يرعبني المسؤول كي لا يستغني عن خدماتي، وترعبني زوجتي حين تطلب ملابس للأولاد ، ويرعبني رجل الفواتير الذي يطرق بابي عدة مرات في الشهر، وأفكر في قسط بنك الإسكان، وأفكر في فوائد سلفتي التي لا آخر لها، أيها الرجل: محظوظ انك خرجت من الزمان، تتفيأ الآن فلسفتك العظيمة، العزلة الأبدية ،هل تشعر بالبرد؟ هل تفكر في أرملتك؟ هل تتذكر انك خرجت مديونا أم انك خلفت مديونين تمنوا موتك؟ أيها الرجل: صدقني أنني أول مرة أتكلم بدون خوف من أن يعلق الآخرون على سقطات لساني، ويترصدني الواشون

يقولونني ما لم اقله .

توهم الرجل أن الجثة التي أمامه انفرج فمها عن أسنان صفراء، سمع قهقهات قوية تتردد أصداؤها في الفراغ المحيط ،وقف بعصبيته ، انهال بعصاه على الجثة التي أمامه، أحس بالأرض تميد من تحته، وضع رأسه بين كفيه واختلط الذي يخرج من عينيه وفمه.

في اليوم التالي، حمل جسدا آخر، أقعده نفس الكرسي، تكلم إليه، جلده بالسوط، وتهاوى ساقطا بجانبه ، كل مساء ، كل خوف ، كل بكاء .

في الليلة العشرين، أعاد خلف الجثة العشرين إلى مكانها الثلجي ، تمدد على مقربة منها ،أحس أن شيئا مختلفا يقترب منه .

حين فتح المسؤول باب المشرحة لم يجد الحارس ، توترت أطرافه خوفا على الجثث العشرين، بدأ في عدها، وجدها إحدى وعشرين جثة ،فرح أنها لم تنقص، لكنه لم يهتم أنها زادت.

مدينة النهر الابيض

التماعات السيف في يد تنضح ألفة تتعاكس مع التماعات أخرى في المحاجر،مازال الديك نائما او لعله يضاجع دجاجة الجيران للمرة الألف، ودت شهرزاد ان يصيح حتى تكف عن الكلام المباح، شهريار ينتظر، والسيف ينتظر.. اخرج السياف السيف من غمده، وعمدت شهرزاد الى نهدها فأخرجته من غمده، التماع السيف والتماع النهد، لكن الحكاية اثمن يا شهرزاد.. أثمن حتى من أعناق النسوة البيض اللاتي عرفهن قبلك.

في الليلة الألف بعد الألف قالت شهرزاد:

يحكى يا مولاي عن مدينة النهر الأبيض ان النهار انكشف عن فتاة في عمر اكتشاف الجسد، ساقان مثيرتان انحسر الثوب عنهما، نصف سكان المدينة فاغرين أفواه النزق على الطريقين الموصلين الى فوهة جحيم الجسد، الفتاة في حالة إغماء والدم لا يخرج إلا من الصدر المجتثة نبتتاه اللتان بدأتا في الزحف الى خارج رحم الاستواء.

وحدث يا مولاي ان حكاية الفتاة تناسلت في كل مخدع، وخرجت الفتاة من سرية الخدور الى حديث الألسن، وسؤال يطوف بشوارع الإسفلت وبأعمدة النور: من فعل ذلك؟ وأين حمل النبتتين؟!

غزل الرعب أنفاسه في الأمهات اللاتي خفن على بناتهن من العنوسة، واحمر وجه الرجال الذين خافوا على النبتات الأخرى ان يجتثها منجل الحصاد، وفتيان المدينة رسموا على كل جدار تصورهم للنبتتين اللتين فجرتا

الاهتمام بالنباتات الغضة التي تمد رأسها في الخفاء قبل ان تدخل بين أصابع عاشق أو فم طفل، لكن هذه المرة حصدهما منجل مجنون.

تساءل الناس لماذا؟! والفتاة أضحت مزارا للمتطفلات اللاتي أردن التأكد من الإشاعات حول طريقة الاجتثاث، في كل ليلة نامت الصبايا حالمات بمنجل يخرج النبتات من غفواتهن الطويلة حسدا لغريمتهن التي أضحت حديث البشر داخل المدينة وخارجها.

في صباح آخر، تكرر المشهد مرة اخرى، صبية في ربيعها الرابع عشر، لا دم إلا في الصدر بحث أول الفضوليين في أماكن أخرى عن لون احمر تخرجه مناديل الأعراس البيضاء عادة رمزا للرجولة ولكن لم يجد إلا استكانة البركان، والساقان مثلما هما، طريقا المخمل الى هاوية الرغبة، البشر رائحون وغادون الى المنزلين، والمفاجأة دائما في انتظارهما، ابتسامتان خفيفتان يواريهما وجهان على صدرين مقطوعين، في تلك الليلة نامت رغبة خفيفة في صدور فتيات مدينة النهر الابيض، فاللعبة ليست مصادفة، وان كل النبتات البيضاء ربما ستجد المنجل رغم غضب الرجال الذين يعيشون على حلم غرس راياتهم في نبتات جديدة كل مرة، ناموا بخوف محرق على نعيم يجتث.

في مدينة النهر الأبيض حدث انقلاب عجيب، الشرطة تبحث عن السارق، وعن المسروقات، منعت التفاصيل عن الصحف المحلية، ووقفت محطات الفضاء الأجنبية على حدود المدينة، وتوزعت الأقمار الصناعية تحاول رصد الفتاتين، وتحركت أجهزة الحاسوب لتمزج صورا متخيلة عن أثداء مقطوعة، ورسامو الكاريكاتير سخروا من وضع المدينة، أحدهم رسم صورة شرطي يمسك بالمتهم الذي في يديه أربع حمامات بيضاء مشتبها أنها النبتات المجتثة، ساخر آخر رسم تصورا للص نائم على السرير يلعب بأربعة

أثداء دفعة واحدة دون ان تكون هناك ملامح غيرة بين اصحابها، في المساء افتتح معرض للفنانين التشكيليين الذين أغوتهم اللعبة بايحاءاتها، احدهم رسم أربعة أهرامات بيضاء ووادعة ، وزار المعرض اكثر بكثير من عدد سكان المدينة، كتاب الأعمدة كتبوا كثيرا عن القضية، طرح أحدهم تخيلا عن فتيات المدينة، كتب ان على فتيات المدينة إغلاق صدورهن بالسلاسل وبالأقفال وآخر وصف عيون الرجال التي تتوزع بحزن وشجن على الصدور الراعشة تحت أثوابها لم يهتم الرجال بالحلي والبشرة البيضاء أو بالارداف، انما بالحمالات وبفتحات الصدور التي بدأت بالاتساع يوما بعد آخر، حزنت الفتيات كثيرا، لقد تباعد الزمن بين الحادث الثاني والحادث المنتظر، تعب بعضهن من الانتظار ولكن بعضهن تمسك بالامل، الحمامات البيضاء تكاد تتساقط من الفتحات الواسعة على الصدور، نقوش الحناء زركشت بذهب الألوان الدوائر المحيطة بالحلمات التي خضبت بألوان عديدة أكثرها يقترب من الاحمرار. حتى تلك الانفراجات بين شهقة وأخرى زينت بالوشم، وظهرت تقليعات اتسمت بالكتابة على الغشاء الجلدي الرقيق، وعندما اقترب موعد الانتخابات في المدينة تنافس المرشحون في إظهار اهتمامهم بالأثداء ، وانهم سيعملون على تغيير شعار المدينة ليكون هذا الذي هو رمز الرغبة والخصوبة والنماء والحنان وسائر الصفات التي اكتسبها بقوة الاجتثاث الذي حدث لأربع نبتات بيضاء.

عاشت المدينة ثورتها الخاصة، انتعش اقتصادها وكثر زوارها، وانعدمت فيها البطالة والفقر، وصدر قرار من حاكم المدينة بتكريم الفتاتين ونقلهما الى قصرين خاصين، وسميت شوارع باسمهما، وصدرت مؤلفات عنهما.

في صباح من صباحات المدينة الحافلة بالنشاط والحيوية، وعلى ناصية

شارع ما، تكرر المشهد، نبتتان جميلتان وشهيتان كانتا في شموخ وكبرياء لم تكونا في مكانهما، الحلمتان اللتان أطارتا لب نصف سكان المدينة وغيرة نصفها الآخر خرجتا من الثوب الشفاف الى غير رجعة، حملها أهلها فرحين، وجلسوا يترقبون الأحداث السعيدة المفترضة. جاءت الرياح تعكس التمني، سرت الشائعات جافة ومريبة:

- لقد حمل الحسد والجشع أهلها ففعلوا بها ذلك.
- يا لهم من قساة، في سبيل المال غامروا بابنتهم.
- اللعنة على الفتاة، كان لها اجمل ثديين.
- كل فم يقترب منهما كان سيقترب من النعيم.
- كانا يكفيان لإشباع نصف سكان المدينة.
- من ثورتهما كأنهما حدّي خنجر ينفذان الى القلب مباشرة.

عاد الرعب في المدينة الى التصاعد، الرجال غاضبون مما يحدث، والفاعل دائما مجهول، الفتيات أغلقن فتحات الصدور بعد ان انزاحت الأجواء الأسطورية عن الآثار التي يتركها منجل الحصاد، واصبح لزاما على أي خاطب أن يتأكد أن المنجل لم يمر على خطيبته.

احدث صوت شهريار قطعا في تفاصيل الصوت الشهرزادي طالبا ان يعرف شيئا عن الفاعل.

قالت شهرزاد: يحكى يا مولاي ان الرجل الفاعل كان يديم النظر الى أثداء الفتيات، تعجبه تلك الاستدارات المجنونة تحت الأعناق الراعفة بالنزق المحموم، كلما ازداد اهتمامه ازداد هوسه، أنت تعرف يا مولاي ان الرجل تسقطه نظرة من العين فتتلقف بصره تكورات الصدر حتى إذا سقط بصره مرة أخرى تتلقفه مياعة الخصر ومن ثم انسيابية الساقين، ذات ليلة رأى في نومه من

يشترط عليه لتحقيق حلم الخلود جمع أنواع بكر من رموز التوهج والحياة دون أن تتشابه، في الليلة الأولى عاد ومعه نبتتان صغيرتان تتوجهما بقعتان دافئتان لهما لون بني خفيف، في الليلة التالية حصد نبتتين لهما شكل ثمار المانجو التي بلغت حدا في النضج وفي قمتهما حبتا سدر بين النضج واللانضج، وفي الحادث التالي حمل بين يديه عصفورين صغيرين هادئين من حق العالم عليهما أن يقف كل رجاله احتراما لهما، وفي ليال بعد أخرى كانت كفا الفاعل تحصد حمائم وعصافير وفواكه من العنب والزيتون والرمان.

ذات حين من الزمن فاحت رائحة طيبة من بيت الفاعل كست المدينة أريجا لا يقاوم، وقف الرجل يتفقد أرجاء مملكته، أكوام متراصة كأنها الجواهر، ولأنها ليست كأية قطع من اللحم فانها أفرزت روائح عطرية كأن حدائق الزهور أفرجت عن شذاها في لحظات واحدة، خرج الناس من بيوتهم طلبا لهذه الرائحة، أغلقت المحاكم، وهرب السجانون والمسجونون، توقف الشر عن السير في فضاءات المدينة، ألقت الجيوش أسلحتها، عاد الشياطين الى أصفادهم ، نسي البشر وخلافاتهم.

خاف الفاعل من اكتشاف امره، فحمل مقتنياته وسر الخلود قاصدا خارج المدينة، تبع الناس الرائحة، وخلت المدينة من بشرها وحيواناتها وزواحفها، ساروا جميعا خلف الرجل الذي يحمل على ظهره سر الأسرار، ومن ذلك اليوم، وحتى هذه الساعة، يسير سر الاسرار ومن خلفه كائنات مدن كثيرة نحو رائحة النبتات التي اجتثها منجل.

تأخر صوت شهرزاد، وتأخر صوت الديك، تناول شهريار خنجره واجتث نهدين كانا منذ قليل ينعكسان توهجا مع التماع السيف.

نوف

نوف، هذا الفجر الذي يهب القلوب شرايينها، وهج قمري يغسل مدينتنا بطهارته، وبابتسامته التي لا يعادلها شيء، نوف قصيدتي البكر التي احتفت معي بمرور مواكب القمر ،لكنها دثرتني بالرحيل المباغت، حين اعتقدت أنني شربت كأس محبتها للمرة المليون، ركبت الفضاء وغربت بعيدا .

في كل مرة ، بعدها، حين ادخل الغرفة اشعر أنني اسمع إيقاع ضحكتها كما كنت حين ادلف هذا المنزل أو القصر متعبا ،اجر حزني الشفيف في أعماقي، نوف لا تصدق أنني أستطيع الحزن وهي معي ،لأنها كائن مركب من كل الشفافية التي خلقها الله في الأرض ، وفي السماء ،افتح الباب ، أحس بأنفاسها ترتاد المكان بحثا عني، تنتظرني، تلهب وجهي وعنقي وصدري بقبلات مجنونة ،ارفع رأسي بكلتا يدي، أقول لها : أعشقك حتى الجنون ،تزيحني بخوف «لماذا تقول هذه الكلمات، احبك حتى الموت ،أعشقك حتى الجنون؟ لا احب هذه الكلمات ترتبط بالحب».. أغوص بيدي داخل شعرها الليلكي الرائع ، اقف أمامها بصمت، تنسحب من بين يدي : «هكذا قلت لي كل الذي أريده».

اصنع قهوتي، اجرب مرارتها، تقول لي لا تشرب القهوة، لأنها مرة، لا أحب هذه الكلمة، اسحبها من يدها المرمرية، أقبلها فأحسد نفسي على هذا التورد الذي أستبيحه،بين عتمتي انفراجة فستانها الأسود، يطل ذلك الخيط الحميمي الفاصل بين نهديها الثائرين كنصلي خنجر، أضع شفتي عليه ،اسمع

ضحكتها ترسمني في وجه الشمس كائنا خرافيا،أتحسس نهديها النافرين، اسمع المها العذب، تقفز كعصفور إلى صدري، يمنحني الهبات التي قرأتها في كل كتب الأرض .

نوف ،هذه الشفافة العذبة ،حملت حقيبتها ،وفساتينها التي طالما رشّشت على انفراجاتها البوح الجميل ،أكاد اخرج من نفسي لأنادي نوف،العمر الذي هرب من عمري، القلب الذي انبثق كالنور من قلبي ،نوف ،هذه الفراشة الملونة التي هربت من الجنة ونامت على وسادتي .

هذه الليلة الأولى بدونها، منذ أن اعتدت أن اغزلها كفضة خالصة تتكوم كل ليلة على فراشها المخملي، كأن هذه الأنثى مغزولة بالمخمل، جسدها طري وعبق بروائح تزداد توهجا كلما ازداد العاشق في لثمها، اسبح كل ليلة في سمائها المزركشة بعطر المساءات التي لا تتكرر . «هل أعجبك هذا العطر ؟» أدس انفي في عنقها، لا أجيبها، أستحيل نحلة ترتشف خمر الزهر ، لا اتعب، أحس بالإغماء من هذه العسلية التي اختارتني ، لا ادري لماذا ؟ «قلت العطر وليس رقبتي» أجيبها: «علي بالأحلى، تتمدد بجانبي ندية وطرية، بربيعها الثامن عشر اقطفها ربيعا بعد آخر، وردة وردة، حبيبتي وطفلتي ودنياي، حين تغمض عينيها لتنام، اجلس مفتتنا بهذه الأميرة التي هي اكبر من حلمي ، اشعر بالدنيا تهرب مني، حين أفكر أن نوف ستغادرني ذات مساء قادم ، اقبلها، تفتح عينيها الناعستين، تطوقني بذراعيها فأحس منديلين من حرير يحملاني إلى غابة من اللوز ،ألتصق بها اكثر، مرهقة هذه الأنثى التي هي اجمل من الجمال، تعريشة حالمة نسيتها آلهة الحب، أنام بجانب أميرتي، وأدخل مدن ألف ليلة وليلة .

نوف، عصفورتي التي غنتني في صباحات سعيدة، هذا الصباح، لم ألمحها

تنثر شعرها المبلل على عنقها المرمري كما هي عادتها كل صباح حين تخرج ندية من الحمام، ولن أساعدها على ربط أزرار فستانها واحدا واحدا، أريدها أن لا تنتهي، ولن أغازلها كما تعودت أنا، وكما تتلذذ هي، في الصباح أحس أن شفتيها صارتا اكثر رقة، واكثر توهجا، أريد أن امتصهما وأشاهدهما في نفس الوقت ،كي اشعر بعذوبة ما في فمي، حين اقترب بشفتي منها تتحول عيناها إلى بياض دافئ لا تنتهي غيومه، أقول لها ساعديني كي أوقف إعصار هذا الحب قبل أن ينفلت من عقاله، تغضب من تعقيداتي،انظر إلى عينيها الأجمل ،حين تحزن تزداد الوجنتان حمرة وألقا، أغرقهما تقبيلا، هذه الأميرة تقتات من قلبي ، تحرقني بهذه الروعة التي تمتلكها، وأنا خائف وحزين، تذهله هذه الخيول المطهمة، تتعبه بصهيل ضحكتها، وبشموخ جسدها، وبعينيها اللتين تؤويان الروعة في احسن لؤلؤتين، سليلة الملوك، نوف، الوحيدة الباقية من سلالة الملكات اللاتي جمعن كل ما في الأرض من حسن ورقة ولذة وشفافية، منحنه كله لنوف، ونوف دفء قلبي، وكل الذي يقال والذي لا يقال .

تجلس نوف قبالتي تمعن النظر في سمائي الغائمة ،ينكسر صرحا زجاجيا في أعماقي، أحاول إصلاحه، لكن الزجاج تناثر في الدواخل الشفافة، نوف، حبيبتي.. تنسل من بين أصابعي ،تبكي بدمع بلوري ناصع ،اشرب دمعها قطرة قطرة، يختلط كحل العينين بخديها الأبيضين الطريين، تكاد روحي أن تصعد نزقا حين ألامس خصرها، احتضنها بقوة خائفا من الآتي، نوف، وردة عطر تسبح في دمي، بل هي دمي كله، تغسلني أمطارها، عذرا يا نوف، لا أستطيع أن احتمل هذه الروعة التي هي أنت، رائعة اكثر من الروعة، كل المدينة مشغولة بالماسة التي خلقها الله أنثى لا تعادلها أنثى، وأنا المكبل

بحزني وخوفي، شقي بنفسي، ابحث عن اللاشيء، تطاردني عقدي، وازمنتي، ماض يزرعني في أمسه خريفا قاتما ،وحاضر هو أنت، حلم طويل أخاف عليه من انكشاف اليقظة عن خيالاته، وزمن قادم أكون فيه بدونك، ارتدت نوف فستانها الأسود رمزا لحزني، نوف فرحي ،ببياضها وروعتها، داخل قالب من السواد، المشهد ثائر ومجنون في ألقه ،تدلف خارج القصر ،تاركة لي قبرا واسعا برخامه ووروده ومجوهراته، أتوهم أن سماعة الهاتف غير مغلقة فأتأكد منها، وأن جرس الباب معطل فاخرج إلى الباب افتحه للقادم، لكنني اسمع صدى صهيل الضحكة يناديني في الداخل، فأغمض عيني على نوف .

خشوع

يقرأ الإمام جهرا ،فيتابعونه سرا ،يركع الإمام فيركعون ..

يسجد الإمام فيسجدون ..

ينهض فينهضون ..

يتابعون ما يفعله الإمام،فيتوحدون معه حركيا وعقولهم في مجاهل شتى.

في الركعة الأخيرة، كانوا وقوفا لأن الإمام كان كذلك، التفت أحدهم محركا لحيته البيضاء نحو نافذة المسجد، وتابع عباءة سوداء تتحرك بامرأة تعبر الشارع الموازي للمسجد، وعندما كبر الإمام، ركع الرائي وقال : «سبحان ربي الأعلى» ثلاث مرات .

المرحومان

في الطرقات المتربة يلتقون، قادمون وذاهبون ،فلان الفلاني مات ،والجامع يغص بأولئك الذين تتكرر وجوههم صباح مساء، الحريصون على طبع وجوهه في أعين (فلان الفلاني) صاحب الجاه والأموال، يتسابق البعض على آنية الحلوى - بعد أن فرغ نصفها في أكياس تذهب إلى البيوت - يقدمونها للضيوف القادمين من كل حدب وصوب .

مئات السيارات داست بعجلاتها طرقات الحارة، ومناصب كبيرة خلعت أحذيتها الناعمة - تقديسا - أمام جامع القرية .

جاء أحدهم بخبر عن فلان الفلاني الذي مات في فراشه الحقير، لم يلتفت أحد، وظل حفارو القبور ممسكين بالأواني الجميلة التي تحمل الحلوى والقهوة كأنهم لم يسمعوا الخبر .

ثقة

تطاير دخان الشيشة الأبيض تاركا وجهي المتسامرين، وعن قريب كان صوت البحر يلقي هوى سحريا على بوجهما الكاشف، عن الطفولة ومتاعب الزواج وشقاوة الشباب.. وهما يعبان كوبي الشاي الساخنين أفسحا الوقت لتلك الحكايات الحميمية عن الفتيات الجميلات اللاتي يكسرن جدار العفة نحو روح المغامرة.

- تصور يا صديقي، لقد اشتريت زجاجة العطر التي رأيتها في المجمع التجاري ليلة البارحة وقلت انه عطر حالم، كان ثمنه غاليا.

- آه لو تعرف زوجتك .

- نفس الشيء ينطبق عليك .

- لا يا سيدي الكريم ،بيننا ثقة كبيرة .

في ساعة متأخرة من الليل، عاد أحدهما إلى بيته، على السرير تنام زوجته، ينحسر رداء النوم الوردي عن قالبين صغيرين من المرمر، حين هم بتقبيلهما كانت رائحة عطر حالم تخرج من جسدها وعلى مقربة من السرير زجاجة العطر الذي رآه ليلة البارحة .

مراهقة

تدور المتاهة بي ، في دورانها المستمر، على النافذة، أراقب الفراغ الهائم أمامي بالعصافير التي تنقر زجاج النافذة، بالأشجار التي تحجب اللون الصخري للجبل الشامخ، يأخذني بصري إلى حائط منزل جارتنا الطيبة، تختال حفيدتها في مراهقة مجنونة، يجري بمرح زوج عمتها، تسرق يده لمسة حانية من صدرها المتكور بعنف كأنها تخفي حبتي سفرجل تحت دشداشتها المزركشة، تضحك متقافزة من ركن الحائط إلى ركنه الآخر، زوج عمتها يبتهج أكثر بالضغط على صدرها، وشبق مجنون يلح عليه أن يضع حلمتها السمراء بين إصبعيه فتتندى شهقة شهية منها: «لا.. أخاف أن يجيء أحد».

في نهارات عدة تعاقبت على ذلك اليوم، صرت أنظر إلى صدرها - ككل مرة - متخيلاً أصابع زوج عمتها، وعندما تعبرني أديم النظر في تكسر مشيتها متخَيلاً العالم كله.

البائعة

وقفت تتأمل الفساتين التي تحيط بها من كل جانب، كانت تقرأ الأسعار فتحفظها خوفاً أن يفاجئها زبون فلا تعرف كيف ترد عليه.

في المساء قال لها صاحب المحل كلاماً جميلاً، فلم تعرف كيف تبيت ليلتها.

وبعد يوم حدثها عن بيته وإعجابه بها فتذكرت كيف لم تبت ليلتها.

وبعد أسبوع.. نسيت النوم، وأسعار الفساتين، وخوفها.

وبعد شهر..

تحسست بقايا شفاهه..

وبقايا خطواته..

وبقايا أنفاسه..

كان الشوك ينزرع في جسدها، لم تستطع الجلوس.

ترقبت فارس الليلة الفائتة ليغسل عن وجهها آثاراً لزلزال كي تقف كامرأة..

لكن الفارس ترك حصانه يعود إلى قراءة أسعار الفساتين.

وحتى عندما عاد، لم يحمل كلاماً جميلاً، انما بعض الريالات وضعها أمام العينين الباكيتين.

الممثلة

تنام فتحلم بالشهرة..

وتصحو على صوت الهاتف يدعوها للفرصة التي لن تتكرر..

وحين وضعت قدميها على الخشبة قالوا لها: أنت رائعة..

وحين جلست لتستريح ملأت حقيبتها بالرسائل وأرقام الهواتف.

.. بعد اسبوع علمت شعرها كيف ينفلت من عقاله، فطار فرحاً في سماء الحرية.

.. وبعد اسبوع آخر علّمت جسدها كيف يحتضن ملابسها أكثر فأكثر، ليتبدى قطعة قطعة.

.. وبعد اسبوع آخر تعلّمت كيف تكون نجمة تخطف الأبصار، وتنفتح لها أبواب سيارات كثيرة تنتظرها، تتهامس أصوات عديدة تسامرها حتى الفجر.

.. ويمضي الشهر.

.. ويمضي العام.

كانت تسير بحرقة النازف تاركة طفلاً يبحث عن أب..

وعن روزنامة تحسب بها الزمن خلف القضبان.

.. وعلى الخشبة هناك وجه جديد يبحث عن دور جديد.

الاحتفال

كانت عيناه تطيران من مكانهما وهو يستلم نصف مليون ريال من المسؤول الأول عن المدينة، وكاد قلبه أن ينفطر حينما أعطى ربع مليون ريال إلى المسؤول الثالث الذي أكد أن مكافأة المدينة جاءت كبيرة جداً على جهوده في تنظيم الحفل الكبير، وحينما تسلم أعضاء اللجان وعددهم خمسمائة شخص عشرة ريالات لكل منهم كانوا مسرورين جداً بالمبلغ الذي انتظروه أشهراً طويلة ليعبر السلسلة التراتبية، والخرافية.

بعد أيام معدودة شاهد الناس مصابيح الحفل الملونة تزين بيت المسؤول الأول، ومظلة الاحتفال تحمي أبناء المسؤول الثاني - عند لعبهم - من الشمس.

تذكر الناس المبلغ الذي دفعوه مشاركة منهم في تكاليف الحفل الكبير.

محمد بن سيف الرحبي

وقال الحاوي



مجموعة قصصية



الطبعة الأولى - بيروت 2008

نخلة الفرض

في دهاليزك السرمدية أنفقت عمرك صديقي حملت حزنك من منفى إلى منفى، وأنت لم تعرف غير قريتك الوادعة، تلك التي تشرب من أفلاجها وتنام على أفلاكها.

منفاك دنيا متسعة.. تقاسمت الدمع مع ترابها، والدعاء مع سمائها، والدروب ما عادت تتسع لوقع أقدامك التي أكلت منها دما وعرقا خلال مسيرك نحو أكثر من نصف قرن.

والأولاد كبروا.. القرية كبرت العريش الذي آويته جسدك كل هذه السنوات عاند الدهر وبقي لك، أعطيته روحك وجسدك واعتادك كل داخل عليه.

انفقت من عمرك قرونا من التذكر، بعد نصف قرن تحاول ان تحصي ما تمزق من أوراق عمرك، تحاول أ ن تحصي المتبقي أمام أقدامك كي تسير عليه.. وحيدا ومتعبا.

تحني هامتك على السرد وأناملك تعرف طريقها إلى الخوض تصنع منه حبلا صغيرا لا يعني أحدا، تشعر بالوحشة من كونك رقما لا يأبه به أحد، يتساوى مع السرود النابتة من بين أصابعه الخشنة.

في وحدتك تستجدي الذكرى ان تأتي، تلح عليها تغالب بها الوحشة التي تشعر بها ، تضن عليك ذاكرتك، ولا تضن عيناك بمائهما، أين رفاقك القدامى؟

تصعد آهة عميقة جدا من داخلك، تاهوا في الدروب بعيدا عنك، منهم من قضى ومنهم من ينتظر، لكن بعيدا عن، ينتهي الحبل الخوصي من بين يديك، وعيناك تأخذنك إلى قمم النخيل، كم كبرت، تشعر انها كبرت، واستطاعت فوق مقدرتك على النفاذ نحو شموخها بين أجنحة الريح، تتحداك واقفة تقلب أجنحتها مع وقع هبوب الغربي، وتمرات الفرض اسمر لونها، وحان قطافها لكنك عاجز يا صديقي، أخذ منك الروماتيزم زهرة قوتك، وعليك أن تقنع بما تلقيه إليك به الريح حين تهب، ليست ريحا هي لكنك تستشعرها في أعماقك عواصف لا تهدأ.

تحت عريشك هذا أنفذت حيوات إلى الدنيا، كبرت مع الذين كبروا ورحلت مع من رحلوا بقيت لك أعمدته الأربعة وسقفه الخوصي بما حفظته السنوات من جذوع ترتفع فوقها السعفات اليابسات، كان العريش بيتك، يتسع للعائلة، وللمجايلين العابرين نحو نخيلهم يرعونها وينالون حصاد رعايتها.

تنتفض روحك فوق قدرة جسدك، روحك حية ووثابة رغم ضعف الجسد، على ساقيك أكثر من حبل جلدي تربط به مواضع الألم، والوسوم خلفت آثارها كعلامات أسطورية .. تشدك روحك نحو تذكر تجلت فيه نشوة أمسك..

تترك الخوص، تنفض بقاياه من ثيابك، تجفف دمعك لتستبين خطوك نحو نخلة فرض احتضنها منذ ان كانت فسيلة في حفرتها الصغيرة، حنوت عليها كثيرا وسهرت تنتظر موعد سقيها ورفيقاتها كما تسهر الأم على ضناها، لم تعد تلك النخلة في حفرتها، بل ذهبت مع الريح، تتراقص كأنها على موعد فرح حيث العذوق ملآى بالتمر، تنتشي بمجدك الغابر، تتناول حبل الطلوع من وتده، تدفع خطوتك نحو نخلة الفرض، تربط الحبل وأنت تعانقها، كم

فعلت لحظات العشق هذه مع مئات النخيل لكنك هذه المرة تحس بدفء غريب يتسلل إليك..

امض يا صديقي نحو طريقك الذي اعتدته، لا تخشى من الاقدار ان تباغتك، جميل ان تمضي وراء أسطورتك تتحسس فيها عمق أقدارك.. اربط الحبل جيدا ليوصل بين خصرك وأول الجسد الذي أدمنت.. قدمك على أول (كربة) تشعر بالألم يوخز ساقك كأن الكربة سكين تضع عليه جرحك، فوقها أخرى، لا بد من المسير، لا يهم الجرح، الحياة مجموعة متراكمة منه، والعريش ضاق بمواجدك، والحبال الخوصية قصيرة جدا ليس بها الطول الذي اعتدت..

قدم تتبع قدما

وألم يفوق ألما.

تبتعد الأرض قليلا .. فأكثر.

تقترب التمرات قليلا .. فأكثر.

يرتخي الحبل فيشتد على خطوة أخرى إلى القمة.

تقترب من جديد النخلة فتصعد روحك إلى الأعلى، وترفع الحبل مسافة (كربتين) وتصعد بقدمك اليمنى مسافة خطوتين، تلحقها باليسرى، فتلقى جسدك مرتفعا على نحو ما، هكذا استمرت الحكاية.

كلؤلؤة نفيسة تقبض على التمرة الأولى.. تتنفس فتمضي بك نشوتك نحو عنان السماء، ما أشد المواجع حين تنتشي بشباب غابر سرقه العدو من بين يديك، في لحظة تأتي إليك صور أقرانك، يندفع الأمس كثورة لا ترحم، تميل النخلة مع الريح كأنها جذلى بك..

تضعف الساقان على الاحتمال تعمق جراحهما، ينغرس السكين فيهما أكثر.. فأكثر، يباغتك الألم وأنت في عز النشوة بالمجد المستعاد..

تقول أسطورتك يا صديقي إنك قضيت ساعات منتشيا، وكان لمع ابتسامتك يصل إلى الذين راقبوك ينزلونك بها من مكانك ومكانتك، وتقول أسطورتك أيضا إنك رأيت طريق العودة سريعا ولم تتمكن (الكربات) منك، سقطت بجانب أول (كربة) استقبلت جرحك هذا الصباح، أسطورتك المؤكدة هي حبة التمر في كفك.

كانت التمرة في كفك تقبض عليها بقوة، تمكن أحد مغسليك من بسط أناملك، وأخرجها.. أخذها فلج الحيلي، ومضى تحتفي بها ساقيته. لا تعبس يا صديقي، امض في خطوتك نحو حفرة تتشابه مع حفرة فسيلتك التي أهديتها عمرك، فوهبتك آخر هدية، التمرة ستعود حتما إلى الأرض كما عدت أنت، وسترتفع عن باطن الأرض .. تماما كروحك.

عمامتان ..
(واحدة للشيخ والأخرى للغريب)

ألقى خفته على صخرة ضمن صخور كئيبة كونت ذلك الجبل ، وصاح مغاضبا في تابع خطاه: قلت لك لا تقتله ، غدا ستثور جماعته ولا ينتظرون الشيخ حتى يبلّغ الإمام ، سيقتلون أحد أولادنا أو أبناء عمومتنا ، الكل يعرف انه ساحر، لكنه قبيلي، وهو إذ ينحني مزيلا أشواك شجر السمر عن نعاله استدرك: إذا جئت للحق فهو يستأهل الذبح وليس الرصاصة فقط.

فجّر صوت طلق ناري هدوء المكان وعتمته ، فتابعا جريهما ، وعلى مقربة من أشجار سمر كثيفة اتجها صعدا صوب الجبال المتاخمة لوادي منصح آخذين طريقهما نحو وادي نجوم، حضنفا شجرة سمر ودقا أوراقها ، وبعد لحظات كانت الأفواه تتلقى العجينة الخضراء تدرأ جوعا لا شك أنه آخذ بناصيتهما، في أزمنة متلاحقة كانت الأفواه تلوك أشياء مشتركة بينها والمواشي ، والخطوة كانت متشابهة، والجراح في الأجساد غائرة يجفف شقوقها هبوب الغربي الذي يشعل الأرض ويصالح الجراح.

شدّا رحالهما الذي لم يكن إلا جسدين جبليين ، نحو مطلع الشمس، كان البحر ليس ببعيد ، والغربة تتمرأى على مرمى نية ، وراءهما حراس كثيرون يحرثون البحر ويدخلون الفيل في خرم إبرة ، حيث تورث الحكايات كما توزع خليفوه اللبن المخلوط بالماء على كل الجيران ، ففي كل جرعة لبن حكاية أو ذبابة، الأولى تطير بجناحيها من أذن إلى أذن ، والأخرى يظن الشارب أنها ترفع

الجناح الذي به الشفاء واضعة جناح الداء فما من بد أن يغرقها كلها قبل أن يرفعها بإصبعه وكأن شيئا ما كان ، تذكرا خليفوه وهما يرقبان الفجر أن يشتد بهاء شمسه الغارقة بين الجبال، وراءهما كتل الصخر وأمامهما اتساع الأزرق الذي يتخيلانه في فجرهما العنيد ، رأوه مرة محاذيا خور بمبة وأمامه مطرح سكينة الفقراء والأثرياء، لكن الظباء لا تسكن مطرح ، لا حياة الا في الجبال ، أحكما ربط محزمهما حول خاصرتيهما الضئيلتين ، وشدا على تفقيهما.

ذرعا الجبل بحثا عن ثقب إبرة ينفذون منه ، وكانت القرية تلقي حبلها الوثيق إليهما، أدارا ظهريهما للبحر ، وتسابقت أربع خطوات لظبيين يدفعان الصخور وحبات الرمل إلى موئل الحكاية ، لا فائدة في الهرب، صاح أحدهما، وقفز الآخر صخرة كادت أن تعيق النعال الجلدي العتيق ، تناهى إلى سمعهما تعويبة راعية تسوق أغنامها، عاث الشجن في ذهنيهما ، ومرقا في دفء الصوت بعيدا عن الحنجرة التي تلقيه في تلك الوحشة الغارقة ، الحطابات يحملن على رؤوسهن تعب اليوم ويلقين الحكايات على الخط الترابي الذي خطته أقدامهن رغم عناد الريح لدثره، أقدام الرجلين بحثتا عن موار يدفنا فيه حضورهما ، فالحطابات يمتلكن القدرة على سماع قادم بعيد حتى وان كن ينصتن لتعويبة الراعية، شيئا فشيئا لم يكن صوت الراعية وحده يمخر عباب الوادي نحو المقعيان في جرف بال، كانت الحطابات يرفعن أصواتهن بالنحيب يتابعن الراعية.

درجت خطوات عدة إلى حلق القرية، الحطب يثقل الرؤوس، والحكايات تتفجر في السوق عن ظلين شوهدا لرجلين أو ذئبي فلاة ، وشيخ الجماعة يقتعد السبلة منذ ما بعد صلاة الفجر ، وحوله جماعته يتناولون ما يجود به من خبز وسمن وربما عسل جاء به مسافر أو غريب ، بعد أن يكون الجميع قد مسح

فمه بطرف ثوبه تتناسل الأسئلة والتخمينات عن هاربين يطالب بهما شيخ القبيلة الأخرى ، قتيلا بقتيل أو يترك الأمر للبنادق لتأخذ الثأر المبيت ، والميت يئن في قبره طالبا القصاص، وكاد اليوم أن يمر بالشيخ كمثل سابقه لولا أن ربيّوع جاء بغريب إلى السبلة، عرف الشيخ انه أحد البانيان الذين يتنقلون بين مسقط وصور ونزوى للتجارة وأشياء أخرى، دخل الغريب بخفة الغريب، وأصابعه تداعب منديلا أخذ أبصار الشيخ وجماعته، أخرج من منديله حماما ونقودا وأفاعي تتلوّى.

كان الشيخ متزنرا بجماعته الذين يتنافسون أيهم يقفز من جلسته عاليا إذا دعاه الشيخ، وفي الجلسة أقعى الغريب يخفي أصابعه ويبينها عن عقود من اللؤلؤ والمرجان، كان سحرة القرية يتناظرون ويبلعون ألسنتهم ، قال الشيخ للغريب: هل ترى تلك النخلة ؟ ذهب الغريب بعينيه إلى حيث اتجه إبهام الشيخ، تحركت النخلة الممدة على الأرض منذ سنوات، فتحت فمها أفعى تكاد تبتلع السبلة بمن فيها، ارجف الغريب، وخلع عمامته، نفضها فتساقط منها حور عين ، تحت كل نخلة صبية، وبين كل صبية وأخرى صبية تبين عن حسن لم تر مثله القرية، انهالت الأقمار بشعورهن السوداء الطويلة ، وعلى الخدود غمازات تزيدها الضحكة فتنة، ويكدن لفرط حسنهن أن يذبن دلالا ، امتلأت القرية بحسن الصبايا وابتسامات لا حدود لاشراقاتها، وكل صخرة تنبجس عن عين امرأة، وكل عين امرأة تتفجر شلالات نور، تلاحقت العيون بعيدا عن شلالات النور في انتظار الشيخ كيف يرد، حين فض الشيخ عمامته انسل من بين أهدابها غلمان كأنهم اللؤلؤ المكنون، لا يكادون يلامسون الأرض حين تتحرك تلك الوجوه الشفافة كأنك ترى الشرايين تحت الجلد الزجاجي، نمت للجالسين عشرات الأعين، لكنها دون رؤية اثنين أقعيا على مقربة وفي أهداب عينيهما دم القتيل.

مرثية لقصيدة نسيتها نوف

كانت الريح تئن أمام الباب، تتوجع بألم غريب كأنها تندب آخر منفي سحب أطيافه على غير عودة، من التواريخ المثبتة بالحائط سقطت أزمنة متتالية، تدافعت السنوات إلى اسفل المكان تسابق نفسها خوف مجيء الريح، تلك القادرة على بعثرة الأوراق فوق الاحتمال..

تناثرت أشياء المكان على غير هدى، سنوات أوصدت نوافذي خوف تلصص الريح على هشيمي، تآكلت جدراني حيث ندبت غائبي، ذلك الذي غرّب بعيدا فآويت إلى ركني العتيق أسفح جروح الجدار، جداري المتشقق، هناك الكآبات تختبئ في فواصل الطين.

في المكان، في زاوية من حلق العالم، بعثرتني الريح فوق احتمالي، وباغتني الفقد حينا من الدهر كأنه الدهر، أشعر بطعم مرارته يتجدد في حلقي، نوف، سليلة الحكايات تسهر مع القمر النائم في العلية، وأطيافها تتوافد علي كل مساء، تهبط من سقف البيت الكبير، تتأمل جراح المكان وساكنيه، العصافير المتساقطة يباسا في قفصها الباكي على مجده، الوردات المتيبسة، السلالم التي كانت مرمرية، دخلت الريح الى فضاء وردي فعبثت به تذروه هشيما ليستقر في عين الفؤاد.

قال الرجل الغريب: يا ولدي ان الفقد مهلك، والحزن موجع.

زارني ليالي لا تحصى، لا يحتاج لأفتح له الباب، يفاجئني بالوقوف أمام

وجهي مباشرة، يقول انه يعرفني منذ أن بكيت لأول مرة خارجا من رحم أمي، وكلما ظللتني الكآبات يخرج لي كما حدث آلاف المرات بعدئذ، يجلب لي قطع الحلوى يدسها في يدي كما اعتاد منذ تلك الطفولة، ما أروع قطع الحلوى حين تبتل بالدمع، لها مذاق خرافي، الغريب ينسل الى جراحي، وفي كل مرة اراه غريبا، كغربة روحي عني.

رويدا أيها الغريب، لا يعرف الدمعة من لم تحرقه جمرتها، ونوف، آه لو تعرفها، نوف شمعتي وناري.

قال الرجل الغريب: يا ولدي لا تحزن على فراق، عد الى روحك تجد المؤانسة، أصابعك دواء جرحك.

لم أصدق الرجل الغريب، وزارني مرات ومرات، لكن أطيافها كقوس قزح يهبط من فضاء الله الواسع الى فضائي المعتم، يقرأ علي قصائد حب ويرش الملح على جراحي المتناسلة.

قال الفجر: سأعطيك أميرتك، ستعود اليك قبل أن أهبط من سماء الله.

كان الفجر كمثل الليل يكذب، نجومه تتوارى واحدا بعد آخر، تخبو، كما تخبو نظارة أشيائي..

وغريبي تباعد على وقع أوراق العمر التي تسقط من على الجدار.

يا غريباه.. وقد أوصدت نوف الباب خلفها لم تكن الريح هناك، للظلال مساحات للرؤية، للفقدان غايته في الوصال، وجهي في وجه نوف، ساحرتي عادت بدون هالاتها.

يا غريباه، هل تصدق أن القمر يبقى قمرا دون كرة النور التي تغمر القلب قبل العين؟

يا غريباه، أكاد لا أعرفها هذه الأنثى التي غزلتني وآوتني وامتطت نجمة أحلامي، يا غريباه، والدمع؟! ما له تمرد على مسكنه في الأحداق، ولم يقبّل نوف كما قبّل وجنتي آلاف المرات في غيابها.

هبطت من حيث لا أدري.

قالت ان الكون ممزق في خارجي، أكثر من مزقته المبعثرة في داخلي، وأن الحياة لا تحتمل العيش خارج شراييني أكثر مما يمكنها العيش في داخلها، نسيت نوف أنه لم يبق فيّ ما لم يتمزق.

أدرت وجهي صوب الأيام المتبقية على الجدار، منها ما سقط، ومنها ما هو آيل للسقوط، كلما حملت نوف عاما كي تعيده الى مكانه على الحائط سقط بقوة أكبر، يحدث ضجيجا سقوط السنوات، أدركت من بين نجيمات الحزن أن قانون الجاذبية لا يحب التفاح فقط، بل يجبر العمر على الوقوع تحت أشجاره غير المثمرة.

حزنا فحزنا، كأنه الجدار يطرد السنوات الباقية على قشرته، الأشباح التي مارست معها الحلم هربت من حضور أنثاي، وما عادت كما تمنيت أن تعود، شعرها، غابة الليل هجرها الألق السحري، عيناها دوائر صغيرة في وجه غائم، ضحكتها أطلال وحشة لم تمزق شيئا في مساحاتي المتراكمة، نقشات الحناء ليست تلك الجزر التي تقودني الى ممالك الجنة.

وحدي، وممالك الحزن التي آوتني في غيابك، والهاتف الذي غاب صوته، وأشجار الورد التي انسحبت منها الحياة، ارتقيت في مدارج الشقاء، وتهاويت كآنية زجاجية.

والرجل الغريب الذي كلما القى بزهرة التقمها حزني.

محمل بأكفاني ترصدني الرؤيا فأواري سوأتي بيدي، نوف نسيت اشتعالاتها، وجحيمي أحرقني، بقي رمادي ينتظرها لعله ينتفض بجمر العشق.

فنجان قهوتي متيبس بخرائطه التي تقرأها راجمات الغيب، الخرائط المتيبسة لا تعطي مسارا للحياة.

جالت نوف على قرى في داخلي وأودية، هالها حجم الرماد المتكدس، بحثت عن عصفور النار تخرجه من بين أنقاضي، أتعبها رمادي، يا أيتها الباحثة في جداول شراييني عن نبض، ما جدوى النبض اذ تعزف الريح مراثيها في فضاءات العمر وحدها؟!

جف المكان من انفاس نوف، حين غادرتني للمرة الأولى، كان حزني قد أتعبها، هذه المرة تآكلت كلي، لم أدرك الا متأخرا جدا أن نوف تركت المكان، ذهبت في غيابها الثاني، بينما على الجدار تلوح أوراق تواصل السقوط، تبدو كثمرات سوداء تهزها الريح، فتتساقط، وحدي والجدار والثمرات السوداء وقفنا على شرفة نودع ريحا ونستقبل أخرى.

مزحة موت

هؤلاء السائرون بي يستغلون عجزي، ويمضون..

نعم، أدرك إلى أين سيحملونني فوق هذه المحفة، ذات المحفة التي تخيفني كلما رأيتها بجانب المسجد، لا أصدق أن تسير الأمور هكذا، قفوا، استحلفكم بالله قفوا، يا لكم من أغبياء، أريد فقط أن أقول لكم، انها مزحة، أعطوني فرصة لأشرح لكم الحكاية من أولها، لماذا تستعجلون وكأنكم تريدون التخلص مني لأيما سبب..

نعم سأقول لكم الحكاية من أولها..

ذات لحظة جنون قررت أن أموت قليلا..

هكذا، ودون أية مقدمات وضعت قراري فوق طاولة الواقع، قلت أجرب فعل الموت على الأقل، أغمضت عيني متخيلا ماذا يحدث بعد موتي، ستنتفض القرية قليلا من سباتها، سيصابون بدهشة أنني مت، سيقولون عني كلاما طيبا للمرة الأولى، سيتحسر على شبابي الضائع عدد غير قليل، سيبكي أولادي، ستعطف القرية على أصغرهم الذي يبكي لأنه يرى الآخرين يبكون، يجهل أن أباه مات، ولن يراه مرة أخرى، غبت في تصور المشهد طويلا، تخيلته، حدثتني نفسي أن أموت متخيلا تحقق ذلك لأرى فقط، لألفت الأنظار إليّ قليلا، فأنا كائن مهمل لا يعيرني أحد أدنى اهتمام، أساق ضمن القطيع، عليّ أن أكون موظفا صالحا في الوزارة، وزوجا صالحا في البيت، ومواطنا صالحا من أقصى البلاد إلى أقصاها.

بموتي سيعفيني بنك مسقط من السلفة التي أدمنتها منذ راتبي الأول، وستعرف زوجتي قيمتي على نحو ما، لن أفكر في فاتورة هاتفي النقال، ولن تقلقني أرقام ورقة الكهرباء، ولن يستدعيني أحد إلى المدرسة لأن ابني مارس هوايته في صنع المشاكل، قررت أن أموت لأشعر على الأقل بمتعة أن لا يعاني المرء أي قلق أو توتر أو إحباط.

دخلت زوجتي غرفة النوم تذكرني بالذهاب إلى كارفور، خفت أن تقطع عليّ حبل قراري، بدأت بمناداتي بصوت عادي: خلفان .. خلفان.. خلفان، انهض، الصغيرين ينتظروك، فرحانين يروحوا كارفور، صار لهم أسبوع ما راحوا".

ثم علا صوتها تدريجيا: خلفاااااااااان .. خلفاااااااااااااااااان

قلت في نفسي: أحسن لي أن أنهض، لأنه لن يستمتع أحد في هذا البيت بأي شيء حتى وان قرر الاستراحة إلى الموت، لكني لم استطع التحرك، فقدت فعل الحركة، يا الهي، كيف أوقف هذا الصريخ من فم زوجتي.

ما هي الا دقائق حتى تحلق حولي أبي وأمي وجميع إخوتي، الجيران أيضا حضروا، اسمع صوتهم من وراء باب الغرفة" «المسكين مات في عز شبابه» وآخر يتحسر على المستقبل الذي أمامي، والذي لم اره طوال حياتي لا أمامي ولا ورائي.

يا لكم من مغفلين، بعد قليل سأسترجع حركتي لتعرفوا أنها مجرد مزحة، مزحة موت، كما نفعل حينما كنا صغارا نتظاهر بالنوم، كبرنا الآن لذا كبرت اللعبة إلى التظاهر بالنوم الأبدي.

أحاول أن أتحرك، أقدم لهم إشارة على أنها مزحة بسيطة أردت عبرها التفكير فيما سيكون الأمر بعد موتي، صراخ زوجتي لا يعلى عليه، والبكاء عم الجميع، جميل حتى هذه اللحظة، عرفت بعضا مما أقصده من مزحتي،

عليّ الآن أن أنهيها، وأذهب الى كارفور أجر العربة وحولي أولادي يلقون فيها مشترياتهم، وحين أصل إلى المحاسب لن أجد واحدا منهم يرفع من روحي المعنوية أمام الأرقام التي تظهر، وعليّ أن أعطي ذلك الواقف مقابلها عشرات الريالات.

حاولت أن أحرك إصبعا واحدا إشارة مني إلى أني ما زلت حيا وان لم أرزق، باءت المحاولة بالفشل، وبعد قليل جاءوا بالكفن، يا الهي، ما هذا الذي يحدث، من يقنعهم أنني أمزح، والله العظيم كنت أمزح، لا أريد الموت حقيقة، أردت أن أجرب فقط، أمهلوني قليلا، سأثبت لكم ذلك حين أسترد قدرتي على الحركة.

كل شيء يمضي فوق طاقة مزحتي، لا أدري أية ساعة كريهة تلك التي قررت فيها تجربة فعل الموت، حملوني من غرفة النوم نحو المكان الذي عادة يغسلون فيه الموتى، لا أصدق ما يحدث، حتما لن تمضي اللعبة حتى النهاية، سيدرك أحدهم أنني حي، وأن هذه مزحة سخيفة ستذكرها القرية سنوات طويلة، سيقولون انها قصة خلفان، لا يهم أن يقال عني "مغيب" فالأهم هو أن لا أدفن، طوال عمري أخشى الموت، وأن أترك وحيدا في حفرة بعيدة عن البشر، مطوع القرية حدثنا كثيرا عن عذاب القبر والأفاعي والعقارب، هل يعقل أن أذهب إلى كل ذلك بسبب مزحة؟!

لا بد من ايقاف المزحة، فالكارثة تلوح حقيقية دونما أدنى ابتسامة.

لكن كيف؟ العجز أقسى من الموت..

ربما تموت لكن عليك أن لا تبقى عاجزا، بإمكانك أن تعود حيا، جسدي يخونني، يمضي في ممارسة لعبة الخيانة، لا يريد التحرك، أفقد سيطرتي عليه، كنت معتزا به الى أبعد حد، معتنيا به، لكنه في اللحظة التي أحتاج فيها الى

وقوفه معي يخونني، لا يدرك أي مصير أسود ينتظره إن واصل لعبة الخيانة.. الدود.. اجتاحني ألم لم أجربه من قبل، تذكرت هذه المخلوقات الصغيرة والكريهة، هكذا، لمجرد مزحة ستعبث في جسدي، ياللمصيبة العظيمة.

وهؤلاء المغفلون سائرون باللعبة نحو النهاية، لا يتحرّون الإشارات على أن ما يحدث مجرد لعبة صغيرة، حولهم الموت يضع لعبته الأكبر، لا مجال للتردد، يهوي بي نفر منهم إلى الأسفل، أشعر بهم يحطونني من فوق رؤوسهم، جميل أن أكون فوق الرؤوس لكن اللعبة لا أحد يكتشفها لتتوقف، دقائق ثم أدرك أنني أوضع في القبر، لا، لا، لا، يكفي هذا، أسمع ثقل الصخور فوق جسدي، تزداد الظلمة، قفوا أرجوكم، لن أمزح مرة أخرى، أنا أحب الحياة رغم مآسيها، قفوا أيها الأغبياء، الحياة حلوة حتى مع أقساط البنك، أعدكم أنني سأكون موظفا صالحا أكثر مما كنت، لن أطالب بإجازات أو علاوات، وسأربط لساني عن الشكوى من تأخر الترقيات، وسأكون مواطنا صالحا، سأقول في كل مكان ان بلادنا لم يخلق مثلها في البلاد، وهي أجمل من الجنة بمراحل، وكل مسؤول فيها أشبه بنبي في الاستقامة..

أكاد أسمع صوت التراب ينهال علي، قفوا أرجوكم، استحلفكم بأولادكم لأنكم لن تعيروني اهتماما اذا استحلفتكم بالله أن تمنحوني فرصة أخيرة، لأقول لكم أنني كنت أمزح.. والله العظيم كنت أمزح، أشعر أنني أبكي وأصرخ، هل هذا كله لا يصل الآذان.

ضغط التراب على جسدي..

بحثت عن روحي، بقيت وحيدا في ظلمتي، وكأني اسمع أقدامهم ذهبت رويدا رويدا نحو البعيد صرخت بما أوتيت من صمت: لا ااااااااا....

الدائرة

«لا شيء مهم يا صديقي، لا شيء مهم».

القاها مرات في سمعي، وهو يقذف ما بصدره في وجه ما امامه من جبال الوادي الكبير، مضيناها صعدا واضعين المدينة وراءنا، كانت تشرب آخر خيوط المساء، تسمح بالقليل من الاشعة تتسلل الى شوارعها.

«لا شيء مهم، تعبت، صدقني تعبت».

يفتح العبارة، والسيارة تزفر بين فخذي جبل اعتاد حركات النزول والهبوط.

كان المساء بطيئا وثقيلا، احسستها دمعتين سفحتهما عينا صديقي، انسربتا الى الداخل، نحو وحشة مغلقة، السماء ملبدة بغيومها الارجوانية، والمدينة تصطفق على ظل كئيب، الاعمدة تطل بضبابية وصفرة كابية ارهقها الوقوف فوق العتمات المحدثة بالسائرين، في قلب الجبل المشقوق مضينا ندفع انفسنا الى العلو، بعدها لم يفاجئنا الانحدار، ادمنت ارواحنا تفاصيل المكان والرؤية، استدارت السيارة شمالا باتجاه البستان، القى نظرته الى اليمين، شارع قنتب يتلوى في ارتفاع على هضبة جانبية حفظت الذاكرة قصة حين تبادل صديقي وحبيبته قبلات المساء المقمر، ازالا وحشة الصخر وأضاءا عتمات الجماد بالتقاء الشفاه.

القيت بالذكرى الى صديقي المتعب، يبدو كأنه لم يسمعني، التفت الى

الشلال المجدب هذا المساء، قال: المياه لا تسقط اليوم، لكنه اسقط هرما زجاجيا في داخلي، التفت الى الوراء استجدي قوة المضي الى الأمام، هناك حيث البحر، على يميننا فندق البستان استدارة اسطورية والبحر يرمقنا عن قرب، والجبال تشد ابصارنا.. «كل هذا العبث».. لم أسأله صديقي - عن ما يراه عن عبث، لا جدوى من السؤال عن الجدوى.

بعينين منكسرتين ضاق بهما الحلم ادار رأسه الى البناء الاسطوري، ولوى مقود السيارة مستديرا حول دوار سفينة السندباد الراقدة بسكينة الموتى، ومن حولها تستدير السيارات المتباينة الاشكال والاحجام والقيمة، وكذلك البشر بتبايناتهم، تأملت وجهه بلحيته الطويلة، والنظرات الزائغة يحفز الايام، وراءه سنوات قلقة.. ما زالت الرمال تتحرك من تحت اقدامي، اخاف الوقوع».

النـاس تدمي روحـي، ماذا تريد مني؟.. كنت كما رأوني فلماذا لا يصدقون ان اللـه هداني، وان نورا تفجر في اعماقي يحول بيني وما حفظته ذاكراتهم عني.

- لا عليك

- هل تصدق انهم كانوا يثقون بي اكثر من الآن، يصدقون تلك الافعى التي كانت تتلوى في داخلي ولا يثقون بالانسان الذي اكونه.. لا يتذكرون مني الا البنات وزجاجات الخمر، يلومون كأن ذلك كان مشروعي الذي اضعته.

سداب على مقربة من عجلات السيارة، يربكني صديقي، والمساء يتخلى عن نوره المتبقي، على يمين المكان مقهى ابتعنا منه كوبين من الشاي ويممنا وجهينا نحو سداب، كنت اراقب السائرات على جانبي الطريق، نظرات

مشوشة تنبعث من عيني صديقي كأنه يداري فوهة بركان يخافها ان تتجلى حمما، قلت: «الجمال تحسن في عمان بعض الشيء».. شعرت جوابه في نظرة ساخرة، تمتم باستغفارات، واختنق الصوت بحشرجات مرهقة، لزمت الصمت حتى اجتزنا هذه الراقدة على شاطئ البحر، مسقط القديمة صافحت وجهينا، الجبال وراءنا قبابا سوداء تشرف على المدينة.. «الالسنة ورائي في امس الذي كان، ويومي الكائن، وستطاردني في غدي الذي سيكون».. رمقت بطرف ذاكرتي امس صديقي الملتهب، نساء وخمر، وغزوات يومية الى وادي عدي ووادي حطاط واسبوعية الى دبي.

- تعرف ان التقوى اصبحت شبهة.

- دعك من الجميع فلكل واحد مشكلة مع نفسه، فقط قللوا من التحريم والتحليل.

رمقني بقسوة، كأنني كنت احدهم، تحدث بانكسار عن الموت والنار وعذاب القبر.. «الدنيا ما تسوى».. قالها بمرارة بها من انشطار الروح ما بها، توسد ثقله وتعمم ببياض جميل، امسك بجمر الفضيلة، اكتوى به، خاف من الزلزال ان يلقيه الى امس بغيض، انحدر الى نفسه مرات ومرات لعله يجد فيها عاصما يقيه الغرق، ذات مساء عاد من قرية الشيخ الفاضل والقى بأشرطة الفساد كما اسماها الى الهلاك، استبدلها بأشرطة القرآن الكريم والمحاضرات التي تهلع سامعها من التهديد والوعيد.

- لماذا لا تتخفف قليلا من تعذيب نفسك بسماع تلك التي تثير الخوف من العذاب والنار؟.

- الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

- ولا تنس حظك من الدنيا.

- ما منها يكفيني.

مضت الطريق اسفلنا وبين جنباتنا، وصديقي ادمى فؤاده طريق حائر أنهكته الالسنة.. لا شيء مهم.. لا شيء مهم« يقذف الكلمة كزورق نجاه متهالك يقنع كائنا هلاميا تحت جلده، يدفع السيارة العتيقة في الشوارع المضاءة، وداخله الى تشعبات مفجعة، بين شكه ويقينه يمضي تاركا انفاسي تحوم في فضاء خارجي بعيد.

ضمنا ضمن من ضم مطعم مسافر خانة يعود بنا الى امس مستردك في تشكيلاته، صديقي ارتكن مكانا قصيا في المكان، على قلق اقتعد كرسيا ولم يلبث حتى نهض مغادرا اتبعه لا ادري الى أين، اجتزنا بوابة مسقط، قلت: البوابة رائعة وكلفت الدولة مالا.. رمقني بتوجس، تبادلنا الصمت واستقبلنا الطريق البحري، على يميننا بدت مطرح نورسة هاجعة الى تاريخها، فوق سطح البحر الازرق استلقى يخت فلك السلامة بدلال ملكي، قال صديقي: لا تحاول أن تجرني الى حديث لا اعرف الى أين يمضي بي؟ ضحكت من مخاوفه تاركين مسجد الرسول الاعظم وسور اللواتيا بتاريخه الغامض ملتفين شمالا الى جبروه بتاريخها الثقيل، لحظات مرت بين ضلوع المكان، سألته ممازحا: ما رأيك بموسيقى تشايكوفسكي تعطي التفكير حرية التحليق والانبعاث، رد مغاضبا ولم يسألني كيف سنسمعها في سيارته العتيقة بعد ان باع سيارته الجديدة بسبب فتوى حرمت الاقساط جاعلة منها شبهة على المؤمن الاحتراز منها.

مرت بوابة مطرح، زهو التاريخ الموغل في احداث المكان، حاولت

اثارته ليبعد مسافة عن عواصفه، ماذا لو وزعوا ثمن بناء هذه البوابة لبناء منازل للشباب؟ رد: حتى لو فعلوا فان فئة معلومة من الشباب ستحظى بذلك.

تراجع الى دائرته اجتزنا بيت الفلج، لم نحفل بالحي التجاري، انفرط عقد البوح عند صديقي المثقل بكل تواريخه، تساقطت حباته، ومضيت اتبعه القط خيوطا مبهمة لنسيج مختل، بدأنا نجتاز الوادي الكبير مياه كثيرة عبرت الوادي تصببنا مطرحا، ومرات متكررة مضينا صعدا بين افخاذ الجبال السافحة صمتها، وصخورها تتساقط على ارض موحشة.

معالي المتقاعد

حدثته نفسه بما لا يحصى من ألوان الطموح، وساورته أن يذهب بعيدا، الى حد الصدمة.

شغل ليله بصياغة رسالة، قرأها في عمقه عشرات المرات، تغيّرت الصيغ والأفعال والكلمات لتكون أقوى.

تحسس فكرته وصداها، سيطلب مقابلة معالي الوزير، وسيضع الرسالة أمامه، لن يخبر مدير مكتب معاليه عنها، سيتأمل وجه صاحب المعالي وهو يقرأ الرسالة ويقطب وجهه، ثم يطلب معاليه منه التفكير قليلا، ويعده بدراسة وضعه، سيدرك معاليه حينها أن هذا المدير العام ظلم بهذا المنصب سنوات طويلة، سيفكر معاليه بكتابة رسالة عنه الى فوق، سيترك معالي الوزير في قلق من هذه الرسالة التي تهز الوزارة وتجعل الموظفين يتحدثون عنها باعتبارها مفاجأة لم تكن في حسبانهم أبدا، قد يتخيلون أن تلغى الوزارة، لكن لا يمكن للمدير العام أن يستقيل، اعتادته سلالم الوزارة ثلاثين عاما بصفته المدير العام، يعرف كل شاردة وواردة، ولا تهمه تلك التفاهات التي تتردد أن الزمن تجاوزه، يسعى أن يكون شابا، ليس في ذقنه الأنيق شعرة بيضاء، ودشداشته ذات حرير ملون بنفس لون (المصر) وربما الساعة أيضا.

انسحب أغلب الليل والمدير العام ينسج سيناريو خطته القاتلة، منذ كتابة الرسالة/الصدمة الى لحظة خروجه من مكتب معالي الوزير.

في أول الصباح طلب مقابلة معاليه، رد عليه مدير المكتب أن معاليه خارج الوزارة وقد لا يعود اليوم..

صباح تال، معاليه لديه أكثر من اجتماع..

صباح عاشر، معاليه سافر الى خارج البلاد في مهمة رسمية..

صباح مائة، معاليه بدأ اجازة سنوية.

تعثرت الفكرة في ذهن المدير العام، تغيرت الرسالة مرات ومرات، تأتي العبارة مختلفة، ينهض في صباحه على جملة أنيقة، ويأوي الى ليله على كلمة أكثر اذهالا لمعالي الوزير.

يستيقظ على حلم أن يأتيه اتصال:

- ألو، السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- الشيخ ناصر.

- نعم، أنا الشيخ ناصر.

- نبارك لكم سيدي الثقة العظيمة واختياركم وزيرا.

فكّر حينها كيف يرد، يخشى أن تصيبه الفرحة في مقتل، سيقول للمتصل شكرا ويعده أن يكون في مستوى المسؤولية، سيغلق الهاتف ويطير الى زوجته وربما دموع الفرح في عينيه، سيجمع أولاده لأن وضعهم سيكون مختلفا، أولاد معالي الشيخ.. غلبه الخيال، وباغته مئات المرات، الهاتف المنتظر لم يأت، ونشرة أخبار الساعة العاشرة لا تأتي بالخبر السار، ذلك الذي سيقلب حياته باتجاه القمة، ستكون له وجاهة في كل مكان، لن يحمل هم صيانة سيارته أو المرور على محطات البترول، أو حتى قيادتها، سيركب

المرسيدس في المقعد الخلفي، سيشير الناس الى سيارة معالي الشيخ، يجلس في المقاعد الأمامية لحضور الحفلات الكبيرة، واذا سافر ستنشر الصحف صورته بأن معالي الشيخ ناصر غادر البلاد.

مرات، بالطبع مرات قلائل يكتفي بالحلم أن المتصل سيقول له انه اختير ليكون وكيلا، لا بأس بلقب سعادة الشيخ، سيحصل على مبلغ تحسين وضع، وسيارة بي أم دبليو، وسيارة عائلية، ومميزات أخرى، لكن الهاتف لا يلقي اليه بالخبر الحلم، ولا نشرات الأخبار تأتي باسمه بين أولئك الذين حظوا بالتشريف العظيم.

مضى العمر بالمدير العام الا قليلا، التقى معالي الوزير الجديد المدير العام بوزارته، قرأ الرسالة على عجل، وبعد دقائق من مغادرته مكتبه وضع معاليه بقلمه الأخضر كلمات موجهة الى المختصين بالاجراءات المتبعة في هذا الشأن مع توصية بأن يمنح المدير العام درجتين استثنائيتين لتحسين راتبه التقاعدي.

الأفكار قد تراود حامليها

خلّف رئيسه وراءه، وشدّ في الأمام الذي حوّله إلى منعرجات في المبنى الدائري الواسع، سألته جميلة (تحرس بحكم العادة بوابة الدخول على الرأس الكبيرة) عن عقوبته، لم يستجب لصوتها، شعر أنه استحال كائنا هلاميا، قفز فجأة إلى صورة كبيرة معلقة على الحائط، خاف من أن يلحظه أحد، حط على أكثر من رأس وهو يترك ما وراءه يبعد شيئا فشيئا، مربعات الرخام تتساقط سريعة تحت خطوه، مربع مزخرف، بعده وحواليه مربعات لا تشبهه، مربع آخر مزخرف، كرّت الأشياء حواليه، ومضى يتعقب خطواته تتبعه رنة الرئيس..

أصدر الرئيس قراره: سنعاقبك وسنحوّلك فكرة.

ابتسم فجأة، ثم عبس، ثم فكّر كيف سيكون فكرة، انزاح الدرب تحت أقدامه، حين استوى فكرة، ومضى يسحب لا يدري ماهية ما يسحبه، الإنسان الذي كانه أو الفكرة التي يكونها؟! اختال وتخيّل، وقال إنني فكرة، لم يتلفت إليه أحد، ظن ذلك جزءا من لعبة تحوله إلى فكرة، تذكر، أهه!! كانت بدايته على سطح الكرة الأرضية محض فكرة، نزلت على رأس والده فتزوج أمه، وجاءتهما فكرة أن ينجبا سريعا، وخرج دون سابق فكرة عما ينتظره.

ورأى من جملة ما رأى الحاجّة جدته تضع مسحوقا في باطن كفها المعرق، وأحس أن لديها فكرة أخرى تحاول إقناع أمه بها كي يكف عن فكرة الصراخ التي تطارده، تحولت الفكرة إلى آلة ساخنة وضعت على بطنه في أكثر من موقع، ولم يعر أهله فكرة الصراخ أي اهتمام رغم رائحة اللحم المشوي المنبعثة من بطنه.

عندما كبر شغلته فكرة عما أسفل بطنه، ونهره والده مرارا، لكن الفكرة استولت على رأسه حتى شعر أنه تحول فكرة قبل أن يعاقبه المدير، طاردته منامات ما نهره والده عنه، وفي الصباح كان يغتسل عن مجرد فكرة أنثى زارته في المنام، شعر بعرفان للرئيس الذي أحاله إلى اصل الأشياء.

مرق في جماجم لا تحصى، أتعبه السواد المندس وراء الأثواب البيضاء والملونة، حاول أن يكون فكرة حسنة، لكنه مع خطو المحاولة الأولى يركله السائر إلى الأرض، يقفز في رأس آخر، مرة شعر بالزهو لأنه يسكن رأسا تتدلى منه عناقيد حلم، تتماوج فتخفق لتماوجها قلوب وأرواح، اقتلعه مشط عاجي، ووقع على الأرض غير مأسوف على فكرة لم تستمتع طويلا بأريج الحناء والعطور الباريسية، جرب حين جرب جماجم الواقفين في الشوارع الواصلة بين أمكنة مسقط، والفاصلة بين خطوط غير مرئية، لم يكن فكرة تستحق الإقامة أكثر من لحظات، كان يتشاقى بعيدا عن هواجس معتادة، شعر أنه يتأرجح من راس إلى آخر، يقف من بعيد ليشعر بانجذاب تام للجمجمة التي يريد سكناها، لكنه حاول مرات أن يحل ولو لحظة على الرأس الكبيرة، لكنه أهون من أن يرفع بصره إلى رأس رئيسه مدة تكفيه للتماهي والسكنى.

سأله موظف البنك عن اسمه، فقال: مجرد فكرة، أعاد عليه السؤال أنه لا يسأله عن رغبته في الاقتراض فهو فعل ذلك منذ نعومة أظافره، شعر بما يريد المدير قوله، فرد: يا عزيزي أظافري لم تكن يوما ناعمة، تكسرت طلوعا وهبوطا على قامات النخيل، وسحلها ضربا أصحاب الكروش القادمون من البعيد ليعلمونا فن الخوف وألعاب الصمت.

تراجع موظف البنك، وتناوب بعده من هم جلوس معه ساعات النهار، خرج بدون مال.

حاول إقناع زوجته أنه فكرة، والأفكار لا يطلب منها مالا، ولا تذهب إلى محلات بيع المواد الغذائية لتتبضع، سألته إن كانت الأفكار تطارد البنات وتضاجع بالليل فأقسم لها برأس والده أن ذلك صحيح تماما، هو، ولأنه فكرة طاف على محلات سابكو والعريمي والخميس بلازا، وكانت الأفكار تطارد البنات أكثر من الشباب المنافس لهن في الأناقة، وكانت الفكرة الواضحة أو الغائمة هي المضاجعة كهدف استراتيجي حلالا أو حراما، سدت زوجته أذنيها وأدارت له ظهرها، لكن فكرة راودته، وقال إن فكرة راودت فكرة، مسؤوله قال انه فكرة، إذن كلامه صحيح، وغدا سيرى لافتات في مؤسسته تحمل الكلمات التي نطق بها الرئيس حوله، هو يصدق دوما ما يقوله الرئيس.

مرة رأى رئيسه في التلفاز يتحدث عن الأفكار المريضة، شعر بالصداع خوفا من أن يكون إحداها، لأن الرئيس غضب عليه فهو إذن من النوع المريض، في المستشفى قال لهم إنني فكرة مريضة، وفي اليوم التالي كان يجاهد لإقناع طبيب مستشفى ابن سينا أنه فكرة تحتاج إلى علاج كي لا يكون من تلك الأفكار المريضة التي حذر منها الرئيس.

كان يذوي وعيون الرئيس لا تهتم، عينا الرئيس وعيون أخرى تتبع عينيه.

فكرة ذوت،

ثم ماتت.

في كفنه تساءل: لماذا يبكي الناس موت فكرة، أفكار لا تحصى تعدم، شعر بالسعادة أنه ذوى بغصة السؤال.

في قبره، لم يجد وقتا ليسأل.

.. ورأيتني

رأيتني ذات صباح، ككل صباح، أمسح حذاءه الضخم، يقف كالتمثال في مكان محدد أمام المرآة ذات القاعدة الذهبية في مدخل صالة ضخمة، آخر طقوس الجنرال أن أسجد فوق قدميه ماسحا جزمته العسكرية، يستمتع أن أنظفها وهو مرتديها، رغم أنها نظيفة أكثر من وجهي..

رأيت وجهي كما يريده سيدي تماما، ليس نظيفا تماما، يومئ إلى الحذاء الأشد نظافة من وجهي، لا يريد سيدي أن يكذب في ذلك، وعلي أن أحتفظ بهذه المعادلة غير المتكافئة بين وجهي وحذاء سيدي.

يتحرك سيدي قبل أن أنهي تلميع الحذاء كاملا، نظراته أحسها فوقي تتحرك كأنها تحدث عواصف بين المرآة والعينين الجامدتين، يرى نفسه، وأرى نفسي، حتى إذا رأيتني أذوب هوى في حذاء سيدي تحرك كأنه يريد أن يحرمني من متعة التماهي في جزمته، فأكاد أسقط متهاويا متتبعا العظمة التي تشق طريقها خروجا عبر الباب الكبير نحو السيارة التي تشبه نموذجا صغيرا لقصر سيدي.

في صباحات لا عد لها رأيتني أجري كالجرو وراء سيدي أفتح له باب السيارة قبل أن يسبقني إلى هذا الشرف غيري، يلقي لي بعملة ورقية فأقفز كما يفعل الجرو وراء صحن طائر، الإمساك بالورقة صعب خاصة في الصباحات المحملة بالهواء، رأيتني أطير مع الهواء ألاحق ما جادت به يد سيدي، أحس ابتسامته الشمعية وهو يعبرني حين ألاحق الورقة النقدية رغم أني لا أراه وراء

الزجاج الأسود للسيارة ذات الرقم الذي لا يتكرر كثيرا في بلادنا.

يا أمي لو رأيت ما أرى، البوابة الحارسة لقصر سيدي، لقلت إن ثمنها أغلى من منازل قريتنا مجتمعة، ولو رأيت سيدي حين يهبط في حوض السباحة الكبير، لقلت إن الفلج يحتاج يوما لملء هذا الخزان المائي الذي يتشرف بملامسة جسد سيدي، لو رأيتني أكاد أنبح من الفرحة لأني أرى الجسد العظيم أمامي، سيدي دون ملابسه، يا لفرحتي وسعادتي، أحسه يا أمي كأنه لم يخلق من تراب مثلنا حتى وان بدت سمرته أكثر حين يكون كما خلقه الله، أيمكن يا أمي أن نكون مثل سيدي مخلوقين من طين؟!

يا أمي لو رأيتني أرتعد مما رأيت، ذات مساء هبط على المزرعة أقوام أتوا على مركبات أرضية كأنها اللآلئ، أتوا مع أقمار وشربوا ما لم أذقه في حياتي، ورأوني كالجرو أوزع ما أؤمر به حول الحوض، حتى إذا مضى أكثر الليل يا أمي اظلم المكان، ونسوا وجودي، لا أستطيع أن أقول ما رأيت.

رأيتني يا أم أتكوم على نفسي وتتداخل أجزائي، هل كنت أحلم أم الصحو يأخذني لأرى الأجساد تعتنق بعضها كما شاءت لها الرغبة، وتتداخل وفق شهواتها، وأنا أغوص في بعضي حتى رأيتني أذوي وتبقى العينان تحصدان مشاهد لا هي بالحلم فتروى، ولا بالواقع فتصدق.

آه يا أم لو رأيتني في صباح تال كخرقة بالية ملقاة بين زجاجات وعلب فارغة، رأيتني ألقط جسدي قطعة قطعة أبحث عنه بين بقايا البارحة، يدي تحت سجادة، رأسي تحت أكوام المحارم الورقية، قدمي مرمية تحت إحدى شجرات المانجو المستديرة حول حوض السباحة، بقاياي وبقايا العلب وأشياء أخرى تطفو على ماء الحوض ومنها ما تغوص فيه، علي أن أجمع كل ذلك قبل أن يصحو سيدي، لا أدري لم صحوت دون ورقة توت تواري سوأتي على

الأقل، كانت البارحة تتوارى كحلم عابر، وجاء الصحو بأكثر مما أحتمل.

كرت الأحلام في مسبحة نومي، رأيتني مرات أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه، ورأيتني أعب من زجاجات تأتي بها سيارات لا أتبينها من بعيد، ومرات أصير أرضا يمشي عليها سيدي وأنا أضحك كأن حذاءه العسكري وسادة ناعمة، ورأيتني أمسح الحذاء بوجهي، وفي عجلته ينسى سيدي حذاءه ويرتدي وجهي، وأبقى بلا وجه حتى يعود سيدي آخر النهار أو بدايات الليل، وربما آخره، قد أرتدي حذاء سيدي بدلا من وجهي، لكنني يا أم لو رأيتني أرافق سيدي حين يرتدي وجهي بدلا من حذائه، أسير على السجاد الأحمر، وأرى ما لا يقال وأسمع ما لا يحكى.. أعود آخر المساء بوجه استخدم ساعات طويلة أحاول أن اعدل ما أمكنني من انبعاجاته.

ورأيته يا أم يلقمني الحصى فتتحول في فمي إلى قطع سكر، ومرات رأيته ينزع عني ملابسي، ويفتش أعضائي، رأيته في نومي مرات ومرات، وعندما أصحو أجد بقايا مما حدث في الحلم البغيض.

ورأيتني يا أم ككلب أهز ذيلي فرحا كلّما وضع يده على ظهري العاري، وأنبح إذا أخذته نشوة الملامسة، مرة رأيتني أجلس أمام التلفزيون حتى إذا لمحت سيدي في الشاشة الكبيرة رأيتني أهز ذيلي فرحا، وأهوهو مستشعرا اليد التي وراء الشاشة تخرج لتمسّد على ظهري.

لو رأيتني يا أم أكاد أشهق من الفرح لمّا رأيت سيدي يبتسم حين رآني أسير على أربع، ما أسعدني حين أذوب في عشق عبوديتي لسيدي، مرات أصير له البراق حين يحط جسده ممتطيا ظهري، يمسك زجاجة يعبها في فمه ويركل خاصرتي لأسير به، يا أمي، وأنت بعيدة عني في قبرك أشعر بحزنك على كفن استعرناه لتنامي بخرقة جديدة للمرة الأخيرة، يا أمي لا أدري لماذا

تتساقط أحجار على هرم فرحي الزجاجي، وتنتابني مرات نوبات بكاء؟ لم أسأل عينيّ لم تتفجران دمعا، يكفيني من حياتي أن أرى سيدي.

في مساء من مساءات الأحلام رأيته يا أم يدخل أصابعه في عيني، وشعرت بأظافره تفجر ماءهما..

ورأيتني يا أم..

معذرة ، لم أرني، لم أر ،، ولن..........

أثر

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة جناب الاخ المكرم والمبجل منصور بن حمد بن منصور المحترم، حفظه الله ورعاه.

في البداية نسأل عنكم وعن أخباركم وعلومكم في عمان، عساكم تتمتعون أنتم وجميع الأهل والأقارب والجيران بصحة وعافية، ولا تشكون من شيء، اما اذا سألتم عنا فنحن لا نشكو شيئا سوى فراقكم الغالي علينا، وعسى أن يجمعنا الله بالخير في أقرب وقت.

وبعد التحية وبالغ الاحترام بلغنا منكم أن الضاحية الغربية لهلال بن سالم يريدوا يبيعوها فاشتروها بأي مبلغ ولا تخلوا أحد من القبائل الأخرى يشتريها ولو وصلت ما وصلت، ونحاول ارسال المبلغ مع أي شخص يرجع الى عمان في أقرب وقت، كما نعلمكم أن صك ضاحية الطوي وصلنا والحمد لله الشكر واجب على اتمام البيع غصبا عن أولاد علي بن عبدالله، ولو الشور شورهم كانوا ما يريدوا أحد من قبيلتنا يشتري دك تراب، وكذلك وصلنا صك رهن بيت الأيتام لحياة جوخة بنت ناصر، وشوفوها كم تقدر تدفع شهريا، وراعيوها وكما تعرفوا بيننا أرحام وتستحق المراعاة.

وبخصوص زوجتي شمساء فاذا الحت على الطلاق فلا مانع عندي، ولكن خبروها أن السوالف التي تنشرها عني في البلاد تضرها،ص وعساها ترجع الى عقلها، وأنا ما نسيان أنها أم أولادي وصبرت معي على أيام الفقر، والزواج ما عيب والله تعالى حلله، وأنا هنا أحتاج الى الزوجات الصالحات،

ونافعات في الشغل بالمزرعة، واذا كانت شمساء تريد المجيء إلى زنجبار فأهلا وسهلا بها، وولدها ناصر كبر وعنده أولاد، والحياة هنا أحسن عن عمان، وزنجبار فيها خير، وكل العمانيين مرتاحين في تجارتهم ومعيشتهم، وبلادنا عمان أكيد يجيء يوم ونرجع إليها، وما كنا نفارقها لولا المحل وضيق الحال.

وكيف بخصوص أولاد خالد بن سالم؟ عساهم كبروا وعقلوا ويتنازلوا عن دم أبوهم، ولولا هذا السبب لكنت جيت عمان أشوفكم، وعسى الله يغير الأحوال ويجمع شملنا في بلادنا، وحاولوا تقنعوهم يقبلوا ألف قرش دية، وبلغوهم أن الموضوع أصبح قديم، وفهموهم أن الأمر ما كان يصل الى هذي المواصيل لولا عناد أبوهم في سقي ضاحيته من بديدينا في الفلج، وتعرفوا أن أبوهم ما سهل والله قدر والرصاصة ما ضربت في رأسي، وعموما قدر الله وما شاء فعل.

وأفيدك يا أخي أن الله رزقني ولد أسميته حمد على اسم حياة الوالد، وزوجتي الجديدة حامل، وأولادي كبروا وبعضهم يساعدني في التجارة، والحمد لله الخير موجود والمزرعة توسعت أكثر، والسنين خواطف، ومن يصدق أنني من يوم سافرت الى زنجبار صار لي 21 سنة، أما بخصوص خالكم سعيد فأموره كما هي، يتزوج ويطلق، وعنده اربع زوجات واذا رغب في وحدة جديدة طلق من السابقات، وهذه حياته من يوم ما وصل زنجبار، والله يصلح حاله وحال تجارته والله تعالى واهبنه خير، ولو اهتم بزراعة القرنفل كان فلوسه تكفيه مائة سنة.

وفي الختام بلغ سلامي لجميع الأهل بلا عدد، وخص بالسلام أعمامي وأخوالي.

كتبه العبد الفقير لله تعالى سعيد بن حمد بن منصور

في ليلة الثالث والعشرين من جمادى الثانية من عام الف وثلاثمائة وثمانية وسبعين للهجرة.

حكاية فارس

مسّد على ظهر فرسه..

أحس بالدفء يسري واصلا إلى قلبه، فرسه الأبيض، ذو السلالة الكريمة والمحتد الأصيل، فرس عربي له عينان حادتان صافيتان، وخداه أسيلان يهبطان عن جبين متسع، في عينيه يقرأ فارسه ما تيسر من حزن قديم.

يحمل إليه وحدته كلما أنهكه السفر، يجلس أمام عيني فرسه مرتحلا في حدقتيهما، هو شاعر متعب، وهي فرس لها غواية لا تحد، كأنها أنثى تركن إلى صوت القصيدة يخرج من فم فارسها، يموسق الكلمات وهي تستمع هازة جسدها كأنها على موعد مع المتعة، يشعر بحروفه تضيء الجسد الفارع لحصانه المدرك أنها خيط الحكاية.

يداعب الشعر المسترسل على جبين فرسه، ناصية طويلة صافية اللون كأنها تقي عيني فرسه من أشعة الشمس، حين يفيض به شوق الركض كأن الريح تجري وراء شعره الناعم البائن كتسريحة أنثى، تركض القصيدة وراء شعر فرسه الناعم، تنام على صدرها المتسع، وتتوزع أبياتها على قوائمها الدقيقة الجميلة.

أمام عينيها يستيقظ الشاعر في روحه، تكاد أطرافه تنفجر عن قصائد، في ليال منصرمة يصرخ في جدرانه: أريد نصف أنثى كي تكتمل القصيدة، جاءته العشرات منها، ظلت القصيدة عصية على حبرها، لم يكنّ سوى أجساد تستجيب لصوت العواء كما تلقيه براكين الاشتهاء.

التقى فرسه، قاربتهما كيمياء الروح، أحس أن الأنثى لا يمكن أن تأتي إلا

مع خيوط الضياء، هذه التي تقذفها الشمس في صباحاتها، عليك كشاعر أن تمسك بأولها، واجه الشمس، سيأتي إليك فرسك في الشعاع الأول، سيأتيك مجنحا، سيعبر أهداب عينيك وبقية وجهك.. وصولا نحو القلب، لا تدعه يسقط إلى الأرض، احمله لحظة ليحملك العمر كله.

يأتي الصباح إلى الفرس الجموح، فتسكب الشمس أول مقطع موسيقي في أذنيها، يقول لها صباح الخير، فتميل له عنقها المتسق مع الجسد، غير مفرط في الطول أو في القصر، لا يشكو ضخامة ولا تزعجه رقة، رقيق الجلد يأخذ بالاتساع كلما اقترب من الصدر، يداعب عرف فرسه بسواده الحالك، فرسه تحب الموسيقى، صبورة تتحمل المشاق، ذكية لها ذاكرة لا تخطىء.

يدرك الفارس ما لجواده من ثورة للوصول إلى خط النهاية، تغويه أنخاب الفوز، ولذة اعتلاء المنصات، يسابق الريح كي لا تسبقه، يستويان مدا واحدا غير قابل للجزر.

في صباحات اللقاء يجد فرسه متجلية البهاء، تنهض لاستقباله ، يكاد جسدها يبتسم له، يحضنها ويقبلها، يجري الفرس بما أوتي من قوة يكاد يفر من الأرض التي تحمله، أنفاسه تعبر رائحة طيبة تترك وراءها الميدان، والفارس ممسك على اللجام، ممتطيا فرسه الجميلة، أطلقي الرغبة أيتها الفرس، الريح تحرك أقدامك، ثوري لتصلي، لتشربي نخب الفوز، صهوتك محفزة للانطلاق كسهم يعبر المكان، مدهشة أيتها الروعة، حطمي قيودك أيتها الصافنة.

تتكرر الصباحات فوق جبهة الفرس والفارس، والمساءات تأتي بفرسان وأحصنة متحفزة للفوز، حين كانت شمس الفارس تومئ للغروب كانت فرسه تومئ لفارس آخر.

الطريق

وجدته دربا فسرت عليه.

لم يغافلني السؤال دائما عن هذا الدرب المتعرج الذي يعبر تحت قدمي، أشعر مرات انه هو الذي يتحرك وأنا أقف متفرجا، في أحيان نادرة كنت أرغم قدمي على السير فوقه، لعلي أتقدم خطوة للأمام، يا لقهري حين أسير خطواتي باتجاه وجهي فينسحب الدرب تحت أقدامي نكوصا للوراء.

تلفت ورائي كثيرا لأرى من أين يبدأ طرف هذا الدرب، حين أحسه أطول مما ينبغي، فكرت أن أعود للوراء مكتشفا، من أي بقعة يولد؟ لكن السائرين عليه يمنعونني لأسبابهم، أما المتبقي منه فلا أعرفه.

يقول، حكيم ألتقيه وله وجوه مختلفة، إن الدرب طويل جدا، وربما قصير جدا، ستتعب أنت وستقف، ذلك معناه أن الدرب انتهى، الدرب دربك أنت، لكل دربه في هذا الدرب، يحدثني الحكيم عنه بأنه يتحدد بما أستطيعه من مشي عليه، قد تراه طويلا جدا، لكنك لا تشعر متى ينقطع تحت قدميك، حينها يكون الدرب الذي تحتك قد انتهى، قد يمر آخر فوق ذات الدرب، لكنه يمتلك دربه الخاص به، وهكذا يسير الدرب بالجميع، متشابها، مختلفا، طويلا، قصيرا، صلبا، لينا، وما شئت من أوصاف.

مرة خرّ جدي واقعا على الدرب، تذكرت قول الحكيم، دربه انتهى، كان جدي كثير الحكايات، تتناسل من تحت لسانه، مرة حدثني جدي عن جده عن جده أنهم مروا في دربهم بأرض ذات خضار وأنهار، وأن النساء كن كما

يشتهي القلب ويزأر الجسد، والطيور تتساقط على الصحون مطهية اذا أشرت اليهن اشتهاء، فلا تشبع من صبية ولا تفتر عينك عن عصافير المكان، لكن الأفعى زينت الثمرة المحرمة فتغيّر الدرب، صار قاسي الملامح، متغير الأوجه.

يروي جدي نقلا عن سلسلة أسلافه أن الدرب لا يسير على حالة واحدة، تأتيك كهوف تحاصرك بالظلمة، وتمد يديها اليك كالموت يتقاذفك من لجة إلى أخرى، وتراودك صحاري الامتداد المخيف، رملها يتسرب إلى حلقك، يجرح حلقك الجفاف فلا تجد قطرة ماء، وبموازاتك يسير من هم على حالك وأسوأ، ومن هم في نعمة كأنها النعيم، تتبدل طريقاً بعد حين أو أحيان (لا تعرف متى) الى صورة أخرى، وهكذا تتقلب رحلتك، وأنت ماض، قد تتأفف، أو تصمد.. أو تسقط.

سرت فوق قدري على الطريق، يأتي صوت الحكيم كأنه الصدى: ما ان تضع قدمك على الدرب في خطوة جديدة لا تأمن أن تضع الأخرى، مرات تجده خاويا كأنك وحدك السائر، ثم يزاحمك أناس مكرشون يخطفون اللقمة من فمك، تجوع ليأكلوا، وتعرى ليلبسوا، وتبكي ليضحكوا.

أغمض رجل عيني حين عجزت عن الفعل، أغمض رجل عينَّي، قال أحدهم أن أجله وصل، وقلت في نفسي أن دربي انتهى، مروا بي في ذات الدرب الذي سرت عليه لا أدري كم من المرات، يحاذي مجموعة من الحفر، اجتمعت الصورة في داخلي أخيرا، ان دربي كان منتهاه الى حفرة ما، مشكلتي كانت فقط مع الوقت، حيث لم أتبين ما المتبقي أمامي من خطوات.

الظـل

يحكى يا سيدي، وقد آلت الممالك إلى مآلها المستدام، أنه حفر بطن الوادي بيديه العاريتين فألهبت الحصباء جلده فأوهت من جلده، قادته أسطورته إلى حواف المكان، جاءته في المنام على هيئة طير، كان يحلم بحكاية سمعها مرة واحدة لا يدري متى، لكنه موقن بان الزمن لم يسمعه إياها مرة أخرى، ومنذئذ يبحث عن حكايته الضائعة..

تنفست شهرزاد بعمق، ورمقت ظل حكاية في حدقتي شهريارها، كادت أن تنبىء سيدها بما هي عليه من شك لولا أن يقينها عاد إليها سريعا، فامتطت شهوة القص مرة أخرى، وقالت ان الحافر في بطن الوادي استسلم لأشعة الشمس الحارقة فأحس بأن الموجودات حوله تغيب شيئا فشيئا، حتى خيل إليه أن الحكاية جاءته نفس الحكاية، كأنه ابتسم وهو يسمعها مرة أخرى، أنبأته الريح أن هناك من قاس ظله بظل مولاه ، وتراجع خشية أن تدوس القدم الجافة على الظل العالي ، لم يكن كأي ظل ، كان محاطا بقامات ظلال ، أثنى مولاه على بعد نظر قدمه.

في المساء حمل إلى أمه صندوقا من الجواهر ، تلقفت النسوة ظل الصندوق وما حواه ، والبيت البائس باركته قطع الذهب والألماس حينا من الزمن قبل أن يتحول إلى أنقاض من اجل رفع أعمدته الرخامية الزاهية على الخرائط، غادر ساكنو البيت البائس (الذي كان بائسا طبعا) إلى بيت مؤجر

ريثما ينهض قصر جميل تسامع به الجيران قبل أن يروه من بين أطلال سابقه في المكان.

تكدست أرقام في حسابه البنكي، وألقى عن كاهله قرضا كان يقض مضجعه ومضجع راتبه، خطر بين مجايليه يبتسم اكثر في طامعي كرمه ، من استلف منه قرشا أعطاه عشرة ، وحملت مركبته أكثر من عشرة ، واستوى صديقا للمئات الذين زاملهم منذ أول سني دراسته ، وحين يدلف نفس الزوايا التي كان يدلفها حافيا كانت مركبة الدفع الرباعي تدفع الغبار في جوه لا تختلف كثيرا عن قلوبها.

عصرته الأفواه في عصاريها ، ظل شفافا كعادته قبل أن يتجنب السير فوق ظل مولاه ، لكنه ظل ظلا ضمن مجموعة واسعة رغم انه مزهو ، تآكلت الأرقام في حسابه ، والقصر يطل ناقصا ، والأصدقاء كثر، ورغباتهم لا تحد ولا تقاوم، لسبب ما في داخله تسعده تلك الرغبات في نفوسهم ، ويبهجه ما يبهجهم ، ويقدم في سخاء، وفي باله ، وفي بالهم أيضا ، يوم أن تجنب السير فوق ظل مولاه.

حاذر مرارا أن يخطو فوق ذلك الظل ، حتى كاد يتحاشى ظلال الجدران كي لا ينسى حين تأتي المقادير وتدق ساعة الحظ كما ترى الأفلاك ، يعود في ليال لا تحصى إلى والدته يسألها قطعة من ذهب يبيعها لحاجة فتشعر بما هو قادم عليهم وتدس الصندوق في سحارة قديمة لا تفرط فيما جادت به ساعة انفراج شفاه الأفلاك عن حظ ،لم يجد إلا ظلا في حسابه، عاد إلى قصره الباحث عن اكتمال، لم يجد إلا عكازي والده، لهما ظل، تقف عليهما الدجاجات التي كانت تملئ البيت البائس (الذي.......)

قبل أن يصل بظله إلى بيته (البيت المؤجر طبعا) فاجأته أوراق عليها شعارات وأرقام .. ووجه صاحب البيت (البيت المؤجر طبعا).. تمنى لو انه غادر ظله للأبد.

ارتجفت شهرزاد، تأخر الديك عن صياحه، شعرت أنها ظل يستجدي صوتا ينقذ العنق الجميل من حد السيف، نسيت الرجل الغائب في عين الشمس المحرقة تلسعه حصى الوادي، لم يكن في الوادي ظل، ورأت فيما يرى المرتجف أن ظل سيف حام فوق العنق.

جفاف

"انه ملعون"..

عرفت القرية، صغيرها وكبيرها العبارة من فم مطوع القرية، وتداولتها فم عن فم.

"لعنة الله عليه جايب عود"، تحدثت الطرقات المتربة والبيوت الصغيرة والسواقي عن اللّعنات المتدافعة من غالبية الأفواه، خاصة تلك التي غاب عنها معظم أسنانها.

"واا الفضيحة، قاصر علينا العود بعده، ما يسدنا الفسق في الدنيا، يجينا عبود ولد خلفان بن عبدالله بهذا المنكر، وبدل ما يرجع حافظ القرآن والأحاديث يتعلم الناس منه، جاي يعلمهم الأغاني".

صحت القرية كعادتها في الصحو منذ ملايين السنين، واستدرجت الحكاية قبل طلوع الشمس مواصلة حكائياتها حتى موعد النوم بعد صلاة العشاء مباشرة، بأكثر من طريقة قدمت الحكاية مع صحن التمر وفناجين القهوة، عاد عبود ولد خلفان بن عبدالله الى القرية حاملا في يده مغلفا كبيرا له انحناءة، دسه في غرفة طينية تركها مع عائلته حين حلت الثروة الاسمنتية، سمعه الأطفال يحرك أصابعه مرورا على أحبال ناعمة الملمس فتخرج أصواتا لم يعهدوها من قبل، في كل واحد منهم غرس عبود نوتة ظلت تكبر وتكبر وتكبر طوال الليل، وفي الصباح كانت النوتات كبيرة وساخنة،

قادتهم غرساتهم الى الغرفة الطينية مرة أخرى، وقفوا على الباب وعلى الشبابيك يسترقون السمع والنظر، عاجلهم معلم القرآن بالجرم المشهود، وكبرت الحكاية من تلك اللحظة.

«عبود جايب عود» وقال آخر «ابليس، لعنة الله عليه» وعارف خبير بوالده قال انه لا يصدق أن ولد خلفان بن عبدالله يفعل ما فعل، وركن بعضهم الى أن في الأمر سحرا أو عملا يعزى الى حرز.

شعر والده بأنه أصيب في مقتل، تمنى لو أن ولده عبود مات قبل يومه هذا، أحس بمرارة من فقد كل أبنائه مرة واحدة، عبود نجا من الموت أكثر من مرة بسبب الأمراض المتعاقبة عليه، أراده متعلما، بعث به الى عمه في البندر ليتعلم في احدى مدرستي العاصمة.

وحتى اذا حان مساء يوم حلت الطرقات على باب خلفان بن عبدالله، جاء اليه معلم القرآن، وجاء اليه شيخ القرية، وجاء اليه مطوعها، يشكون اليه ما حل في القرية من بلاء حمله اليهم ابنه، قال الأول ان البلاء سيعم البلاد والعباد اذا لم يرجع هذا الضال عن ضلالته، وقال ثانيهم انه سيضطر الى ابلاغ الوالي وطلب سجن عبود، وما أخّره عن فعل ذلك مكانة والده، أما الثالث فذكّر خلفان بن عبدالله بحرمة الموسيقى وأن الاسلام نهى عن سماعها، فكيف حال قرية سيكون فيها عود، كرر عشرات المرات حوقلاته وعياذاته، وأنذر القرية بعقاب سماوي اذا لم تقف كلها في وجه هذا البلاء.

تناثر العود أجذاذا، وفي المساء التالي عاد الثلاثة الى والد عبود يشكون اليه ما يفعله ابنه، يكاد الأب أن يفقد صوابه، ضرب العود بجذع نخلة حتى تناثر قطعا صغيرة، يقول أولهم أنه سمع البارحة صوت موسيقى، وقال ثانيهم

انه صحا من نومه مذعورا بصوت يشبه الصوت المحرم، وتتبع أثره لكن الصوت يخفت كلما تبعه، ويزداد اذا عاد الى فراشه، أما الثالث فقد رأى في الفلج حين استلقى يستحم في الليل أن الماء يأتي اليه بأشكال لها رؤوس منحنية تتراقص فوق الماء، ولها صوت والعياذ بالله من سماعه كالصوت المنطلق من عود عبود.

حامت سنوات على صحاري الوجد في عيني عبدالله، كبر عبود، وبحكم التقاليد أصبح اسمه عبدالله، عاد الى قريته بعد طول عناد مع الزمن، قاعد فوق صخرة كبيرة على مشارف الوادي الغربي يطارد أحلامه القديمة، شجر الليمون هناك حان قطافه وتهاطل بهزة من ساعدي والده على الأرض المنبسطة، تدحرجت حباتها الى ذات الحفرة التي حمل الماء اليها جذاذ العود.

في ذلك النهار الفائت منذ أكثر من ربع قرن استدار الحبل مرات حول جسد عبود الصغير، ربطه والده في نخلة، وانهال عليه بالعصا مرات ومرات، لم يؤلمه الخيزران، تؤلمه أكثر صورة حلمه ينقض عليه والده كأنه يمسك على عدو بغيض، بقيت الأيام في عينيه ترسل نحوه أشباحا، يضرب والده بالعود على جذع النخلة فيحدث صوتا موجعا، تتماسك الأوتار لتربط على نحو ما بين جزئي العود المنكسر، تتسارع الضربات، في كل مرة يتوجع المربوط على النخلة، آوى إليه الظلام كئيبا أكثر من أي وقت مضى، يتخيل عوده يلقي إليه بنغماته في هزيع الليل، نهض من غفوة المنام متحسسا جسد حلمه.. وبكى بحرقة المقهور.

يشعر بالوحشة التي عليها العود وحيدا في الظلام البائس.. بقدر إحساسه بوحشته هو.

تأتيه في نومه كوابيس على هيئة الثلاثة الذين حاصروا حلمه فينهض مفزوعا إلى بقايا العود المتناثرة تحت نخلة، ذات نهار حمل الماء النثار إلى حفرة أعدها والده لفسيلة لم يكتب لها الحياة، يشعر عبود بأن الفسيلة ستحيا، فحين يأتي الماء إلى جسد العود يرى الحياة تعود إليه من جديد الى من فارقتهما.

قام عبدالله يبحث في المكان عن الوجوه، بعضها قضى ومنها من ينتظر، غامت الرؤية وتكادست طلقات الأمس، في سنوات متلاحقة حاول أن يعيد حلمه الى الحياة، في كل مرة يشعر بأن ثمة حبلا يتلوى حول جسده، وبصوت السوط يمزق جلده، وبأشباح تسرق منه أوتار موسيقاه، كبر الصبية الذين استمعوا اليه صغارا وهم يلعبون، الا حلمه بقي صغيرا.. لأنه مات صغيرا.

وقال الحاوي

.. وحين استوى على الكرسي مسّد المجد قامته، وأخذ بناصية من حواليه أن أفيضوا علينا مما أنتجته بلادنا من نظارات ملونة، حتى إذا ضاقت البلاد بصناعتها، سارت الفلك تطلب من الصين حمولتها، وعادت بها إلى جزيرة المستوي على الكرسي.

.. وحين أقبل مساعدوه اليه قبلوا ساعديه (ساعدي المستوي على الكرسي) وأمرهم بتوزيع نظارات وردية على كل مواطن يخضع لسلطة المؤسسة، أما القادمون من شرق الأرض وغربها، الذين يتمسكون بالألوان الشفافة فشملهم قرار غض النظر، وبقوا أياما يتساءلون عن معنى وراء المعنى، لكن الجاثم فوق جوخ الكرسي لا يحفل بالسؤال فكيف به أن يجيب؟!

***

.. وقال رجل: يا سيدي ان الدنيا صارت بعيني وردية، وأن الإسفلت الأسود لم يعد أسود، وأن زوجتي أصبحت أحلى، وكلما طبقت رؤيتكم الحكيمة رأيت الدنيا وردا، فحفظكم الله يا من ترون ما لا نرى، وتعقلون مالا نعقل.

.. وحكت امرأة عن أدوات المكياج التي تساوت في ألوانها، ورجلها الذي بات على غير ما اعتادت، وأرجعت أمر تغيير الألوان على الكساد الذي يعيشه الزوج، المرتدي أبدا نظارة "الأمر" فوق تلك الزجاجات السميكة.

وعاشت البلاد في مجدها المستعاد، بفضل النظرات الثاقبة والنظارات

الأشد إثقابا، وكان القوت يلقى من البيوت فيأكل منه الطير والدواب، التي مازالت ترى الإسفلت أسود، واناثها كما هي دون أن يشملها أمر المستوي على الكرسي.

***

.. وحدث ان اختلف علماء الجزيرة، هل يدفن الرجل ونظارته على عينيه؟ فكبيرهم قال ان الأمر كبيرة، وقال آخر: بدعة، لكن المستوي على الكرسي أفتى بالجواز فدفن الرجل بنظارة ملونة يزيد من ثقل ميزانه، وتهديه الى الصراط المستقيم.

.. وحين سمع كبير العلماء ما سمع، صحّح أقواله وأضاف اليها من الأدلة ما أضاف، وقال انه لم يتبيّن الأمر في الصحيحين وقرأهما ناسيا وضع النظارة الجديدة، وافتى عالم آخر بوجوب وضعها على عيني الحي والميت سواء بسواء، مشددا على أن باب الاجتهاد فتح من أجل ما يستجد من أحوال في الأمة كهذا الحدث العظيم.

***

.. وفي يوم من ايام الله المتعاقبة بلمح البصر، البصر الذي لم تصله النظارة بعد، دخل غريب جزيرة المستوى على الكرسي، فقال عن الأشجار انها كأعجاز نخل خاوية، وأن البلاد ليس بها من باقية ، وأن البشر المغبرين ينامون على الإسفلت الأسود، ولأنه غريب اعتقدوا في عقله لوثة كي يرى ما لايرون، فكذبوا دعواه، واستشاط الجميع غضبا من هذا الذي يسفه رؤياهم، وأشار رجل منهم أن احملوه إلى كبيرنا المستوي (على الكرسي).

.. ومكث في حضرة المستوى أياما طوالا ينتظر ما يرى فيه كبيرهم الغافي على كرسيه، وفي مناماته أمام حضرة الغافي رأى أنه يحمل فوق رأسه وردا

تأكل الطير منه، فتذكر أن الغافي ينام على معجزة أن يبقى أياما طوالا لا يأكل ولا يشرب، فاقشعر بدنه، وخاف ان ينام فتأتي الطير، تلك التي يراها كل ليلة، فتأكل رأسه ان لم تجد ما تأكله، فأخذ نظارة المستوي على الكرسي وأحس بالأمان.

***

وفي الليلة الألف بعد الألف قلب الحاوي دفتره الأصفر، وشعر أن المستوي على الكرسي آخذ بناصيته إن لم يكمل تفاصيل الحكاية، فحزم أمره على استجلابه، وأدخل يده في جرابه لعله يهتدي إلى بصيرة، فخرجت أفاعيه تقص عليه الباقي، كل أفعى تحمل فوق لسانها راويا، حتى تعددت الروايات، ومضى الحاوي يحاول ليله ونهاره أن يعيد الأفاعي إلى جرابها، لكنها تمددت على أسطر الحكايات، وعلى عيونها زجاج وردي، ظن أنها رمت سمها على بعضها البعض، فخاف وهرب، واندلق الجراب على ما تبقى من حيات، لم تجد ما تأكله إلا الدفتر الأصفر، الذي رأينه ورديا فكدن أن يقطعن بعضهن البعض لولا أن المستوي على الكرسي سقط من الدفتر فوجدن فيه ضالتهن.

ود هاشول يصلي!!

ركض فاضول بما أوتي من نفس نحو الجالسين في عصريات قرية البارود، القرية الهاجعة مع نهاية يوم صيفي بين جبال المشرق والمغرب، ردد بلثغته المعروفة عنه: "شفت ود هاشول يصلي!!".

كأنه ألقى جمرة وسط المفترشين حصى المكان تحت الغافة الكبيرة، باغتهم على حين غفلة من أمرهم، يجتمعون يوميا مع مغادرة الشمس لمنتصف السماء، حين تتجه للجبل الغربي، يلوكون الحكايات ويتحدثون في كل شيء، من الدين حتى الجنس، وقد يتحمس أحدهم جالبا "غرشة ديو" على حسابه، يشربونها ثم يتجشأون بصوت مرتفع.

نهض هدوب من غفوته، وأزاح اللوح الكرتوني الملتصق بقميصه بسبب الرطوبة العالية، وسأل فاضول إعادة ما قاله.

قال فاضول: «ود هاشول شفته يخرج من المسجد».

رد هدوب: «يمكن رايح يشرب من ثلاجة المسجد».

حاصره فاضول بجملة أخرى: "شفته خارج من داخل المسجد".

فتح حمدان نصف عين، وكأنه بعيد عن المشهد، تحدث ببرود معتاد: "يمكن سار يشوف الشيخ ان كان بعده في المسجد أو طلع"، ثم أغمض عينيه مرة أخرى، يهرب بوجعهما المؤبد دون الهبوب الحارق الذي يشوي الوجوه، بجانبه عصاه يضعها بين رجليه خشية أن يسحبها أحدهم منه، تحت رأسه نعاله يتوسدها، يسبق الجميع الى ظل الغافة، يفرش الألواح الكرتونية

التي يجمعها من الدكان المجاور لبيته، ينام قرير العين غير مبال بالسيارات العابرة لحدود المكان، فكر حمدان في حكاية ود هاشول طويلا، استرق السمع للحديث المتقافز من لسان إلى آخر.

غاصت الألسن تبحث عن حقيقة ما حدث، وصل عبود إلى الجالسين، لم يكد يهجع اليهم ويضع كمته فوق ركبته كعادته اذا جلس حتى أخبروه بما رآه فاضول، كلهم اشتركوا في حكاية ما حدث، قال عبود أن فاضول يحلم، وتساءل: كيف يعرف ود هاشول يصلي؟! ثم تدارك كأنه نسي شيئا: أقول هذا النور فوق المسجد من هين طالع؟!!

سخر أحدهم مشيرا إلى سحابات تبدو من بعيد باعتبار أن صلاة ود هاشول ستجلب الأمطار، استغفر الشايب حمد، ونصحهم أن يكفوا عن الكلام الفاضي، الشايب حمد يضع عمامة بيضاء على رأسه، وقد يلفها حول رقبته كما يفعل المتدينون عادة، لكنه لا يفارق جلسة العصر تحت الغافة الكبيرة، يحفظ الكثير من الشعر، ورغم تدينه الا أنه مفتون بالنساء، شغلته حكاية ود هاشول طويلا، وفكر فيها.

أكد هدوب الحكاية أكثر من مرة، لكن لم يصدقه أحد، سخروا من قلة عقله ونظره، كان عبود أكثرهم سخرية، قال ان ملائكة الحسنات ملت من ود هاشول لأنها لم تجد شيئا تكتبه له، بوغت الحضور بهذه العبارة، استغفر الشايب حمد عدة مرات رافعا العصا في وجه عبود، ضحك الجميع، قال حمدان: «هذا بو قاصر، ود هاشول يصلي، ويمكن يلبس عمامة من الحين ورايح».

حمدان مازال مغمض العينين، يفتح إحداهما قليلا إذا أراد الكلام، تحدث بهدوء: «يمكن المطاوعة محتاجين ود هاشول يلبس عمامة، ما كأنهم تارسين البلاد».

سأل عبود فاضول الذي خشي من مغبة نقله للحكاية فيعرف ود هاشول بذلك: ما شفته كم ركعة صلى؟ أجاب فاضول بزعل خفيف: أقول أنا ما شفته يصلي، شفته خارج من المسجد.

لم يتركه عبود في حاله، بل سأله ان كان ود هاشول يعرف شيئا من سور القرآن؟! استدار فاضول باتجاه الدكان، سمع التعليقات وراءه بأنهم لا يشربون البيبسي كلهم، وزاد آخر أن "غرشة الديو" اليوم احتفالا بصلاة ود هاشول.

طاشت الضحكات مرات ومرات..

أغرتهم الحكاية بلعبة التجاذب، تبادلوها ككرة مطاطية، ضحكوا وتجشأوا، وفجأة أقبل ود هاشول بنظارته الشمسية، تكاد تخفي نصف وجهه الذي لوحته الشمس، متبخترا قادما إليهم، سكت الجميع فهم يعرفون سلاطة لسانه، تأخر فاضول داخل الدكان عندما شاهد صاحب الحكاية يصل إلى حيث يجلس المعصّرون، خشي من ردة فعل ود هاشول، ربما يرفعه عاليا حتى تصل ملابسه إلى حلقه فيضحك المتحلقون على عريه، أما ود هاشول فسحب قطعة كرتون من تحت هدوب، رماها عليه مرة أخرى بعد الذي شاهده فيها من عرق، سأله الشايب حمد في محاولة منه لكشف الحقيقة: "سمعنا كأنك خارج من المسجد" رد ود هاشول: سألت عن منصور فقالوا بعده يصلي، وأنا مستعجل أريد ابلغه عن الفلج، لازم يدوّر صوار الفلج مع أذان المغرب.

حضور الغياب

باغتني الحنين إليك صغيرتي كما تباغت الغربة مرتحلا على حين دمعة..
لليلة الألف آويت غربتي ووضعتها تحت وسادتي، نامت الوسادة قبلي وبقيت أضاجع الحنين إليك ساعات الليل والفجر..
كأشياء لا تحصى تمر بقرب قناديل المساء، والليل متوهج بحضورك، والليل كئيب بغيابك، والليل.. آه يا صغيرتي لو تعرفين ما معنى الليل إذا جنّ دون نصف القلب وكل الروح؟!
سامرت ذاتي، وغلبتني إذ انفجرت تبحث عن غائب، أقول لها: ريثما يعود، ستتعبه الغربة ويأتي، سيرهقه السفر وسيلقي للريح أجنحته آيبا إلى سيرته الأولى.
سأقص عليك ما جرى في الليلة الأولى لرحيلك:
أنزلت يدي التي ارتفعت مودعة، كنت أود لو أحتفظ بها ملوحة كما هي، دلفت غرفتك/غرفتنا، تمنيت ألف رئة تحتوي كل تلك الرائحة/رائحتك، شعرت بك مندسة وراء الستارة تمارسين شقاوتك، تذكرتك وأنا أجري وراءك بعد لذة اكتشاف أنك وراء الستارة، أقول لك، وكأني نطقتها في ساعة غيابك الأولى: أن هذا ذنب من يحب دون مراعاة فارق السن، أستشعر دفئك تحتضنيني وصوتك يموسقني للمرة المليون: لا تقل هذا حبيبي، نحن متعادلان في السن، ولدنا في لحظة واحدة، حينما التقينا، تباغتني أنفاسك بلهيب ساخن كسخونة الوهج الأنثوي إذا احتد، تبالغين شاعرتي الصغيرة،

لقد هرمت حروفي وأنت تتوقدين عذوبة.

صغيرتي: للعمر ألف باب، أغلقت كل أبوابي وترقبتك حتى مطلع الفجر، كل ليلة لها فجر، وكل ليلة لها ترقب، لا يأتي النهار بك، تلك الشمس ضنينة لتفتح أمامك طرقات العودة، كل تلك الأشعة ولا تقتنعين مرة بمسار الإياب؟!

كعادتي/كعادتك.. ملأت الآنية الزجاجية الصغيرة بزهرات الياسمين البيضاء، طفت على سطح الماء بهية وحالمة كأنها تزيّن فستان زفاف أبيض، على طاولة غيابك وضعت حضورك كله، وتركت أول الحروف على طاولتي الصباحية، مرهقة مثلي، تكاد تغفو، تشعل حنيني وتزيد مرارة قهوتي، تدركين صغيرتي أن لك رائحة القهوة، كل صباح كنت أشعر أنك قريبة مني كلما تناولت فنجان قهوتي، أشم أنفاسك، هذا الصباح أدركت السر، فرحت به، تنفست الرائحة بكامل طاقة رئتي، صرت أسميك قهوتي، وصار للقهوة اسمك.. وحضورك.. صغيرتي.

أمامي الفنجان الذي تغامرين بقراءته لي رغم معرفتي بأنك لا تجيدين قراءة الحظ، لكن إحساسك يجعل الأشياء المستحيلة ممكنة..

وفي الفنجان قطعتا سكر، بقاياك في شفتي..

ولك رائحة القهوة، ولك كامل الحضور، قهوتي الصغيرة.

بعينيك الصافيتين تقرئين حروفا أبقتها القهوة في قاع الفنجان، تقولين: بصرت وفكرت كثيرا لكني لم أقرأ فنجانا يشبه فنجانك/ أحزانا تشبه أحزانك.

أطلب منك حروفك، أغار من حضور نزار قباني في فنجان قهوتك، لا أدري إن كان صوتك هذا أم هو توهمي يزيد همي؟

أزحف وراء الانتظار، كطفل يتعلم المشي، وحيدا للمرة الأولى، خطواتي مرتبكة وثقيلة كأن الأرض تبتعد من تحت قدمي، والانتظار يسير واثقا من

بقائه، يحتلني، والنافذة لا تعطي إشارات حضور، ثمة غياب يقبع وراء النوافذ ليحرمنا من متعة الأمل في أن هناك من يعود.. نقول: لزاما سيعود، وترد النوافذ: من غاب لن يعود.

البارحة، تلك البارحة التي جاءت أمس للمرة..... لا أذكر جيداً، تشابهت الأيام في حدقتي، جاء صوت أختك باكيا: هل من جديد؟

لم يفاجئها صمتي، اعتادت عليه كأسهل رد لأصعب سؤال، أتمنى لو أستطيع محادثتها أكثر، لها رقة ما من صوتك، كبرت كثيرا، أكثر مما تتوقعين، تلك المرأة التي ذاقت مرارة كراهيتي لها منذ نصائحها الأولى، أكاد أسمع كلماتها: لا ترتبطي برجل أكبر منك، الرجال غدارون، الشعراء يكذبون، مهنتهم اصطياد الصغيرات يوهمونهن بأنهم سيصنعون منهم شاعرات عظيمات.

صغيرتي، أراك في ذات الثوب الذي فاجأتني به حين أتت بك قصائدك الأولى، شعرت أنني الحب المضاع في حروفك، قرأتها كأني ذلك المعشوق الذي تخاطبين، لم تكبري في عيني منذ تلك اللحظة، خفت عليك من جنوني، تنمو له غابات حين يصعد إلى رأسي أكثر، وأنت طفلة صغيرة لم تكملي نصف عقدك الثاني، باغتتني إصرارك على أنك كبيرة ولست طفلة كما أتوهم، حاولت أن أسحب أربعينياتي من أمامك لأكون أنا الصغير في عمري.

زدتي ثلاث سنوات وحاولتي أن تكوني أكثر، وسعيت أنقص من عمري ثلاثا كي يكون الفارق أقل، تدركين صغيرتي كم تمزقت حينها، أريدك بقربي عاشقة /حالمة / سحابة / عطرا، لكن أنوثتك لا تصلح للعب دور الزوجة، اسم غريب عليك، كان لا مفر منه، حاولت مداراته عن ذاكرتي لتبقين العاشقة/ الحالمة/ السحابة/ العطر.

مرت المواعيد كثيرا قرب نافذتي، صرت أواعد حضورك مسندا ذراعي

على حاجز النافذة، كشاعر ينتظر قصيدة تلوح لها بيديها وتصعد إلى غرفته كي يضعها على أوراقه، شقيت بذاكرتي وتوسلتها أن تبقيني في أوهام وجودك، أجلس إلى الطاولة وأشعل شمعتين، وأقرأ قصيدتين لأنك لا تكتفين بواحدة، تتلذذين بأنك كل الحضور وأني شاعرك لوحدك، أطلب منك أن نتبادل الأدوار، تضحكين بشقاوة صبية حالمة، يهمس صوتك: أشعر أنني تلميذة بين يدي أستاذها تقرأ له شعرا، كما كان في زيارتي الأولى لك، وأنت عاشقي وأنا عاشقتك، كلانا في عمر واحد، أقول لك: اذن إقرئي حروفك لنكون ضفتي قصيدة عمودية.. كم يبدو الشعر نهرا وشلالات ضوء حين تقرئين.

لوحت بيدي في مساء ما، مودعا فراشتي الصغيرة.

لم أدرك أن قدر الفراشات يطير وراءهن، لا أصدق أن الغياب يطول، يتمدد كخرافة، تقول الريح مرة أنك هاربة وراء أحلامك، ومرات تروي لي قصة موتك كأسطورة لا أتبين ملامحها، أو لأني لا أريد تصديقها، وهكذا، في كل ترقب تلقي الريح على نافذتي حكاية مختلفة، تصوري أنها مرة قالت لي إن البحر مر فوق حبرك، تخيلك قصيدة، وعندما انسحب الموج حمل معه حبر الحروف، لا أصدق الريح كثيرا، حينا تحكي عن قمر سريت إليه متعلقة بأشعته، وأحياناً تتحدث عن لوحة مارست غواية اللون فذابت في الأفق.

في الليل، تخيلي أن ذلك يحدث كل ليلة، أبقيت الباب مفتوحا، والنوافذ مفتوحة.. وعيوني أيضا.

كمن فقد ظله

سرت متخففا من ظلي، هذا الصباح بالذات ورغم أني صحوت في الظل الا أن احساسا داخلني بالخفة، أكتشفه الآن لوحدي، فحينما باغتتني الشمس كعادتها لم تجد لي ظلا، تنبهت متأخرا الى أني فاقد ظلي.

عبثا نظرت في عين الشمس أن تعيد إليّ ما فقدت.

مرة أقول في نفسي أن المرء حري بأن يسير لوحده بعض الوقت، وأحيانا أعود إليها وأعاتبها على غبائها، طوال الليل أسير دون ظل، ولم يبق لي الا النهار، وفقط حين أمشي تحت شمس بلادنا الجريئة، تلك الشمس التي تنسكب على الجسد الواقف فتجعل من ظله ثقيلا وكأنه جسد آخر يسير على الأرض لولا سواده، لذا فان أهل مدينتي ثقيلو الظل، ومتمسكون بظلالهم على الأرض، فترى الواحد منهم لا يرفع رأسه عن ظله إلا لماما، ربما حتى يتقي الاصطدام بشيء، وتحت الوهج يبحثون عن ظل يمنعون به الشمس المحرقة أن تصل إلى رؤوسهم ، لكن ظلالنا عنيدة، حين تشتد الحاجة إليها لا نجدها إلا تحت منبت الأشجار والحيطان مباشرة، حاسدة لا تريد لأحد الاستفادة منها.

طوال النهار سرت، وجئت..

أحدث في نفسي: بعد قليل سينبت لي ظل، ومرت أيام لم يفطن أحد إلى سري، لكن أولاد الحرام لا يفوتهم شيء، خلال أسبوع لم يبق أحد في سمائل لم يسمع بالحكاية، انتقل الخبر من فم إلى فم، وذهبت إلى مستشفى المدرة

أشتكي من غياب ظلي، ضحك الدكتور المصري وكاد أن ينقلب على بطنه لولا أن الممرضين والممرضات تدافعوا عليه، ووراءهم المرضى، لم يكونوا يدركون حجم مأساتي لأن الشمس لا تحب مستشفى المدرة، سخر أحدهم قائلا: "سووله أشعة"، وقال أحد الشياب: "حال موه جاي باه؟ عله فيك سبه؟" فطنت إلى إشارته القبيحة، ينعتني بالشذوذ لمجرد أنه ليس لدي ظل.

إذا تنازعت مع أحدهم صرخ في وجهي قائلا: يا عديم الظل، وإذا غضب أحدهم علي ذكرني بقوله: لو فيك خير كان عندك ظله كما الناس، وقد يقول أحدهم: حتى الدواب لها ظل، وأنت محروم حتى من هذه النعمة..

يعني أنني كنت في نعمة وفقدتها، ربما لم أشكر الله عليها فرفعها الله عني، يعني أن هؤلاء يعيشون في نعمة، وسيعرفون قيمتها فيما لو فقدوها.

وصلت أخباري إلى أقصى الباطنة والشرقية وبقية أرجاء البلاد، وفي كل بلد تسير حكاية ما عن الرجل الفاقد ظله، حكاية تقول أنني فعلت كذا وأخرى تتهمني بأن اللعنة أصابتني لأنني..... استغفر الله، لا أستطيع قول ما يقولون، إلا أن أردد "حسبي الله ونعم الوكيل".

قالت امرأتي أنه لا يليق بزوج أن لا يكون له ظل.

بداية خافت من النوم بجانبي، كأنها كانت ترى ظلي حين أنام بجانبها، متذمرة وخائفة من أن أورث حالتي إلى أبنائي،

فكرت بداية أنها مؤامرة، أعرف تكتلات الزملاء، ربما أحدهم وشى بي، وترصد آخر ظلي ليسرقه، كنت محسودا عليه، يقولون إن ظلي كبير، أكبر من كل الظلال البشرية، غمزني أحدهم بالقول إن ظلي يبدو وكأنه لا يمت للبشرية بصلة.

تداول البشر قصة ظلي، وتدوّلت، تناقلتها صحف العالم، يتحدثون عن

مفقود، سألوني إن كان جدي الأكبر له علاقة ما بإحدى الجنيات، ورسموا خارطة وراثية وغذائية وأشياء كثيرة لا تحكى.

ذات يوم صدر قرار من هيئة حقوق الإنسان بمنحي ظلا فخريا يعوضني عما فقدته من أولويات حقوقي الإنسانية..

يا للهول: كيف اشرح ذلك لجيراني في القرية.. هم لا يفقهون إلا رؤيتي أسير في الحارة بدون شيء أسود يسير معي، انتهت كل مشاكل الدنيا ولم يبق الا ظلي، كنت أحتاط قليلا واسير بجانب الجدران مباشرة وأختار الأماكن الظليلة، لكنهم يفتشون عن ظلي داخل الظل، قلت لهم أن لي ظلا فخريا، ضحكوا كثيرا، وسألوني عن لون هذا الفخري الذي افتخر به.

أيام قليلة، أطلقوا علي لقب راعي الظل الفخري، وإذا سأل أحد عن أولادي، قيل له إن هؤلاء أولاد راعي الظل الفخري، يتندرون بذلك، "اللي ما عنده ظل" يرد عليه الآخر "عنده ظل، بس فخري"، يضحك الآخر بخبث شديد "يعني لو كان الظل مؤنث كان يطلع فخرية".

صرت أتشاءم، أصاب بإحباط أكثر عندما أشاهد قطا له ظل كبير، خاصة في أول النهار وآخره، "السنانير لها ظل"، نسيت العالم ولم يعد لي هاجس سوى ذلك المنحدر من بداية أقدام البشر والحيوانات، وجذور الأشجار، اصبح العالم في نظري فكرة ظل، تكون أو لا تكون إذا لديك ظل، قد تتحول ظلا، وفقط.

لا أحد يستحق القتل

اختلى بنفسه، فكر وقدر الأمر مرات ومرات، طرح على نفسه السؤال الوجودي: لماذا أنا موجود؟!

ألقى السؤال من داخله نحو داخله، لم يسمعه حتى هو، استدار أكثر من مرة خشية رقيب ما، لم يلمح أحدا، أخرج السؤال مرة أخرى، ربما للمرة الألف، الأيام متعاقبة بذات الأرق، يكدح فيها ليل نهار دون اختلاف بين يوم وغد، قبل نحو 16 عاما غادر بيته إلى الرسيل عاملا في احدى شركاتها، فرح بالمائة وخمسين ريالا ، الآن وصلت المائتين، لكنها تصله مائة فقط، نصفها لبنك مسقط، جاره غير البعيد في قريته، يدفع اليه ما يشبه الأتاوة منذ راتبه الأول، وبعض نصف المائة الآخر (للنول) متنقلا بثلاثمائة بيسة ذهابا ومثلها ايابا، وقد يصادف أحد أبناء قريته (فيتجمل) فيه بنقله مجانا، أو يوهمه بأنه لم يفطن له واقفا على الرصيف في عز الصيف.

لماذا أنت موجود يا عبود؟! سأل عبدالله نفسه ذات السؤال، أقنع نفسه بصعوبة العيش على هذا المنوال الكئيب، لا أمل في حياة براتب متكامل، ولذا فهو لن يتزوج، ولن يجرب الجنس لا بالحلال ولا بالحرام، وسيعيش عازبا ويموت عازبا.

صحا ذات صحو على قرار أنه سينهي حياته التعيسة، فكر وقدر مرات ومرات، كعادته حين يباغته أمر ما، ولما لم يجد الطريقة المناسبة لذلك أجل الأمر الى فرصة تفكير أخرى، خطر له أن يلقي نفسه أمام شاحنة حين

يقف ذاهبا أو عائدا من الشركة، وجد الدية جيدة، سيستفيد منها اخوته الصغار، تخيل منظره مهروسا، «أوووف".. صرخ بالكلمة بقوة، طرد الفكرة، يريد موتا رحيما، شجاعته لن تكفيه لتنفيذ الفكرة، لا بد أن يساعده آخرون.

خنقته الحرارة في ظهيرة يوم، انتهى من عمله في الساعة الخامسة، والخامسة في يوليو كالواحدة ظهرا أو هي أشد، وقف نصف ساعة، لا أحد يقف له، هو جائع ومرهق وخائف من السقوط، كمن غشيه موت ركب الميكروباص، ملقيا جسده الى مساحة صغيرة جدا بين ثلاثة هنود في آخر المقاعد، الرائحة لا تطاق، عاد إليه التفكير مرة بعد مرة، لا بد من إنهاء الحياة، مرت عليه الجفنين، قال في نفسه سأقتل أحدا، حينها لن أنتظر أي تعذيب لأعترف، سأقول للضابط: يا سيدي الضابط أنا قتلته، سيسألني: من قتلت؟ عاد إلى نفسه، نعم، من سأقتل؟ خطر له الشيخ، شيخ القرية، رجل لا معنى له، رجل ساقته الأقدار ليكون شيخا كما ساقته هو ليكون موظفا في شركة، يراه كل يوم يتبختر بكرشه الممتدة ولحيته الكثيفة المغطية لنصف صدره، سيكون الموت أكثر صخبا، سيخلص القرية من هذا البلاء، يعرف أنه يرتشي ويسرق مال المسجد ويكذب وينافق، وجد ضالته أخيرا، وصل إلى محطة البترول على ضفاف (الجفنين)، يضغط السائق على الفرامل بقوة لأنه شاهد باكستانيا يرفع إصبعه موقفا الميكروباص، لكن سيأتي شيخ آخر لن يقل عنه سوءا، أولاده كثر، وهم سطحيون وأغبياء، والأسوأ أنهم متغطرسون كبالونات منفوخة هواء.

يشعر أن الشمس تزداد سطوعا، وفجأة تختفي ليدخل في سواد مؤقت، يعود بعدها الى ما يشبه الصحو، دخل بين جبال ما بعد "الجفنين"، حدثته نفسه، وفي لحظة صحو مفاجأة أن يقتل امام المسجد، سيريح الناس منه،

رأى اختياره موفقا هذه المرة، يستحق القتل أكثر من الشيخ، فالامام يتخفى وراء ستار الدين، يجلدهم بخطبة عصماء كل جمعة، الناس يتثاءبون وهو يستمر في تكرار نفس الجمل المتوارثة، لا فائدة منه، من هو هذا الشخص الذي يصعد الى المنبر بدشداشته القصيرة ولحيته الطويلة ويلقي اليهم ذات الكلام وكأنه غالق أنفه، سينتظره غدا وسيضرب به على رأسه متخيلا الدم يختلط ببياض عمامته، لن يخدع الناس الذين لا يعرفون حقيقته، تدارك مفكرا أن الناس يعرفون حقيقة بعضهم البعض لكنهم متواطئون على النفاق، يترك زوجاته الثلاث مختليا في بيته الجديد مع زوجته الجديدة، على كل واحدة منهن اطعام أولادها، متخصص في الزواج من مدرسات، ويحرم العمل في غيرها من المهن بحجة الاختلاط، تراجع عن فكرة قتل الامام، الناس يحتاجون الى من يمارس عليهم هذا الدور، لحظات وهبت عليه الفكرة مرة أخرى؟؟

ماذا يحصل اذا قتلته؟ تساءل والسيارة تقترب من السيح الأحمر، لن يحدث شيء، أجاب نفسه، سأريح زوجاته وأولاده منه، سيريحهم من كلمة حرام، كل شيء حرام، الموسيقى حرام، كرة القدم حرام، مشاهدة التلفزيون لغير البرامج التي يظهر فيها هو وأشباهه حرام، عطر المرأة حرام الا ليشمه زوجها، عليها أن تستأذنه في كل صغيرة أو كبيرة والا لعنتها الملائكة.

باغت نفسه: وأنت من لتنصب نفسك مصلحا وعارفا؟، من حيث لا يدري جاءه صوت وهو بين الصحو والغياب: مت كما تشاء واترك الخلق للخالق.

على جانبيه فضاءات السيح الأحمر، مقتربا من فنجاء، مرت عليه وجوه كثيرة، يرغب في أن يوصله أحدها للموت، لا يمتلك الشجاعة ليقتل نفسه، ولا يريد الاستمرار عبدا للحياة، فكر في المجتمع المحتوي على تورمات كثيرة، مثلا جاره الذي يزحف بكرشه الكبيرة كطبل أجوف، يظن نفسه أنه

خلق عظيما، كرر بينه ونفسه أن ثمة شخص أوهم هذا أنه انسان، وربما أرفع درجة، مثل هذا لا يحتاج إلى أكثر من طعنة سكين في كرشه، فتندلق دفعة واحدة على شارع القرية المسفلت، حدث لن ينساه أحد، ستتحدث عنه عمان، وستكتب عنه سبلة العرب.

وقف الميكروباص بجانب الشارع الفرعي الداخل الى فنجا، نزل شركاؤه في المقعد، أحس ببعض الارتياح، الشمس تغرب في عينيه، نظر اليها برهة، شعر بالسواد يدخل الى عينيه أكثر فأكثر، شعر أن السيارة تتحرك، صعدت مرتفعا ونزلت من آخر، يخيل اليه أن أشخاصا يجلسون بجانبه، ثم يتركونه مودعين السيارة، جاءه الصوت مرة أخرى: لا تحتاج الى قتل أحد، سدد سهامك الى عمقك، لن تشعر بألم، ستموت كما تموت العصافير.

في خاتمة الطريق أوقف سائق الميكروباص سيارته بجانب بيته، جمع الأوراق النقدية من فتحة ازدحمت بقرطاس "له قيمة نقدية"، تأكد من اغلاق النوافذ جيدا، كأن شيئا لم يحدث.

بيت «خاص» جدا

السهرة حلوة، والمكان "وناسة"..

يعبر دوار برج الصحوة يوميا بعد الثامنة مساء، يذهب إلى هناك، حيث السهرة حلوة والمكان "وناسة"، نصف ساعة بالضبط يقطعها بين مشهدين: برج الصحوة والبيت البسيط كبساطة سكانه.

ساكنو البيت ليسوا كثيرين، هم أربعة، ضيوفهم كثيرون، يوميا يأتون اليهم، بعضهم يمتلكون معرفة سابقة، والآخرون يرافقون النوع الأول من الضيوف، الضيوف الذين لم يعودوا ضيوفا.

البيت أشهر بيت في الحارة، مكون من غرفتين يقتسمهما الأربعة، وأمامهما "ليوان" طويل يصل طرف الغرفة الأولى بآخر طرف بالغرفة الثانية، ينطوي على أسرار لا تحصى، يدخله أناس بسطاء و"محترمون"، أصحاب مناصب ومراتب، يجدون في هذا البيت خاصية قد لا يجدون لها تفسيرا، مرح وضحك وكلمات تخرج بتلقائية فلا يزعل منها أحد، يثق الضيوف "المهمون" في أنهم ليسوا خارجين عن القانون حين يأتون هذا البيت، هم لا يرتكبون ما يلاحقهم به القانون، فقط من أجل حياة خارج اطار الحياة المتعارف عليها خارج هذا البيت.

مرت سنوات، باعدت بينه وبينهم، ذات مساء، أتعبته حياته، ذهب إلى هناك، ومعه شجون الذكريات التي مضت، بأربعتهم يلوحون أمام عينيه، وضع توتره جانبا، وتباعد عن سيارته باتجاه جرس البيت، وجد باب البيت مغلقا، ضغط على الجرس كثيرا، الظلمة وحدها ساكنة المكان، وجدران البيت العتيقة، خيل اليه أنه يسمع صوت ناصر يلاحقه: "هينك الغالي، عسى ما زعلان، المحبة في القلوب ما في الدروب"، يعود إلى سيارته، ويمضي، حزينا كأن البيت كله مات دفعة واحدة.

بعد الثامنة يلتقي الساهرون في "حوش" البيت، يكون علي، أو علّوي وفق اسم الدلع، قد بدأ في تهيئة المكان، أما ناصر، ودلعه ناصور أو نويصر، فهو المتخصص في الخبز، كل يوم يجلس مقابل "الطوبج" يفرش من لقمة العجين بيده دائرة على الحديدة الساخنة فيأتي الرغيف شهيا، يتبادل النكات البذيئة مع الضيوف، الضيوف المحترمين أصحاب المناصب والرتب، وأولئك الصغار الطامحين، بينهم اتفاق سري، البذاءة لا تعني عدم احترام، هناك حب خفي.

يعود أدراجه صوب بيته في القرم، يغالب تشتته ووحشته، مر من هنا كثيرا، لكنه يعود اليوم على نحو مختلف، فقط لأنه رأى باب البيت مغلقا، غاب عنه الباب سنوات، لكنه بحاجة الى تباعد ضلفتيه اليوم، لو لم يذهب لبقي على أمل ما.

تناوشته الليلة الأخيرة، حاضرة بقوة الحضور، لم يهدم صرحها الغياب،

جاءت الذاكرة بقسوة التفاصيل، ابتسم أمام لوحة باغتته بألوانها.. تذكر حينما بقي على طريقه دقائق حتى يصل الى البيت "الخاص جدا"، يضغط على دواسة السرعة كأنه يلحق بأمر عاجل، كأن هناك من يطارده، ينفخ وراء مقوده، الطريق مزدحم، يبدو أنه مغلق لسبب خاص أيضا، يحتاج الأمر إلى نصف ساعة على الأقل حتى يصل، تذكر البيت "الخاص"، حين يقول هذا الوصف أحدهم يضيف اليه فورا: لو سمحت، الخاص جدا، يضحكون، ويضحكون، تذكر خالدا وسعيدا، أو خلود وسعدون كما يسميهما الجميع، هما مشغولان يوميا بطبخ المرق، فاصوليا أو فولا أو عدسا، وربما "معصورة عوال" هي القوت اليومي، يجد الأربعة متعة لا تضاهى لتلقي هذه الزيارات يوميا، كأنها رسالتهم في الحياة، رواتبهم قليلة، وديونهم تتصاعد، لكن الحال مؤنس، يجلس الجميع على الحصير النايلوني يدخنون ويشربون الشاي، وهناك التمر والقهوة العمانية، ينهض ناصر، أو "ناصور" كما يسميه سكان البيت الخاص وزائروه، يتثنى بمشيته الأنثوية، تتساقط من لسانه بضع تعليقات تثير ضحك الجميع، يسأل:

"عيل هين خطيبي"؟

يحب ناصر استفزازه، يلعنه فورا، ناصر يسحب جسمه سحبا، قصير وكرشه تمنحه مظهرا سمينا، هو ليس مثل وسامة خالد، هذا الخلود قادم من أقصى منطقة الباطنة، من عائلة كبيرة، طرده أبوه، له جسم رشيق ويتدلى شعره فوق كتفيه ناعما كنعومة مشيته، وله عينان صافيتان، دائما يسمع تعليقات الساهرين،

"ما يصخابك" ويرد عليهم "ايش اسوي؟ الله يلعن ابليس ضحك عليّ".

أما خبير العوال، سعيد، خبير الفاصوليا أيضا، فيحوم حول أي ضيف وسيم، يغدو كالفراشة حول مصباح باذخ الضوء، يتعرف على الضيف بسرعة، يأخذ أرقام هواتفه جميعها، لكن بعد انتهاء السهرة لا يعود يتذكر سوى أهله الذين يتمنون لو لم يخلق أصلا، ما زالت آثار الحروق على جلده، ضربوه كثيرا، وحاولوا قتله، تركهم، وجاء إلى هذا البيت، سنوات طويلة عبرته كما عبرت هذا البيت، يعمل في أحد مطابخ المؤسسات الكبرى، ينسى دموعه حين يواجه الناس، يضحك كثيرا، ويثيرهم بأنثويته.

نظر في لمحة أخيرة إلى البيت عبر مرآة سيارته العاكسة، يسأل نفسه إلى أين يذهب كما هو السؤال: إلى أين ذهبوا؟، هل عادوا إلى منازلهم الأولى وتركوا البيت "الخاص" جدا؟!

قبل أن تنطفئ الأمسيات، دخل إلى الجلسة، شاكسه ناصر كعادته، صمت أكثر مما ينبغي، ونظر إلى سكان البيت وضيوفه أكثر مما يجب، حامت حول رأسه صور متنافرة، قال له أحدهم "ما شي حلة تخلى من علة" أوغل ناصر في استفزازه، قال له: تعال اسكن معنا، رد بغضب مخيف: وهل أنا "خـ....."؟! يومها بكى ناصر، بكى كأي امرأة فقدت كل أولادها مرة واحدة، تحولت السهرة إلى غم خيم على أرض البيت وسمائه، وتمدد على كل حيطانه، أغلب الضيوف لا يعرفون ماذا داخل البيت، تقتصر جلستهم على المساحة المفتوحة في حوش المنزل، حتى خالد بكى، سقطت كمته

من على رأسه، رأوا كم هو جميل شعره، لكن خلود في تلك اللحظة لم يكن مثلما عرفوه، كان بائسا، انسحب الأربعة إلى خدمة مجالسيهم، ذهب ناصر يتناول ماعون العجين، وبدأ يخبز.

نهض من بين الجالسين، ذهب إلى حيث الموقد، جلس إلى الطوبج، طلب من ناصر أن يعلمه كيف يصنع خبزة.

مرت السنوات.. عبر برج الصحوة في الاتجاه الآخر، كان المشهد متجليا في ذهنه، الخبزة المحترقة، ودموع ناصر التي اختلطت بدموع لها نكهة أخرى، عينا ناصر الطافحتان بالدمع، الصافحتان عنه، آخر ما يتذكر من بيت "خاص" جدا جدا.

إضـــــاءة:

كلمة "عيل" تأتي في المحلية العمانية بمعنى اذن، و"هين" تعني أين.

الطوبج: هي الحديدة الدائرية التي يخبز عليها وهي ساخنة.

عري

خلع عليها ثوبا حريريا من الكلمات، فرأت عمرها من فاصلته الأولى إلى الأخيرة في ستر أبدي.

غرفة مبعثرة ينقص مكوناتها التهذيب، وسرير يتثاءب، ألقى القطعة الأولى عن الجسد، سترها بقبلة طويلة، يداه تعبثان بأزرار لتباعد بينها والثقوب التي كانت تطل منها برأسها إلى الجانب الآخر، خلع عنها جسدها قطعة فقطعة، وفيما يروى أنه كان يضع كلماته الندية مكان كل قطعة قماش ينضيها عن الجسد المحمل بالطيب..

وهي تغادر الشقة شعرت أنها خلعت روحها وتركتها وراء باب الشقة التي وراءها، مستشعرة الألم في الجسد والروح معا، وفي أزمنة الخواء كانت تحتاج إلى كلماته ترتق بها ثقوب حياتها، لتستر ما تبقى..

أحست بطول المشهد الذي تؤديه في مسرحية عاشق، أرادت اكتمال المشهد بسرعة، ناشدته إسدال الستارة على مسرحية طال عريها..

لكنه في آخر المشهد خلعها كامرأة.

كآبة

كلما ذهبوا به إلى المقبرة الواقعة على خاصرة القرية عاد إليهم، وفي المسافة الفاصلة كانت الخشبة ترتفع به فوق الأعناق ذهابا، والإياب موحش حيث كفنه يسير معه وحده.

في المرة الأخيرة حملوا نعشه وذهبوا كما اعتادت أقدامهم، لم تكن هناك مقبرة، فتركوه يغط في موتته، وحين عاد إلى القرية لم يجدها أيضا..

ظل عقودا يعبر وحده المسافة الفاصلة بين كآبتين.

ثلاثة جنرالات

سأل الجندي عن الأمر المستحيل الذي صعق في أذنيه، رد عليه الجنرال الأصغر بأنها أوامر الجنرال الكبير، وهو الذي يتلقى أوامره من الجنرال الأكبر..

أراد الراوي الإفصاح أكثر لولا الرقيب الجالس حول حدود الورقة، تلعثم قليلا وأكمل الحكاية:

حاول الجندي دهرا أن يزحزح الجبل من مكانه حسبما أملته الأوامر، الصخور جوامد لا تتحرك، والجنرالات الثلاثة يلحون أن يفعل كي تستوي الأرض عن حدائق من تين وعنب، فتوصف بأنها الإنجاز الذي يشبه الإعجاز.

قال الراوي قبل أن يستسلم لنظرات الرقيب الحادة كمقصه أنه وحين أعجز الجندي الأمر هرب من الخدمة.

حياة الرئيس

جافاه النوم طويلا، وانحرفت الساعات عن مواقيتها لتلحق بتابعاتها، يحاول بجهد أن يغمض عينيه لولا صورة المسؤول التي تقفز داخل مقلته لتمنع التقاء الجفنين، حدث نفسه: سأحاول أنام.

تأتيه صورة رئيسه في العمل بوداعة الأفعى، يراه في مشاهد جمة، حين يدخل عليه باستدعاء عاجل، وحين يقف على رأسه فجأة، وحين يقلب الملفات التي يراجعها مرات عدة خشية أن يجد فيها المسؤول ثغرة يقفز بها إلى محاضرة لا تنتهي..

سأل نفسه: ماذا لو دخلت عليه صباح الغد، وقلت له إنني تعبت منك أيها التافه، وأنني لست عبدا لك لتسومني سوء العذاب، وأقول له كفاك من هذا الإرهاب النفسي.. حتما سينفخ وتأخذه المفاجأة، وسيقترب مني غاضبا، ماذا لو وضعت سكينا في جيبي، لا لا، سكين لا تنفع للنفاذ في جلد كرشه المتين، سأحمل أداة أكثر حدة، سأضربه على جبينه، سيسقط فوق طاولة المكتب، سيصرخ، وسيستغيث، سأعالجه بضربة أخرى على عنقه، سأفصل عنقه عن جسده السمين، أضع الرأس في كيس، وأنا أودع امرأتي لن أجيبها لأي غرض أحمل في جيبي كيسا، آه ، الرأس،كدت أنسى رأس المدير وأتحدث عن رأس زوجتي، مسؤولي الآخر في البيت، سأحمل الرأس الكبيرة في الكيس، وأضعها في مكان بارز على المدخل..

حاول القبض على النوم، لكن منظر المسؤول غارقا في دمائه لم يفارقه، سمع طرقا على الباب، دخل منه رجلا شرطة.

قبضا عليه..

دلهما عليه حبل أفكاره.

3 مشاهد

اتسع المقهى لروحين..

اتسع السرير لجسدين

ضاقت القضبان بكل ذلك.

المرحلة

فتح التلفزيون على صورة تتكرر أمام عينيه كثيرا، سمع صاحب الصورة يحدثه عن المرحلة التي يجب أن ....

الصحف تتحدث أيضا عن المرحلة التي.................

تخيل أن المقهوي عبود يقول ان المرحلة ....

الكون من حوله يتمرحل وهو غارق يرقب ما تيسر من أثداء نانسي وأليسا وأعجاز غواني المرحلة، وفي ظنه أن هذه المرحلة ....

أحلام

ينام كعادته، يضع حلما في رأسه.
يصحو كعادته فيجد الحلم قد تجسد واقعا.
أتعبته الحكاية، فقرر ذات ليلة أن لا يضع شيئا في رأسه.
وحينما كان يصحو من نومه، كعادته، وجد نفسه ميتا.

يحدث غالبا

كأي أغنية عابرة التقاها

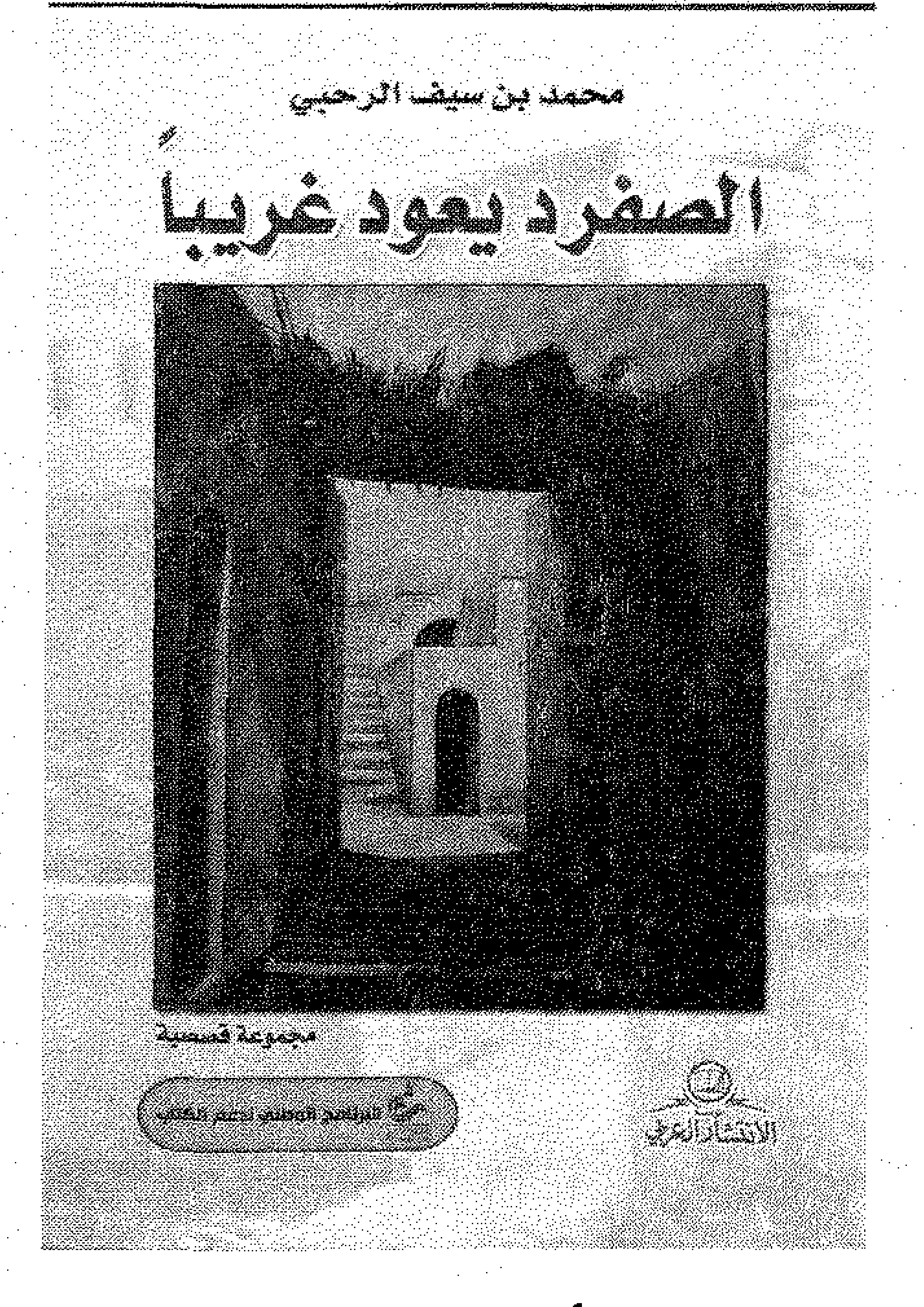
مسح عن جبينها وعثاء السفر فأذهلته محبته لاسترجاعها كأغنية نادرة..

نسيت أنها كأي أغنية عابرة التقاها..

كان عليه وضع لحن جديد لأغنية أخرى قادمة.. وعابرة أيضا.

فك رقبة

كان في جرابه كثير من العبيد، أحضرهم من بلاد بعيدة، أبعد مما تتخيل.
يقول الامام أنه جاء بهم لفك الرقاب، كما يطلب من المذنبين المرتكبين للكبائر والمعاصي.
شوهد الامام يبيع الرقبة بكامل الجسد الذي عليه، يأتي اليه أولئك المذنبون، أولئك الذين منحهم الأمل في عفو الهي، ولا يرهقون أجسادهم بصيام شهرين، يجلسون اليه يتفاوضون في قيمة الرقبة وما عليها، الامام يريد البيع لأن جميع الرقاب تحتاج الى طعام.
يضع المذنب المبلغ بين يدي الامام، ويقال للعبد أنك حر لوجه الله..
لا يذهب العبد بعيدا عن رسنه، يعود للامام طالبا العمل عند السيد الافضل، يقول له الامام أنه لا عمل لديه له، لكن لا باس ان قبل العبد بقوت يومه..
تفتر ابتسامة واسعة من فم العبد، ويبقى في رسنه.



الطبعة الأولى - بيروت 2012

الذي عاد غريبا يتذكر الذئب

عاد من غواية السفر، آيبا إلى سيرته الأولى، كحائط يستند إليه، وقد تزلزلت الأرض من أسفل قدميه.

حط رحاله على حين غرة، أوصد كل الأبواب مبقيا بوصَلته متجهة نحو البيت القديم، الذي بقي قديما وحده، بابه لم تغيره صروف السنين، الضلفتان الخشبيتان بلونهما المائل للسواد، والمرجام(1) الذي لا يصد سوى الريح والهوام المنتشرة في تضاريس المكان.

رأى الذئب يدفع الباب ويدخل، رآه يخطف ما يريد ويذهب، لم يجرؤ حتى على الصراخ، خاف الذئب حينما كان صغيرا، كأنه رأى شيئا منه وهو يدلف الباب الذي أصبح قديما، طار الذئب بفريسته، لم يعد يتذكر إلى أين، مع أنه لم ينس الذئب، وعذّبه كثيرا صراخ الفريسة.

على المدخل الشرقي من البيت رأى أمه تفتح القبضة القماشية عن كومة الثمار الجبلية المحصودة من أزهار أشجار(السمر) وأوراقها، أبصرها تتحسس أصابعها مزيلة ما علق فيها من طعنات (السمر) متوجسة من شوائب دخلت بين الظفر واللحم، قالت له أيام الغربة ان الظفر لا يخرج من اللحم، تذكر الألم، أظافره المتمردة على لحم الأصابع، تصطدم حين يركض بحصاة فتخضر ثم تبدأ بالانقلاع عن مكانها، جرّب قلع الظفر عن لحمه، فعلها سنوات طوال، شعر بألم القلع فارتد يبحث عن لحمه.

ناداها بصوت لم تسمعه، لم يتأكد أنه زعق به، في اللحظات الفاصلة بين

الكلام والسمع رمت (المجز)[2] فوق (المنقل)[3] الخاوي من عشاء البقرة العصيّة على الحمل، التقت الأعين الأربع، تدفآ بالوهج المتبادل، خطف منه ما يرومه في المواجهة الحميمية تلك، التقت الأيدي الأربع، احتضنته وهو واقف بذهول ما، طوقته باليدين المتعبتين بجراحهما، وبالقلب المثخن بجراحه، بكت كأنها تبكيه ميتا، استرجعت كل البكاء الذي أطلقته عبر السنوات الفائتة، وهوت على حزمتها..

- حرصناك (واجد)[4]، من يوم على يوم نحرصك تجيء، تأخرت (باه)[5].

- بس كان موعد الطيارة يتأخر.

- بس أبوك حرصك واجد، وعمك باغي يشتري المال، (لج) عليه علين مات.

- أبوك مات يا غائب الأرض..

- والدك انتظرك، تأخرت عليه، ألقى في حلقه حجرة أخيرة، غصّ بها، هزمه المرض والزمن.. وغيابك..

انتبه فجأة أنه كبر على حين غرة، كان الصوت يأتيه من مكان ما، ابن العم لم يقل ان أبي مات، وان اخوتي تفتتوا بين حجر وحجر، وأن الذئب الذي افترس غنيمته قد يعود مرة أخرى ليفترس أخرى.

لم يلمحها حينما تركت دائرته، هوت عليه أحزانه دفعة ضخمة من النيازك والأحجار الكونية، حزمة الحطب في مكانها المعتاد منذ أن فتح عينيه للضوء أول مرة، كأنه غادر البقعة للتو مختبئا في أصقاع الدنيا عن مخلفات أمسه، باحثا عن حرية لم يجدها بين النخلة والنخلة، بين سفح الجبل وعلوّه القاسي.

قالت له: ستعود غريبا، ولن تعرفك الدروب المغبرة، ستغدو غابرة لكنك ستستبقيها كي لا تظل عابرة.

حين ربط حقيبته الصغيرة وأمنيته الكبيرة في نسيان البيت والذئب والباب

الذي لم يكن موصدا بما فيه الكفاية، حين دفع حقيبته دفعا ميمما وجهه شطر الارتحال بكت أمه، لم يقرأ ما تقوله الدموع جيدا، شاهدها تجمع ما تناثر من أوراق شجرة الليمون الوحيدة في صحن الدار، كأنه سمع أنينا محبوسا يريد الانفلات من قفصه، كان قفص صدر أمه أقوى من أن يترك الأنين يتحول صخبا، رآها آتية مخلفة وراءها أشجار نخيل وسفرجل، هجست له بما تحس: ستعود غريبا، وسنراك غريبا.

وضع حقيبته الكبيرة المثقلة بسنوات الاغتراب فوق دكة في البيت لم يعد يتذكر أنها كانت أم لحقت بالمكان بعدئذ، بللته أمطار أعين وارتعاشات قلوب، وشعر بخشونة يد أمه تتحسس يده.

على عصا التذكر يتكىء، يحاول تفنيد السنوات السمان من رفيقاتها العجاف، تأمل غير مرة الأوراق المختومة بحبر الغربة، أخرجها من ملفها الورقي الداكن، أعادها إلى الملف مرة بعد أخرى، اهترأ غلاف وشحب لون حبر، وعلى مقربة من تلك الساقية كانت أمه تضع حملها من حطب شتاء القرية، وعدها بـ(سلندر) الغاز لتلقي عن كاهلها عبئا واحداً على الأقل، وبالفرن الكهربائي حينما تصل أسلاك التيار إلى قريته المعرّشة على قمة جبل، حطّ على أذنيه حديث كأنه معاد للمرة التي لا يتذكر:

- الحكومة رايحه تبني حالنا بيوت.

- إذا فوق الجبل نبغاها.

- بيوت السميت ما تطلع فوق الجبل.

- ونخلّي مكان آبائنا وأجدادنا حال من؟ ماتوا واجدين من أهلنا عشان يبقيوا في المكان، فوق.

- بس ما يستوي في هذا الوقت نسكن هنا.

- إذا بغيت اهبط، أما...

وهبط صوب المطار، صوب نافذة الطائرة لوى عنقه يمدد بصره ناحية الكتل الصخرية لعله يراها، قريته، فوق تلك القمم الصلدة، المتساوية من وراء النافذة الصغيرة رغم تباين شموخها، أسرج خيول التأمل، المضيفة بوجهها الجاد سألته عن نوع الأكل الذي يشتهي، وعاد إلى النافذة كأنه أجاب بالكلمة التي ألقاها.

البوصلة التي قادته إلى الجبال بدت مرتبكة وحائرة، بوصلته تتجاذبها ذبذبات حنين ووجد ورؤى ولا نهائي من المشاعر المتصارعة، صعدت به السيارة الرباعية الدفع إلى المكان، ابن عمه الذي أحضره عبر المسافة الواصلة بين المطار والقرية بعيد حدّ الحديث عن تشعّب العائلة: أخويي سعيد تزوج من سنين، عنده أربعة صبيان وثلاث بنات، أخويي سالم تزوج حرمة غيرها، جاب منها سته، ماشاء الله كلهم ذكور، أخويي....

لم يهده ابن عمه إلى الصوت الذي أنبأه بالغربة قبل نحو عقد من الزمان، السنة تتبع السنة وتبدو أنها الأخيرة، تقترب الأوبة كالغد، وتنأى كالحلم العابر، حدثته نفسه أن يسأله عن والده، أهبط من الجبل أم ظل في علوه؟ من اعتاد سكنى الشوامخ لن يرضى بالسفوح، لا يدري من أي بقعة جاءته هذه العبارة، لم يقلها لابن عمه وهو يمضي في سرد تمدد العائلة عدديا..

- كلهم خلصوا دراستهم؟.

- حد كذا وحد كذا، حد منهم اشتغل ف البلاد، حمدون ناطور ف المدرسة، وسعيد حصل سايق يشل الصغيرين مال المدرسة، يعطيوه معاش زين، فوق الميت ريال.....

في المسافة سكت، الغيمة التي بالغت في حلمها متجهة صوب قمة الجبل تلاشت مع عصف الريح في الفضاء، تغيّرت شوارع، نبتت أرصفة، تساقط

حجر، نهض خرسان، والسفوح وراءه تسفح بعضها بعضا.

سألته أمه عن غربته، ودّ لو يسألها إن كان الذئب دفع الباب مرة أخرى ودلف للداخل، تذكر والده الذي بكى ملاحقا الذئب، لكن الذئب فرّ بغنيمته، بقي في قلب الأب حجر يزداد ثقلا كل حين، مع نظرة يثقل، الرجل الذي لم يدفع الذئب دون النيل من الفريسة، ووالده ابن جبل، لا يرضى سوى بجثة المفترس.

صوت ما.. كان يأتيه، من شغور الجدران، العاصفة التي جاءت على غير موعدها في هذا الموسم، النخيل فقدت القدرة على الاخضرار كما كانت تفعل قبل سنوات.

الاسمنت صدق ظنه ولم يصعد للأعالي، تهاوت أرواح كثيرة نحوها تلك السماء البالغة الزرقة، حتى في الليل يراها زرقاء لا غيم تترقبه يرقد في عين جافة وقد سفحت ماءها كثيرا.

في الفجر استيقظ معه قراره..

لم يكن من وداع، الأم التي خرجت مع مواشيها باكرا لن تعرف ما الذي سيتغيّر في جريان السنين من حول صخورها.

وضع حقيبته الكبيرة على السيارة الرباعية الدفع، لم يكن ممتلكا إلا القليل من أمنياته القديمة..

هبط من الجبل، آيبا إلى حيث لا يدري.

كانت الراعية تصرخ مشيرة نحو البعيد، جثت على ركبتين لم تحتملاها، تجمّع حولها من يبحثون عن مكان تشير إليه اصبع تهتز، على السفح كان هناك ما يتّجه نحو القعر، هابطا نحو البقعة السهلية، تماما حيث أقعى الاسمنت الذي رفض بلوغ الأعالي.

هوامش:

1 - المرجام: مغلاق الباب.

2 - المجز: أداة حديدية مسننة يستخدمها الفلاحون للقطع.

3 - المنقل: ماعون مصنوع من جذع النخيل يوضع فيه طعام الحيوانات.

4 - حرصناك واجد: انتظرناك كثيرا.

5 - باه: تستخدمها الأمهات والجدات للتدليل والإكبار في نفس الوقت، وهي بمعنى أبي.

الركلة

إلى محمد ربيع..

شعب وأصدقاء كانوا يدعون لك وأنت تركل الكرة تجاه الشباك.

ميمونة التي نسيت القهوة "تفوح" فوق الطباخة لم تنتبه إلى أنه دفع المخدة الثقيلة على "الزوليّة"1 العتيقة مسافة فاضت عنها، رأته يطلق كلمات وسط منطقة بين الوضوح والهذيان، التلفاز فاغر فاه مثله تماما، سمعته يكرر أنها الركلة الأخيرة وفيها حياة أو موت يعقبه بكلام أشبه بالغمغمة، لم تسأله حياة من أو موت ماذا، عادت لقهوتها، وقد استراحت، تسكبها في الدلة المعتادة على الانسكاب في الفناجين بكثرة منذ أسبوعين.

كرر عليها أياما أن عمان نبض واحد، هزت رأسها دلالة على الموافقة، رأتها في جدران بيوت خميسوه وخليفوه وزوينوه، كما يحلو لها مناداة جاراتها، حتى على جدار (مجازة الحريم)[2] كتب الأطفال الكلمات الثلاث، يوم أن تعلمت القراءة والكتابة في مدرسة محو الأمية بدأت في قراءة ما يلوح لها من كلمات على اللافتات والجدران.

رمقت التلفزيون بنصف عين، ولم تسأل كعادتها "موه3 هذا بو مستوي؟ متى تخلص هذي السالفة ونستريح؟.. عادت هذي ما كورة بعيد الشر!!".

صبّت له فنجان قهوة مع كل تمرة خلاص يتناولها، قالت له ان التمر يكاد

ينفد، لم يأبه كثيرا كونها عوّدته على أقوال مشابهة، لم تدرك أنه سمعها لكنها تابعت: «سح بهوان4 نقطع»، ورأت أقدامه مرتبكة كأنها تدفع الفراغ، ترحمت على الشيخ في قبره، مرت أسابيع لم تطبخ قبولي اللحم كما اعتادت، تباعد اللحم الآتي إلى عتبات بيتهم عن المجيء أسبوعا بعد تاليه، قالت له انها بصراحة تعودت على هذا "السح الزين" ولو يقطع "السيويا" أحسن عن "يقطع السح".

استندت على مخدة ليست ببعيدة عنه، الشعرات البيضاء رأتها غازية للحيته وقد أطلقها قليلا، عمل حارسا منذ أن تقاعد من الجيش ولا يزال شابا يتخطى الأربعين للتو، اللاعب يقترب من الكرة، يشتد حماس الأولاد، «سعيد، ما تروم تقول شيء حال أولادك؟!».. صرخت في أولادها الثمانية: «تو موه هذي الربشه بو مسويينها؟!».. لكن سعيد يشاور بيديه أن يبتعد من أمام التلفزيون كل كائن، يدفع فنجان القهوة بيده سهوا، ينسكب، تنظر إليه بغضب وتأتي بالفوطة تنشّف بها الفرشة القديمة التي تآكلت لفرط ما تحملت من عبء الصغار ومسكوباتهم اللامنتهية.

- «سعيد، صاني تعبت، حتى بناتك قامن يرقصن، عادن عرايس ومسويات بعمرهن كذاك؟!، فضيحة، آها تكلم شوية!!»، أيام مضت تعزف له هذه النغمة النشاز، ضحكت بعمق حينما ارتدى فانيلة حمراء مكتوبا عليها باللغة الانجليزية اسم عائل، لا تعرف المكتوب لكنها ضحكت بفرحة، ووبخته بود: تو موه خليت حال الصغيرين يا الشايب؟!.. مزهاتك5!».

لكنه في ليلته هذه، شرب القهوة أكثر مما قدّرت استطاعته، للمرة الأولى تخاف عليه من شيء ما مجهول، كأن عينيه لا تحيدان في بصرهما عن

الشاشة، مخلوقتان من أجلها، لم يكن هو الذي كان قبل يومين يحملهم جميعا في سيارته العتيقة ويطوف بهم جميعا شوارع القرية والقرى المجاورة ضاغطا على (الهرن)[7] وبيده اليسرى علم عمان ويغني بوطنية عميقة.

- سعيد.. تو موه فيك، صاها كما كل يوم.

- يا ريت، لو استويت كما الأيام الماضية أشتريلكم بو تبغيوه.

- آها قبل هات سامان[6] حال البيت وخلاف عاد.

- خير، خير.

غارق في ما يرى، لم يكن يتنفس، ماجت اللحظة بثقلها المميت على صدره، حطت «مدلاة» القهوة بجانبه، رمقته بألم، تساءلت عن حالته، أدار القماشة الحمراء على رقبته، مرة يفتح عينيه على آخرهما، مرة يغمضهما كأنه لا يريد رؤية ما تعرضه الشاشة.

رجع اللاعب خطوتين إلى الخلف وهمّ بضرب الكرة بقدمه، وقف سعيد ومعه كل جارحة في جسده، كانت تستدير نحو المطبخ لإحضار العشاء، سمعت صرخته، صرخت معه برعب هز الجدران، وجدته يهذي واقفا والدمع يغرق في عينيه.

شاهدت التلفزيون، لاعبون يجرون في كل اتجاه، لم تفهم ما يجري، لا أحد يجيبها إلا بصراخ الفرحة، وجدت نفسها تبكي، وتنسى أمر العشاء، تذكرته حينما عادت بعد منتصف الليل، وقد رأت للفرحة ما لا يمكن تخيله.

هوامش:

الزولية: السجادة.

المجازة: غرفة تقع على ساقية الفلج مباشرة وهي مخصصة للاستحمام.

موه: تأتي بمعنى ماذا.

سح بهوان: التمر الذي يوزعه رجل الخير.

مزهاتك: تأتي بمعنى لا يليق بك (بمعنى ما أجملك).

سامان: احتياجات المنزل.

الهرن: منبه السيارات.

السيكل

أبقـى "الولـف" في راحـة كفه طويلا، أبقاها متكورة وقتا طويلا، محتوية جزءا من حلمه.. تأمل تفاصيل التفاصيل، عائد من الحارة البعيدة، يسحب خطـوه تيها وخيلاء، أعاد تثبيت ما تنافر من أجزاء نعاله (الزنوبة)، لمح الوسم على مقدمتها، وضعها برسم هندسي هذه المرة، يحفظ (الوطية) من فوضى التشابه عن مثيلاتها.

بغشاء بلاستيكي شفاف غاص الولف في باطن اليد، اعرورق، كاد أن يذوب في اللحم الحي، الحلم يقترب من الدخول، أيقن خطورة وصد الباب دون مجيء اللون الوردي ولو مرة واحدة إلى الجفنين المرهقين بالانتظار..

قطعة صغيرة جدا، تناولها من خلفان ضمانة على أنه سيبيعه السيكل القديم، بضعة أسياخ تنقلها عجلتان، الصفقة تبدو رابحة، سيشتري حمّود حلمه الأثير بخمسة ريالات.

سيغطي الحديد العاري من أي لون بـ(التشيشن تيب)، سيضع لونيه المحببين، الأزرق والأحمر، وفي (السكان) سيغرس علم عمان، ولن يتنازل عن شراء (الهرن)، من النوع الذي وضعه عبّود في سيكله، ألزم نفسه بوعود عديدة، في مقدمة السيكل سيضع (الليت)، وعلى استدارة (الرنج) في العجلة الخلفية سيضع الدينامو، سيجهد ساقيه في دفع السيكل كي يسرع أكثر، وسيدور راس الدينامو الملتصق بالرنج أسرع، وسيضيء المصباح منيرا دروب حارته، أما الحارات المجاورة فلا يقدر السير فوق ترابها ليلا.

سنوات عشر مرّت فوق هضاب عمره الفتية، عام يحط فوق سابقه، تتكاثر دونما سبب يستشعره، سوى أنه يكبر، والحلم الوردي الذي ينمو عصيا على التحقق يساوره كلما أغمض العينين المكتحلتين بالسواد.

في ساحة بجانب مسجد الحارة يراهم من بعيد، بدراجاتهم الهوائية يسيرون بين صفين من زجاجات البيبسي، يرسمون دوائر على الأرض السبخة، حتى سقوطهم من دراجاتهم له زهو، يكتفي بالرؤية، وقبل أن ينام تضع أمه الكحل في عينيه، كحلا أسود كأنه يواري وردية الأحلام في المقلتين الصغيرتين.

صبيحة (الهبطة) باعت أمه الكبش الذي كان يحبّه، وبكى استدرارا لحنانها أن تعطيه الريالات الخمسة من أجل سيكل خلفان، نكثت أمه بالوعد، ودفعت الريالات القليلة لبائعة الملابس وقد حضرت عصر نفس اليوم حاملة (شغنتها) فوق رأسها، و(الوار) في يدها.

سأل والده شراء عجلة هوائية، لم يقل له الكلمتين اللتين قرأهما في كتابه المدرسي تحت صورة الحلم، قال: «باه، أبغي سيكل»، غادر حضورا طاغيا لأبيه، واكتفى بنظرة حادة من عينين كأنهما اعتادتا على الحدّة.

وهو «يحايل» عبّود أن يعطيه "لفة" بالسيكل اختطفه فجأة حضن من الخلف، ضرب عبّود بكوعه، صرخ عبّود، وبكى، بكى كأي فتاة مترفة لم يضربها أحد، وقبل أن يخرج الجمع من المسجد رأى والد عبّود «يناجي» والده، في المسافة بين المسجد وبيتهم درب ترابي، ركض حمّود تجاه البيت، وتبعه والده، و«الخضرية» في يده، بكى حمّود حتى وصل والده، وبكى أكثر من الألم، وقد تفتت العود الأخضر على جسده، جلس ومعه حلمه، ينشج، غالب حسرته، آلمه جسده بالعلامات الطولية التي تركتها «الخضرية» فوق رهافته، تذكر كوعه، والتصاق عبّود به، والسيكل «البيلون» رقم 16.

بعد يومين، أسلس عبّود القياد لسيكله ينساب في درب معتاد، وكان وراءه حمّود يدفع "الرنج" قابضا على العصا توصل بينه والعجلة المعدنية المستديرة، ما تبقى من عجلة « سيكل »، عبّود يسرع خائفا من كوع ملاحقه، وحمّود يطلق تحديه، ويود لو يمنحه راكب السيكل فرصة أخرى.

فرّت صباحات أخرى، مضت جافة في حلقه، نسي أين وضع الولف، وخلفان يسأله اختيار السيكل أو إرجاع الولف، وفي صباح تال، لا يذكر المسافة الفاصلة بين تدافع النهارات عليه، كان صوت أمه صاخبا، تفتش بحرقة بين الملابس البالية عن ريالين فقدتهما، أقسم حمّود أنه لم ير، ولم يأخذ.

أمضى حمّود يومين وهو يحلف بالله العظيم، وبالله الجبّار، وبحق (مسجد الجيلة) أن الريالين ليسا معه، يظن أنه صادق، فالريالان لدى خلفان، وعده بالثلاثة الباقيات بعد أسبوع، له حق التمتع بأسبوع من امتطاء صهوة حلمه، مؤجلا الثلاثة بانتظار معجزة ستهبط لا محالة من بين سعفات النخيل، أنهك قدميه، واستراح إلى جانب الفلج يغسل بالماء عنهما التعب.

سأله سعدون أن يمنحه دقائق من تجربة قيادة السيكل، راوده المشهد مرة أخرى، عاوده بملمح آخر، كان الكوع كسهم ينغرس في صدره، هوى بالألم بجانب « السيكل » المتهاوي أيضا، وتهادت إلى سمعه كلمات بذيئة يطلقها سعدون، المطلق لساقيه السوداوين الريح.

حطّم الوالد الغاضب السيكل، "الهيب" الهاوي على العجلتين يتوجع بهما حمّود، كأنهما يهويان على ساقيه.

تفتت حلم، بكى ورأى من وراء الدمع طفلا يبحث عن حلم آخر.

الهوامش:

الولف: قطعة صغيرة تتخذ شكلا اسطوانيا، تساعد على احتفاظ العجلة بالهواء داخلها.
الزنوبة: اسم النعال (النايلون) السائدة في فترة السبعينيات، والوطية هو الاسم المحلي للنعال.
التشيشن تيب: الورق اللاصق ملفوف بشكل دائري ويأتي بألوان مختلفة.
الليت: المصباح.
الهيب: حديدة طويلة تشبه العصا الضخمة، طرفاها معدّان بطريقتين مختلفتين، ويستخدمها المزارعون في الحفر لشق ما تعسّر في الأرض.
الشغنه: لفة من القماش تحملها النسوة فوق رؤوسهن، ويضعن داخلها الملابس، القديمة أو الجديدة، وتقوم بائعات الأقمشة بالسير في الحارات، ومن بيت لآخر لترويج سلعتهن، وغالبا عن طريق البيع المؤجل الدفع (الصبر).
الوار: حديدة تستخدم للقياس، أقرب لشكل المسطرة تحملها البائعات. أما كلمة الوار فتعني وحدة قياس تساوي أقل من نصف متر.
الهبطة: سوق سنوي يقام لساعات، يسبق عيدي الفطر والأضحى.
مسجد الجيلة: مسجد بإحدى القرى العمانية بولاية سمائل، ويعظّمه الأهالي لدرجة الحلف به.

الصفرد

كالصفرد..

أو هي شيء يشبهه لا يدري كيف يقبض عليه، إذ يخاتله التشبيه، يراها فيشعر أنها صفرد يختال، ويراه فيحس في لحظة أنها تقتحم كل خلايا قلبه وروحه في لحظة رؤية..

آلمته نظرتها اللامبالية، وتخبأت في دفتره القديم الذي يقلب صفحاته باعتياد يومي علّها تخرج من سطر، أو حرف أخير قبل النقطة الأخيرة.

يرى نفسه في الهامش، لكنها ليست في هامشه أبدا، قالت له ان الحياة عنيدة، وان متن حياتهما لا يستقيم، لوى فكره باتجاه بعيد، مجتهدا في محو خطوها عابرة المسافة كقطاة جبلية، لكنه يراها تشبه الصفرد أكثر، وكلما جاءته صورة قريته لم ير فيها إلا الصفارد تسير بخيلاء مستعرضة امتلاءها، ولا يرى في الصفارد إلا طيره الأثير.

يغوص في قاع التذكر، الحياة العنيدة، والنظرة اللامبالية، ومخاوف ترتّد إلى قلبه فتدميه، تباعدت عن باب بيتهم، والحارة ضيقة لا تتسع لغريب، توارى الصفرد وراء جدران تكدس اسمنتها على أطلال طينية بدت بالاضمحلال، تسوّرت إلى خارج القرية، وامتلأ السيح بالبيوت الحديثة، شجرات السمر تكدست قطعا ووريت أفواه تنور حارتهم وما زاد عنه حمله الباعة إلى السوق المجاور.

مرّ زمن لم ير فيه الصفارد، الشجرات التي تؤويها في رحم ظلالها أصبحت فحما أو رمادا، لم يجد حطابو القرية بغيتهم في سيوحها المهاجمة من قبل بشر يتكاثرون سريعا، ظلوا يطاردون الأشجار، والصفارد تنأى رويدا رويدا، حياتها العنيدة، صفردة قالت له في زخم الأمس ان الحياة عنيدة، لا يمكن كسرها.

صبيحة يوم شعر بحجم الكسر الذي أصابه، طارت الصفارد بعيدا، طيره يلحّ بالحضور أمام عينيه، يتهادى في مشيته، لم تكن تخفي الجسد المختزن لأنوثته عباءة أو كل تلك الأغلفة التي يراها على أجساد بنات قريته، رآها شهية، مثقلة بامتلاء يأخذ العقل، وفي درب بعيد عن الأعين تتبعها، قال لها انها كالصفرد، لم تستوعب ما معنى ذلك، تسارعت خطواتها كأنها تطير من مارد باغتها، احتضنت عباءتها بخوف، تجلى له ما يختبىء داخل الغلاف الأسود الممتد غطاء على كل شيء.

غضب والده كثيرا، وضحكت القرية..

الغريب أهان بنت الشيخ، قال لها انها تشبه الصفرد، طائر يدرج تحت ظلال السمر وأعشاب السيح، يباغته فتيان الحارة وبعض من رجالاتها ببنادقهم الصغيرة أو بما أمكنهم من وسائل صيد، سمين ومغر، لكنها ابنة الشيخ، وهو غريب لا يعرفه أحد، من عائلة حطت على القرية متخذة من بيتها السعفي ملاذا على حواف القرية، خلال عشر سنوات تكاثرت بيوت القرية وزحفت باسمنتها إلى ما بعد البيت السعفي، والغريب يهوى مطاردة الصفارد، متخذا من أشجار السمر حوله ملاعب طفولة وفتوّة.

رجمته الألسن شهورا، وواجه صفرده بجرأة، أيقنت أنه يحب الصفارد، ولأنه يحبها فهي تشبه الصفرد، لكنها قالت له ان الحياة عنيدة، كالطيور التي

تختال بزهو رغم أن الفتية سيأكلون لحمها لا محالة.

لكنهم أكلوا لحمها في السر كثيرا.. القرية تجد لذاذة طاغية في التهام اللحوم المتخيّلة في أذهان ساكنيها، عبّود يجيد استخدام نشابه في كسر رأس الصفارد، ينتظرها كما ينتظر العقاعق وهي تتكاثر في قريتهم حسب الموسم، سار عبود بلحم الصفرد يمضغه بين أقرانه، وتتلقفه الأمهات لتتحرك به القرية الباحثة عن حكاية سمر إذ تحوك في لياليها سأمها وأسقامها..

والغريب قال لصفرده انه يريده، مع أن الحياة عنيدة..

والشيخ لا يريد لابنته غريبا، فكيف وقد سارت الألسن بما يكره؟! والوشاة نواطير نهار وسرّاق ليل، وضع الصفرد في قفص، حجبه عن النور والسماء، منعه دون الناس، ومنع الناس عنه، قال له خاطر ان الأفواه لن تجد ما تلوكه من لحم سارت به أشهرا..

فجاءه نواطير النهار وسرّاق الليل بما يسوؤه أكثر فأكثر، وعاشق الصفرد يبحث عن طائره، قالوا ان الشيخ سجن الصفرد بعد أن برزت بطنه كثيرا فدارى الفضيحة بالحجب، لعله صفرد صغير يتوارى في العتمة سيخرج إلى نور الدنيا قريبا لا محالة، الغريب أبوه.

جاءته في نومه وذكّرته بما قالت له، الدنيا عنيدة.. والحارات أضيق من القلوب، والألسن لها قدرة عجيبة على المضغ، وليل القرية باحث عن أنسه، وما لا يستطيع السير تحت شمس النهار تداريه عتمة الليل.

لكن الصفرد قاوم عناد الدنيا، وتركها ذات صباح..

خيّل للغريب على أنه رأى سحابة خضراء تطير فوق سماء القرية، تتبّعها حتى توارت عن مدى قدرة بصره..

قالت أم عبود انها مسحت بطن صفرد الغريب، والباكيات ترتفع أصواتهن كأنهن كفارات مرسلة من حول جسد المتوفية، كانت البطن صافية كأنها تكاد ترى القلب المعلق هناك، كل باكية تزحف في زحام النساء ناظرة إلى البطن، بطن الصفرد الذي قيل أنه كبر بابن الغريب ووحم الفضيحة.

للمرة الأولى بكى الشيخ..

وبكت القرية.

وجاء رجل من أقصى القرية يقول انه شاهد الغريب يتحدث عن سحابة خضراء عليه تلمس اتجاهها، تهادت بعيدا عن ندى نظره، لكنه موقن أنها ستعود في بقعة ما، قال آخر انه سمع الغريب يهذي، وأن السحابة سيراها في كل صفرد يأوي غريبا إلى قرية ذرفت الكثير من الدموع تغسل بها ما علق في ألسنتها وأسنانها من بقايا لحوم تناولتها نيّة ففاحت روائحها من أفواههم.

ساروا نحو المقبرة الحافّة بالقرية من جانبها الجنوبي، روى رجل أن الصفارد كانت تحط بكثرة على الجسد المحمول، وخيّل لأهل القرية أن سحابة خضراء كانت تمطر فيخرج صفرد من كل قطرة تحط على ارض السيح.

المتشظي يحلم بمرآته

ألمّ به ألم.

قال للمرآة ان الشظايا كانت لوجه مكتمل، كمال المرآة هو كماله، حلم بامرأة يواجهها لكنه وفي حالة تساقط أحلامه اكتفى بالمرآة.

حينما يستيقظ يعبر أمامها يتأكد من أمر ما.

وقبل أن يخلد للنوم يعتقد أنه للمرة الأخيرة يرى ما يشكّل بقاءه على قيد الحياة، يخشى دائما فكرة الموت في فراش بائس وحقير، ستعبث به صراصير غرفته، تلك التي يخافها جدا، منذ أن وجدها طفلا تعبر المسافة الضيقة بين جسده وفانيلته المتعرقة.

اللوح الزجاجي المصقول وجهه الآخر، المرآة تدعوه أن يقف كالمأخوذ أمامها، ويرى في مواجهتها الكائن وهو يواجه كائنا يشبهه، وتزداد اقترابا حينما يفعل هو الشيء نفسه.

اللعبة غارقة في إغرائها..

لا تريه سوى وجهه، تكذّبه حينما يدّعي بأن هذا الوجه ليس له، يفطن أحيانا إلى أن المرآة تلبسه إياه حينما يقترب منها، ربما لأنها لا تمتلك وجوها أخرى كي تعطيه واحدا في كل مرة، مرة قال انها ضنينة عليه سوى بوجه واحد، وقد تعب منه.

يخرج من الحمام يفرّش أسنانه في مواجهتها، يتأكد أن شريكه في المرآة

من الجانب الآخر يفعل الأمر ذاته، قلّب في مرات ماضية أسنانه أمامها ليتأكد أي شيطان هذا الذي يفجّر الألم داخل تجاويفها، أزال الطبيب بعضها ونصحه بفكرة المعجون والفرشاة مرتين في اليوم، وجدها متعة أن يقف أمام شبيهه لينظفا أسنانهما معا، ولا يفصلهما سوى لوح زجاجي بالغ الرهافة.

لا يتذكر كيف وصلت المرآة إلى هنا، قبل عدة اشهر انتقل من غرفته في الخوير إلى غرفته هذه في وادي عدي، قال له زملاء الأمس انه لا يطاق، وأفكاره غريبة، انسلّ عنهم ذات ليلة، وضرب الباب بقوة كعادته منذ الطفولة حينما يغضب، ووجد هذه الغرفة، وفرح جدا بالمرآة، قال صاحبها ان عليه دفع الإيجار قبل نهاية الشهر بخمسة أيام، الرواتب تأتي في الأسبوع الأخير دوما، حدثه عن الشركة التي تعطيه شهرا وتؤجل الآخر، سمع الرجل وهو يغلق الباب وراءه: هذه مشكلتك.

اكتفى بمعاقرة العمل اليومي والمرآة..

الفتيات اللاتي يرمقنه بنظرة لم يجدن في جيبه ما يكفي لبطاقة شحن لهواتفهن ومراهقتهن، المطاعم و«الكافتيريات» المحترقة بروائح العمال الآسيويين شاغبته كثيرا وهو يعبرها عائدا إلى غرفته، في السكة الضيقة صعودا إلى مرتفع يوصله إلى مرتفع آخر، حيث السطح ضالته وضلاله، الشغالة الفلبينية التي وهبته لحظات أنس، واكتفت بخمسة ريالات، لم تغامر ثانية، وبقي يقاوم ثورة جسده مسترجعا الريالات التي نقدها، والوظيفة الواجفة بين ذراعيه.

يعود، لأنه اعتاد العودة، ويمضي كحافظ لمسار الخطوة، قال له المدير ان الشركة لن تحتفظ به لأن الزبائن يأنفون من رائحته، يدخل المكان حاملا

معه رائحة لها طعم الحموضة، التاكسي لا يوصله إلى باب الشركة، يمشي نحو ربع ساعة كي يصل، والشمس بالغة الحدّة، حاول شرح الأمر للمسؤول الذي سعى ليؤكد جانبا إنسانيا يكاد يتوارى خلف زجاج الواقعية العملية.

أغلق باب الغرفة بقوة، بكلتا يديه دفعه ليدفع ثورته كما اعتاد، اهتزت جدران المكان، تساقطت المرآة متشظية، لم ير وجهه، تمنى أن يرى شبيهه في السطح الأملس، يبحث في العينين المتشابهتين مع عيني السطح الألمس.

وكان عليه أن يجمع طوال المساء الفتات، جرحا جرحا، لا يدرك أي شرط قاس أوجب جمع التشظي، يقترب الليل عليه ولما يزل يحلم برؤية تخفف توتره المزلزل، كأنه بالحلم يستعيد قوته، وبالرؤية يستجمع حياته.

حطّ الصباح وئيدا، عبر الجبال الملتفة في وادي عدي وطرق باب الساكن وحيدا في غرفته، مع الصباح جاء شاب وفي يديه رزمة أوراق متشابهة، بحث في عيني الشاب عن وجهه لكن الآخر تجاهل كل شيء وتوجه إلى وحدة قياس معلقة على زاوية في الغرفة.

في حذاء الشاب البائس الذي ناوله ورقة اختبأت شظية صغيرة، صغيرة بحيث لا يشعر العابر بها، اندست في الحذاء الفقير للشاب الذي يحمل أوراقا يوزعها تحت وهج الشمس على بيوت المكان، يعيش دوره.

مرت أحذية أخرى، أخذت حصتها من الشظايا، لم ينتبه القابع في متاهته لها جيدا، وهو يجمع شظايا مرآته اختلط عليه الأمر، حاول تجميع المرآة كي يرى وجهه وقد تشظى، اختلف نهاره، ولما لم يجد ما يفعله وقد مرّ عليه الرجل مالك الغرفة، والشاب حامل الفواتير، ورجل الكوابيس الذي وزّع عليه ما في حقيبته من مخاوف، وصديق قديم يطالب بعشرين ريالا اقترضها منه قبل أكثر

من عام، وآخر جاء لاقتراض مبلغ مشابه، فخشي على حذائه الجديد من شظايا المرآة، وغادر مسرعا.

ألصق شظية على بقعة من الجدار.. رآى بعضا من ملامحه، كطفل يركّب لعبة من قطع مضى في لعبة الوقت والزجاج المحطم.

الشظية الأخرى على بقعة تالية مواجهة للأولى، تكاثرت الشظايا، لها وجه ما، وجه غير مكتمل، القطع الناقصة غيّبت نواقص، رآى شظايا الوجه، حرّك وجهه بين القطع، إغراء اللعبة موحٍ، ومسلٍ.

ونام..

اعتقد أنه نام، يخيل إليه أن ثمة أصواتاً تتساقط، ما عاد بوسعه أن يرى هشيم زجاج تفتت حوله أكثر، بين مشهدين غامت الرؤية، لم يعد بإمكانه أن يرى أي بقعة واضحة من وجهه، كأن وجهه كبر فوق احتمال الشظايا المتصاغرة عما كانت عليه البارحة، وكأن الشظايا عجزت عن تدارك حطام الوجه.

خمسة ستّة

5 يونيو 2007

عدّها واحدا بعد آخر..

الطابق الأرضي، والأول، والسطح.

صعودا ونزولا، عين على السماء تؤثثها السحابات المتراكمة طبقات فوق بعضها البعض، وأخرى باتجاه الأرض ترعشها مخاوف من حدوث الأسوأ.

نظرة إلى السماء، ممسكة، ومتمسكة بأمل خفي، لا يدري من أين ينبع هذا الاطمئنان في عمقه؟ السماء غائمة بكثافة لا تحتمل الأمل، لكن العاصفة لم تزل دون مستوى الخوف.

الإعصار ضرب شواطىء صور، أمطار غزيرة، رياح شديدة، البحر في مستوى ينذر بكارثة، إذاعة عمان لا تكف عن الرصد، يترصّده خوف عابر، ترك المذياع، تسمّر أمام التلفزيون لربع ساعة، أو أكثر، لا يتقن إحصاء وحدات الزمن في موقف كهذا، الرؤية غير واضحة، المشاهد ممطرة، البحر يهدر في الشوارع.

أيقن أن الأمر سيمر، حتما سيعبر، ستأتي العاصفة، ستهب، ستطلق زئيرها في مواجهة النوافذ وستذهب، جاسره يقينه بالثبات، بينه والبحر مسافة، وبينه والأرض علو، باغته سهم لا يقاوم، شعر أنه هناك في صور، في المنطقة الشرقية، عواصفها تهدر بقسوة، غاص في ذكريات بحرها حين واتته أمسية قمرية بجوار فتح الخير، أطلق ربيع عنبر حكاياته عن البحر، أي عاصفة ستكنس آثار المكان؟!

الأفق الأزرق الذي يحبه، الخطوات التي تركها على حافة الماء تتدفق إلى ذاته الخائفة من الماء، من مجهول قادم، هل سيصل البحر إلى "الأنصب"، إنه بمأمن من الماء المالح يشق عباب كل تلك المسافات، استعاد بعض هدوئه، رامقا أطفاله بمزيد من الحنان.

5 يونيو 2008

يدفع جسده خارج السيارة..

السيارة التي تأتي للمكان للمرة الأولى، لم تقف في مكان كانت فيه أخرى حملها الماء إلى حيث لا يدري، غالب شجنه، ترك محرك السيارة يدور، كأنه يحتاج إلى صوت في سكون حاد تتدفق عليه مخاوف وشكوك، تتوقد روحه بين سكون وعاصفة، سكون يكشف عري المكان، وعاصفة تتدفق عبر مسامات الزمن، رفع رأسه إلى النافذة، النافذة المزروعة في بؤبؤي عينيه منذ عام، يفتح عينيه فيشاهد عبر النافذة ساعات انتظار الموت، يشير إلى السماء يبحث عن طائرات مروحية يرجوها أن تأتي، أن يسمعه كائن في الأرض، الماء افترش غرف النوم، تعبت يده من التلويح.

كأنه ينظرها يده تلوّح عالقة في الفراغ الزاعق أمامه، شعر بخدر بها، البيت أمامه يلوّح له، بغبار تراكم كثيرا فوق صفاء الأحلام، ترك حلمه ذات نهار بين أنياب الماء، ومضى، لا يتذكر إن كان أوصد الباب خلفه حين تركه للمرة الأخيرة، أم أن الماء نازعه فيما تبقى بالبيت، يترك الماء بقاياه حين ينسحب.

وجـه زوجتـه، وجـوه أطفالـه، زوجته التي أغرقها قلق هستيري، والدها المقعد في بيتـه بقريـات، لديها الطابق الثاني يعصمها من الماء، لكن والدها لا يستطيع الفكاك من مقعده المتحرك، صرخت به أن يتصرف، صرخ في أعماقه أنني عاجز حيال الماء.

5 يونيو 2007

هبط السلم درجتين درجتين، يتأكد أن الماء ترك له فرصة التفكير في فعل شيء، أطفاله، وأمه المريضة في الطابق الثاني من البيت، زوجته في بقعة ما تجمع ما يمكنها حمله ضنا به على الماء المندفع من الجهات الأربع، تغالب قلقها بالحركة الدافعة للباطن باتجاه الممكن، حينما تتكاثر المستحيلات.

البكاء يضغط عليه، البكاء الصادم في غرفة الأطفال، والبكاء المنبعث من داخله.

قنوات التلفزيون بقيت قناة واحدة، الإعصار يقترب أكثر من السواحل العمانية، يرسل سحبه الركامية فتغصّ السماء بكثافة الغيم، تكرّ مسبحة الأخبار متنقلة من ولاية إلى أخرى.. أمطار غزيرة، أودية، شعاب، الشرطة تحذر، الأرصاد تقول، الموجة العالية التي تتكسر على الشارع البحري في مطرح تتكرر، تساءل عن صمود الأشياء في وجه الماء، الريح تقذف رصاص القطرات في وجه الأماكن، تحطمها، تشوّه الوجوه، كقطة متوحشة تنشب أنيابها في وجه جميل.

همد الضوء في المكان، التلفزيون دخل كهفه المرعب، صرخ الأطفال، من غرفتهم تناهى صوت البكاء، أسرع بالشمعة يوقدها، الريح تتسلل إلى صالة البيت الكائنة في الطابق العلوي، يتجمعون، لا يبقى أمام الأعين الخائفة سوى النوافذ، يتتبعون مسار الماء المتراكم تحت أساس البيوت، يصعد، لا يصعد، أنه ثابت، لا، انه متحرك للأعلى، يتجادلون، صامت هو، يراقب بعيون قلقة، يشعل المزيد من الشمع، تنذره زوجته أن شمعتين لا تكفيان لهذا المساء، الليل طويل.. والليالي ربما ستكون أطول.

الشمعات التي كلما أضيئت تقذف الريح لهبها في العتمة.. سقطت دموع من عيني امرأة ظنت أنها بمأمن عن البكاء، الأب الذي على كرسيه المتحرك تتخيله يقاوم الماء، وبقية العائلة تبكي على حافة الوادي الفاصل بينهم والشيخ المقعد، ذهب الماء بالجسور، أدمى كبرياء الجبال، كوحش كاسر يمزق خاصراتها الصخرية فتتساقط، فوق البيوت والأشجار والشوارع.

5 يونيو 2008

استدار حول البيت، أركانه المتداعية، الباب لم يعد هناك في مكانه، كأن البيت تعب من وقوفه فاستند في جانبه الغربي على الأرض قليلا، استسلم للماء المندفع تحت أساساته.

استعاد مشهد الماء يزلزل الباب الخشبي، الأتربة تفترش السلم الذي كان يهبط منه درجتين درجتين، ويصعدهما على ذات النسق، في يده زجاجة ماء، في يده شمعة، في يده ما تبقى في الثلاجة من طعام، وفي الدولاب من تعب العمر.

الحلم مندثر أمامه، قضى عام يترقبّه، لبنة فوق أخرى، وقد عاش عقدا من عمره يجمعه قطعا صغيرة من الأحلام يزرعها نبتات يافعة في زاوية من عقله، وحين أينع الحلم غرسه في قطعة أرض اشتراها بقرض من بنك تجاري، وبنى صرحه بقرض آخر من بنك إسكاني، لم يعد للديون مذاق المرارة وهو يقف في صالة البيت ملكا ومالكا، رقص في عيني زوجته طويلا، وغنّت على صدره أحلاما، سنأوي إلى عشنا الخاص يا أميرتي، سيأتي زمن سيكفّ البنك عن محاصرة راتبي وراتبك، سيبقى البيت ركنا لأطفالنا، وعد وملاك والصغير خالد.

تلفّت حوله كأن الكلمات تقف في شرفة علوية من البيت، هناك حيث الماء تصاعد قبل عام، خيّل إليه أن وعدا تبكي هناك، صرختها تأتيه، ملاك تلتصق بأمها، كأن الخوف وحده يذرع المسافة بين حدقات الأعين، خالد لا يأبه إلا للهب الشمعة يتراقص، يقرّب يده ليقبض اللهب، تمتد يد لتخطف الشمعة، وأخرى لتحمله.

على حافة الطين تكاثرت الصور حوله، أخته المسافرة تؤوب دافعة الطمي بأقدام من قسوة تحتضنهم بقوة، ضمّت الصغير خالداً برعب البكاء، ضاقت عليها غرفتها القاهرية، حلمت بطائر يحملها إلى عمان، أمضت الساعات الطويلة باكية في مطار القاهرة، تنتظر فرصة سفر، ألقت من شرفة حياتها الدراسة وكل المزهريات الجميلة، على البعد وطن يحاصره الماء وأهل يغرقون، مطار السيب مغلق، الموانيء مغلقة، الشوارع مقطعة الأوصال.

على حافــة من حنين، رآها أخته، تلك الشرفة التي تقاذفوا عبرها النظرات، أخته التي شقّت طريقها إليهم، وفي البلاد الطرقات الناعمة ما عادت كذلك.

5 يونيو 2007

الليل موحش، والمطر يضرب البيت بقسوة، ماء من السماء، ماء على الأرض، بيت على اتساعه يغدو نقطة حائرة في محيط الطوفان، الليل طويل وموحش، أين النهار، كأنه على بعد ألف سنة؟.

هبط الدرج، درجتين درجتين، فجأة توقف، الدم في عروقه توقف، الماء يصعد من السلم، صعد درجتين، كان بإمكانه أن يخمّن الدرجتين اللتين غمرهما الماء بلونه البني الداكن، أخذه الرعب، لم يقو على الرجوع بذات

القوة، جاهد ضعفه ليصعد، الشمعة وحولها ثلاثة أطفال وأمهم، الرعب يخنقه من الاتجاهات المتناثرة حوله، تناول الهاتف، لا أثر للحياة تنقله الأسلاك الغارقة في بحر لجي يغشاه موج أرسلته الجبال بقسوة.

أصاخ السمع إلى المذياع، أصوات مرهقة وواهنة، السحب الركامية تتدفق، الأمطار الغزيرة تصحبها رياح شديدة، الإنقاذ يتواصل، شرطة البلاد وجيشها يعملون ليل نهار لإجلاء العائلات التي حاصرتها السيول.

مسقط تغرق..

مسقط مدينة أشباح يتجوّل فيها شيطان الماء بأذرع لا تعرف الوهن.

للمــرة الأولى رأى في المـــاء عــدوا، خاف على أطفاله منه، لم يعد يحلــم بالمطر كما اعتاد، لم يعد يغني للمطــر ينتظــره كحلم تأخر كثيرا عن المجيء، الماء يصعد درجا آخر، يصعد، يصعد، الســماء لا تكف عن سكب أنهــار مياههــا على الأرض، لأن البحر لا يكف عن إرسال سحبه الركامية إلى السماء.

5 يونيو 2008

على شرفة الوادي يطل، ومعه البيت المتصدع، وفي عمقه وجيف، القلب الأشد تصدعا..

قلّب الحكايات في رأسه، تركهم الموت وانسحب، خرج من الباب، ومعه الباب الخشبي المنحوت بخفة ثمينة في ورشة نجارة ببركاء، خرجوا من زاوية حاصرهم الموت فيها كثيرا، لكن أي خروج وقد فقدت الأحلام دهشتها، الشقة المؤجرة تأكل نصف الأجر لما يحمله فوق رأسه طوال الشهر، الآلاف الممنوحة له من الحكومة لا تكفي حتى لهدم أركان البيت المتصدّع،

إزالته من الوجود، كأنه لم يكن ذلك الحلم الواقف بصلابة الواثق من يقينه.

النافذة تلوّح له، اختارها بعناية من ورشة في الوادي الكبير..

الشرفة التي ألهبت مخيّلته حين نقشها في رأسه عشرات المرات، وضحك لها في الرسم الهندسي، قال انه سيشرب فيها الشاي كل عصر مع حبيبته، وسيطلان ضاحكين يسترجعان بحثهما المضني عن محل أثاث يكون لديه موسم تنزيلات، يتزودان منه بأثاث بيت أنهكهما بناؤه حتى صرخا: توبة ونبني مرة.

يقف البيت بأقدام هرمة، يحني جزءا من جسده المتصدّع، كقلب صاحبه، يقف صاحبه في مواجهته، بعد عام يأتي إليه مرة أخرى، حام حوله مرات ومرات، لكنه في اليوم الخامس من يونيو يقف التقويم معه، هاجمه خوف قديم قبل أيام، قيل له أن الإعصار سيعود، الإعصار سيأتي مرة ثانية، تلحّ عليه زوجته أن يتزودا بأكثر مما يحتمله المخزن الصغير في الشقة، «لا تصدق كلام الأرصاد الجوية، كل الناس يقولون ان الإعصار جاي مرة ثانية»، جرّب الجوع، البحث عن رغيف خبز في مدينة كانت عامرة بالأرغفة، جرّب العطش، البحث عن زجاجة ماء، الصغار عطاشى، والماء ينفد من المدينة.

5 يونيو 2007

كأن يدا امتدت بماء، فتحت الباب الخارجي، أو أن الباب تهاوى تحت ضغط اللون البني المندفع، لا يكاد يتبين ما يحدث أسفل الماء بلونه البني الداكن، السيارة ترتفع عن الأرض أيضا، يد الماء تخرجها من البيت، لو يستطيع البكاء، لكن الغصة عميقة، أعمق من تخيله، ما يحدث فوق مستوى التخيل والتفكير، شاشة ضخمة تعرض مشاهد من برنامج الكاميرا الخفية،

من اللامعقول والمدهش حد الخوف، خرجت السيارة من باب البيت، ودّعتها عيناه وفي حدقتيهما غصة دامعة، الهاتف النقال لا يأتي بأصوات الأهل تمنحه بعض الأمل في النجاة، ان يسمعهم للمرة الأخيرة، ليقول لهم وداعا، ليقول لأمه والرعب يكاد يخرج روحها أنهم بخير، وأن الماء لا يمد يديه يحملهم في طغيانه البني، لن يقول لها ان الماء صعد إلى نصف البيت، وأنهم في يد القدر يرون الموت كما يرون الحياة.

الشمعات تتآكل، الدمعات تشتعل، لها ذؤابات كالتي للهب.

أمسكت الأم المصحف وقرأت، قرأت بصوت مسموع، وخالد في فراشه الصغير كأنه يستمع للصوت الباكي يقرأ سورة يس.

الماء يغطي المكيف في الطابق الأرضي، يزحف باتجاه الجالسين على بعد متر منه، حمل الطفل، وقال للأم القارئة اصعدي للسطح، لعله يعصمنا من الماء، قالت: ان الله سيعصمنا، انه على كل شيء قدير.. السماء تلقي ماءها، والأرض تتفجر بالماء، والليل أعتم من كل سواد.

5 يونيو 2008

جرفته الشائعة، أيقظت الخوف مرة أخرى، ثار بقوة، أكبر مما كان عليه قبل عام، يكاد يسمع صوت الصراخ ينزف من شرايينه، غالب خوفه ودخل إلى البيت، المرتجف كحلم مفزوع، شيء في صدره يكاد ينزلق إلى الأسفل، شاهد الدرجات التي كان يصعدها اثنتين اثنتين، معفرة بأتربة تركها الوحل تذكارا مغبرا يعصف بأمنيات قديمة مرت من هنا، حين كان يضع العامل الهندي الرخامة الأولى في السلم، وحين أضاءت الكهرباء البيت للمرة الأولى، ترك

جميع المفاتيح صادحة بالضوء، ارتدت معه فرحه بأن يكون له بيته الخاص، جرف الإعصار أمنيات لا تحصى، ترك لهم الخوف، منذ تلك الليلة التي أنبت ماؤها شوك الحكايات، لم يدرك حجم الكارثة إلا بعد أيام، كل يوم تلقي الكارثة بأخبارها، الأم التي أرادت إنقاذ أبنائها من الغرق داخل البيت فوضعتهم في السيارة، دخلت البيت لبعض شأنها، لكن السيارة، وحين عادت إليها، لم تكن إلا نذير موت لكل الأبناء، المذياع الذي لا يكف عن نقل صيحات مستغيثين يطاردهم الماء من طابق لآخر، الآلاف تحملهم الطائرات من فوق أسطح البيوت، الغبرة تغرق، الحيل، الموالح، وهناك قريات، طمس الماء معالم الأمكنة، حوّلها إلى خرائب كأن الحياة لم تمر عليها آمنة مطمئنة.

في الشرفة التي كان يزغرد فيها الحلم وقف..

فتّش عن أشياء تربك عقله، يريد فصلها عن بعضها ليجد الخيط الموصل إلى رؤية ما عبر... تكاثفت الصور أمام الرؤية، المكان المؤثث بالفيلل الجديدة أصبح خربا، تلوذ كلاب الذكريات به متشردة في خرافة الحكايات، الماء الذي كان يحمل السيارات كعلب معدنية تافهة، الماء الذي كان يدخل مخازن المحلات التجارية الكبرى في القرم فيحمل كل شيء إلى غاياته الأخيرة.

رآها تلك الدمعة في عيني زوجته، شارع الحب منكسرا، مذبوحا بسكين الماء، حديقة القرم منتهك جمالها الذي عشقه، كأن يد الخراب مرّت عليها حاقدة بأكثر مما ينبغي لحاقد.

5 يونيو 2007

انتصف الليل..

ما زالت السماء تلقي بمائها..

والبحر من ورائهم يرفض قبول هدية اليابسة له، اعتاد أن يفرش أمواجه للقادم إليه من تلك الجبال، لكنه غارق حتى شاطئه بما تقذفه به الأمواج الهادرة، الصاخبة بعلو غير معهود، كان ماء البحر يتجول في الأحياء القريبة منه.

على سطح البيت يراقب طغيان الماء، ظن السطح عاصما أخيرا، ربما سيأتي الفجر بالشمس وستكف السماء عن لعبتها القاتلة، سيكف البحر عن إرسال ركاميّاته باتجاه السماء فوقهم، شعر بتعب شديد، لكن عليه الاستقواء، كأنهم في قارب وسط محيط، يتوقع أن يغرق القارب في أي لحظة، لم يبق إلا سطح غرفة السلم، سيصعد إليها فيما لو استمر صعود الماء في المسافة الفاصلة بين الأرض والسماء، تفجّر السؤال مرعبا: ماذا لو انهار البيت؟!.

خارت القوى، أغمض عينيه دون المشهد المترائي من بعيد، أي طوفان هذا الذي سيبتلع مسقط.

هدأ المطر قليلا، الرؤية حوله قاتمة، الكون بحيرة واسعة تسبح فيها المنازل كلعبة من الخيال العلمي.

5 يونيو 2008

بعد دهر من السنوات صعد الفجر إليهم، حمل أبناءه سباحة إلى الجانب

الآخر من النجاة، تلقفتهم النجاة بملابسهم الموحلة، استعاد رؤية المشهد، من هنا مروا سابحين، الصغير خالد الذي رفعته اليد فوق مستوى الماء، يبحث بشفاه عطشة عن زجاجة يشرب سائلها، وزجاجة الماء في مسقط كنز لا يمكن الحصول عليه بسهولة، كأنها لم تكن هي المدينة التي كانت قبل أقل من يومين، مدينة أشباح مقطعة الأوصال، مغمورة بالماء، محطمة الأوجه، قاسية بأوحالها، أوصدت أبواب شوارعها، حطّمت أيدي الماء وداعتها، خربشت السكينة النائمة في أجفانها.

ترك الشرفة أمام انهيار الذكريات فوق رأسه، وجهه يقطر، عرقاً ودمعاً، تساقط مخيف يحدد المسارات حول عينيه وأمامهما، كأنه الصوت يطارده، يخبره بأن سيارته التي كانت لديه قبل عام شوهدت تحت ركام الطمي، كأن صاحب الشقة التي يسكنها يطالبه بزيادة الإيجار للمرة الرابعة، كأن الطرق أمامه سدّت أبوابها، وبقيت أقساط البنك التجاري والبنك الإسكاني ووكالة السيارات تحفر له قبره الذي لم يستطع الماء أن يوصله إليه قبل عام..

اســتدار بسيارته مبتعدا عن البيت، البيت الذي يحني هامته إجلالا لماء عبث بالحديد والاسمنت في أسسه، على المرآة العاكسة يبدو البيت موحشا، الصورة تهتز في الحدقتين الغارقتين، سقطت السيارة في الجزء المقطوع من الشارع، الجزء الذي أخذه الماء قبل عام، تاركاً حفرة كبيرة، كبيرة فوق حد التذكر.

ذنب

لا تبتئس يا صديقي، اختارك طريقك، أو اخترته، كلاكما وجد الآخر فسرتما معا..

أرجوك، كف عن بؤسك قليلا، كل منا يحمل بؤسه بطريقة ما، يضعه في صدره ويمشي، قد تتساقط علامات دالة على بعض ملامحه، لكن علينا أن نمشي، باية كيفية كانت، يتوجب السير على أقدامنا، تتبع الخطوات الواجبة والمكتوبة، قدرها اجتياز المسافات المقدرة، ثم يحين أوان وصولها، دون أن تدري، يتسلل عرق مالح إلى الجروح القديمة فيذرها للريح تعبث بها.

هكذا أنت يا صديقي، تجترّ حزن البارحة، لكن لليوم أحزانه الأخرى، لا تراكم الأحزان فوق بعضها، ستثقل كاهلك بلا فائدة ترجى، سينكسر ظهرك وقد أتعبته الأحمال.

يضع صديقي أحزانه على طرف لسانه يرويها، لا أدري كم من الزمن مرّ وهو يروي، يفتح جراحه للعابرين على قارعات الطرق، للقارعين أبوابه في المساءات المتراكمة كأحزانه.

ألح عليه الكفّ عن السقوط في متاهة فضّة، أقول له ان للوجع حيله ومباغتاته، أقول له: ضع أحزانك على طرف لسانك وتخلص منها بالحكاية وراء الحكاية، لا تخجل مما فعلت، يحدث باستمرار في هذا الكون المفخخ بتحرشات أرواحه وأجساده، مليارات الأرواح تهوم في الأفق المترامي على

غير هدى، وأجساد تخلصت منها آوت إلى التربة لتنبت أجساداً لا تحصى، هكذا جسدك، حصانك الكابي، الممزق بالسياط وألسنة النار، هو الحامل لروحك مهما حاولت التخلص منه، جروحك عليه تراها، رغم أن الروح ممزقة فوق حدود الرؤية.

أصدقك إذ قلت انه لا ذنب لك، وان المائة بيسة التي وضعها في يدك الشاب ذو الشارب كان لها طعم شهي ذات فجر من السنوات، وأنك ترددت في منع يده من قرصك على خدك، قلت في خاطرك انها قرصة وتمضي، خاتلتك، ظننت أنها عابرة ومشاكسة، تماما كما يحدث في هذا الكون من حولك، تعفّر ظهرك بغبار السنين تجرّ أحمالها فوق ظهرك، وما تبقى في وجهك من وسامة كانت حبلى بالتشهي.

أصدقك، يا صديقي، الحقيقة على فمك لها طعم حارق، أصدّق الحقيقة بمذاقها الجحيمي المغتال للروح قبل الجسد، كأنها القبلة الأولى التي زرعها الشاب ذو الشارب في خدك باقية نسيتها السنوات العشرون، وكأنها قد فاجأتك، وددت لو رددتها بصفعه، لكن اليد التي همّت بالصفع قبضت على المائة بيسة، اخترتها بشغف طفولي له شقاوة الروح مهما تجرأ الآخر على الجسد، قاضما منه ذرة لا ترى، لكنها أشعلت أتونا لم يكف عن الاشتعال.

أمض في الحكاية يا صديقي، لها قدسية البوح، أعرف أنك ذهبت ثانية لدكان علي الهندي، واشتريت هذه المرة شنطة روتي، للمرة الأولى تمتلك حق أكل شنطة روتي كاملة، لا يقاسمك فيها تسعة من اخوة لم يعرفوا يوما الشبع، كأني لمحتك تحت شجرة الأمبا تجلس تفتح الكيس النايلوني، وأنفك الشامم رائحة شهية للخبز يسافر بك فوق قمم النخيل الحائمة حول رأسك بقممها

الندية، مختلف ما تلتهمه عن خبز أمك الذي اعتدته منذ أن كنت في القماط، تسحك باتجاه الطوبج فتمنعك خوفا عليك من النار، رغم أنها احرقتك بها أكثر من مرة حين كنت تبكي كثيرا، الساعات الطوال التي تبكيها باغتتها أمك بحروق في فمك ولسانك، ويدك التي امتدت لجرة جدتك من السمن لسعتها حرارة السكين الساخنة التي وضعتها جدتك على يدك عقابا، كأني لمحتك يا صديقي تنهش الروتي، وتتذكر قرصة اليد على خدك، القبلة التي تركها الشاب ذو الشارب على خدك، وتكاد تشعر بها حروق جسدك تسكن دفعة واحدة، الحروق التي تركت آثارها على لسانك وفمك ويديك.

صديقي، خجل تروي، تحلف بالله مرات بعد مرات أن الأمر تم بعفوية، لا تدري أي رمح ناري انغرس في باطنك، ممتد من تلك الطفولة البائسة والمحرومة، يحوم حول روحك محاصرا، يكسرها كلما عنّ للجسد التمرّد على رغبته.

تقول انها حماقة كانت..

أصدقك يا صديقي أنك ما كنت تقوى على رفض نصف ريال مرة واحدة، لا تحلف، أراه الشاب ذا الشارب يلوّح بالنصف ريال أمام وجهك، ويقول لك أعطيك إياه غدا إن لم تعاند، قلت في نفسك سأذهب، أحتاج « الغوازي » لأشتري فانيلة من دكان الشايب سليمان، سآخذ « الغوازي » منه، لن يقتلني.

ورأيتك تذهب إليه، مشى بك إلى بقعة كأنه اختارها عصية على العيون، تحت شجرة الليمون وقف، أخذ بيدك إلى جذعها الصلب، مارستما لعبة القط والفأر، يضحك هو، وتضحك أنت، وعيناك على جيبه تتساءل متى سيعطيك ما وعدك، يتلمسك وأنت تتقن التملص من قبضاته كأنك تلهو، أحسست بك تصفعه حين احتضنك من الخلف، استدرت وصفعته بقوة، لا

تدري أي قوة واتتك، استدرت بكف من حديد أطبقت بقوة على خد الشاب ذي الشارب.

وأنت تتحدث لا تخجل، يحدث في الطبيعة ما لا يروى، لكنك تروي، كأنك تريد الاعتراف متخلصا من ذنب يحاصرك، لا تصدق الذنب، أنا أصدقك، يأخذك الطريق إلى البيت، خطواتك تدفعك كيفما تريد في ذرعها للمسافة الفاصلة بين شجرة الليمون وبيتكم، كأني أراك تذهب للبيت تبكي، وضربك ابوك لأنك تأخرت عن البيت، وشتمك أخوك لأنه رآك تذهب مع الشاب ذي الشارب، ورفضت أمك توسلاتك بأن تصدقك، بأنك لم تفعل شيئا كالذي فطنت إليه، لا تخش البوح يا صديقي، أنا أصدّقك، ربما للمرة الأولى تبوح دون انتظار باكور تمزق جلدك، أو نار تحرق فمك ولسانك ويديك.

كأني ألمحك، عبر ثقوب الحكاية، تهرب من كل شيء، وتذهب إلى الشاب ذي الشارب، تطلب منه النصف ريال، فلا يلتفت إليك، منطلقا بشتائمه بعيدا عنك، تأتيك الكلمات بأحجارها، يسألك عن جدوى العناد إن كنت تحتاج "الغوازي"، لا تفطن انه يريد أعمق مما تظن، وأن الجسد ليس ملامسة لقشرة خارجية، تلك لا تستحق نصف ريال، خمسمائة بيسة كاملة، تكفيك لشراء القميص الذي رأيته في دكان الشايب سليمان.

أشعر بك يا صديقي، وأنت تنتظر بجانب الساقية، لعل الشاب ذا الشارب يمر، تمشي قرب بيتهم، قد يخرج صدفة، لا تفكر بالنصف ريال الآن، كأن خدرا باقيا من احتضان البارحة لا يزال ملتصقا بك، لعبة القط والفأر لذيذة، مسلية، للجسد نوازعه.

يحدث ما يحدث لأنه يجب أن يحدث..

يا صديقي، مرت الحكاية، لكن يجب أن تنطلق من عقالها، مؤلمة حين تحبسها في جسدك، وروحك تنفلت من قضبانك تستشعر مذاق الحكاية.

صدقتك إذ قلت، وإذ حكيت.

زوج عمتك، يجلس بستينياته يسفّ في المبرز الطيني ماضغا وحدته، يشكّل من الخوص ما يمكن أن يكون بساطا، سمعتك تقول له: عمي علّمني كيف يتجمّع الخوص فيكون سفّة تطول وتطول.

قال لك اقترب، فاقتربت.

لامس كتفك كتفه، شعرت بذات الدفء حين مارست لعبة القط والفأر تحت شجرة الليمون، تسللت يده إلى أسفلك كأنها أدت دورها بعفوية، لم تتحرك عنها، غرس أصابعه أكثر، كأنك بعد قليل كنت تجلس على يد الرجل الستيني، أصدقك أن إحساسا غريبا باغتك، اليد التي انغرست أسفل جلوسك تجرأت أكثر، وأنك لم تشعر بما حدث في الفاصل بين اللمسة الأولى التي حطت أسفلك، والرمح المنغرس بصخب حارق فيك، لا يستجيب لصراخك المكتوم، وأنك خرجت كأنك لم تكن أنت، عطب بالغ حملته، لم تقدر على المشي، ذهبت إلى شجرة الليمون، وتوسدت حجرة هناك، ونمت بألمك.

لا تبتئس يا صديقي، اغسل تلك المرارة من حلقك، لن يجدي شيئا، أصدقك كأني أشعر بحرقة الكلمات على لسانك، مهما دفعت المرارة لن تذهب، آوتك اللعبة إلى حلقها، كأني أراك تنتبه لصوتين يأتيان من أسفل شجرة ليمون مجاورة، رأيت الصدفة التي رأيت، الشاب ذا الشارب وفي يده النصف ريال الذي رأيته قبل يوم يحطه في يد أخيك.

ساعة وعقارب

ساعة أن شعر بطعنة في باطن قدمه أدرك بسرعة وصرخة أن ثمة كائنا صغيرا مختبئا داخل القماشة القديمة يأخذ قسطا من الراحة، والقيظ يلقي بحرائقه على أجمات النخيل، أوصاه والده أن يسد بإحكام الثغور المتسلل منها الماء تحت كل صوار(!) وعلى امتداد الساقية، المياه تنسرب كل قيظ بعيدة عن روافد الفلج، يتبقى منها نزر يسير، يعبر الساقية الممتدة على طول القرية، كل صاحب حق يأخذ حصته وفق ساعة الظل المحسوبة بالأقدام.

لكنه الآن يمتلك ساعة، لا يحتاج إلى رصف أقدامه ليعرف أن الظل حين يبلغ ست خطوات معناه أن الوقت قد أزف لبلوغ حقهم من الماء.

راقب ساعته جيدا، حصتهم من الماء حانت، نقل الصوار الثقيل من مكانه ليسدّ به الطريق السابق للماء، فيتخذ طريقه إلى نخيلهم، أكمل المهمة وابتسم، واتته رائحة طيبة من الأمس، تيار الماء الصغير يسير بضعف إلى ضاحيتهم[2]، تذكر تعليمات والده، رأى قليلا من الماء ينسرب من تحت الصوار، ضغط على القماشة بقدمه لرتق المسافة التي لا تبين بين قعر الساقية وحافة الصوار السفلى.. وصرخ.

لا حاجة له أن يعرف السبب، موقن بأنها عقرب، العقرب الصفراء التي يراها في مناماته كثيرا ، رافعة رمحها فتشعل جسد الضحية بالسم الأصفر المقزز، وقدمه تشتعل، يتمدد سمها الذي يتخيله يسير بصفرته المقززة في كامل رجله، لم يعد طفلا ليبكي كما كان يفعل قبل سنوات، فقد هذا الحق

كثيرا، رأى الطفل الذي كان ينام تحت أشجار النخيل أو شجرة المانجا الكبيرة التي يستريحون تحت ظلها صيفا مترقبين الهواء المحرك لأغصانها والمسقط لثمارها، رأى عقارب لا تحصى، بعضها تحمل أولادها على ظهرها، ضربة من نعال أو كربة [3] كافية لهرسها مع أبنائها، يرى السائل الأصفر يخرج بثقل مقيت.

لكنه لا ينساها، العقرب الصفراء الرافعة رمحها بجنون، كبيرة بحجم كف، بما يشبه الوحي قال له انهض وانظر إلى فراشك حيث شريك لك فيه يطلب الدفء، انتفض من رقدته، كانت على حافة الفراش، أراد قتلها كما يفعل في كل مرة يرى بنات جنسها، لكنها تملصت من الضربة الأولى، ولم تهرب، اتجهت إليه، بسرعة وصلت تحت أقدامه فقفز عنها مطلقا صرخته، تكاد ترفع نصف جسدها لتشرع رمحها عاليا، للمرة الأولى يشعر بالخوف من العقارب، أحس أنها تريد الانتقام باسم كل اللاتي هرسهن سابقا، اهتز بدنه بخوف حقيقي، اختفت، وبحث عنها، ولم ينم ليلته تلك، ولا ليالي أخرى.

بعدها لم يقتل عقربا، يهرب من مرآها حاملا خوفه بين يديه، نصحته جدته أن لا يضرب القطط بالليل، بينها ما يندس الجن فيها، القطط الصغار قد تكون أبناء جن، رأى في العقرب الصفراء جنية، ورآها في مناماته كثيرا، تزحف إليه، جنيات يرتدين جلد عقارب، جنيات لا يحببن أجساد القطط.

حدثه معلم القرآن عن عذاب القبر والأفاعي الضخمة التي تنهش الميت حين يتركه أهله في حفرته تلك، لم يخف، الأفاعي كما يراها لا تبادر بالشر، لكن حينما حدثه المعلم عن قصة الميت الذي سمع أنينه لأن عقربا كان يلدغ عظامه خالجه خوف شديد، وتعرق جسده، وخرج من مدرسة القرآن والحمى تصيب بدنه باهتزاز.

يكره رؤيتها معروضة في المتاحف، وفي الكتب المصورة.. يعود عن ملذاته خشية من العقارب الهاوية إلى جسده، يتحسس عظامه، الإبرة التي تغرس نارها في العظم فيتأوه الميت من جمرها، يقول معلم القرآن انها ضخمة جدا، ورماحها نارية تضرب بسمٍ لا يوصف جحيمه.

سحب قدمه بثقل مداريا ألمه، الماء يسير بتؤدة إلى نخيلهم، سنوات أخذته حياة مسقط عن قريته والضاحية التي لم يهجرها والده كآخر ما تبقى من ماضيهم، أراد اليوم استعادة أمكنة وذكريات قديمة، يجرب فعله العتيق، يسقي ضاحيتهم بماء الفلج..

الألم يتمدد بحرائقه داخل جسده الشاب، غرس الطبيب حقنته في أعلى رجله، فهدأت حدة التوجع، راقب مرور الأرقام على ساعته، تذكر يوم أن سأله والده أي نوع من الساعات يريد ليمتلك ساعته الأولى، طلبها أن تكون ذات الأرقام، يكره الساعات العقربية، عقرب كبيرة وعقرب صغيرة تدوران فتلتقيان وتختلفان ويمضي الوقت.

الأرقام مؤنسة، وبها المصباح الصغير المضيء في ليل القرية بأناقة، خجل من أسرته وقلقهم عليه، تغامز بعضهم أن تلك القضية الكبرى سببها عقرب. حاول أن يبتسم لولا أن مفعول المخدر بدأ ينسحب لصالح الألم، هبّت أمه إلى جارتها وعادت إليه بنوع من العطر الرخيص، زجاجته أشبه بجسد راقصة، صبّ قطرات منه على مكان اللسعة، وأصر على الاحتفاظ بالزجاجة كأنها مفتاح الأمان.

كبر جسده بحكم السنين، وهو يطارد عقارب الوقت، محاذرا عقارب الزمن، نسي وهو يسير بين رماحها المشرعة بسموم متعددة ومتغيرة عقارب الساعات.

وضع ساعة على كومدينو سريره، هدية صغيرة وصلت إلى طفله الصغير

من مدرسته، ضبط منبهها على أذان الفجر، محتملا تكتكتها طوال الليل، واعدا نفسه بأن يبعدها اليوم التالي، لم يفطن إلى أن بها عقارب كالتي حمل خوفه منها زمنا.

أشعلت الساعة صوتا أشبه بالجنائزي وكان المؤذن يرفع صوته «الله أكبر».. بوغت، انتفض من نومه بقوة، مأخوذا، مستعيدا ما يشبه الوحي حينما أخبره ذات مرة أن كائنا بحجم الكف يشاركه فراشه، بوحشية حطم الساعة الصاخبة، بين صحو ولا صحو رأى عقربيها تخرجان من الدائرة الزجاجية، ودّ لو لم ينكسر الزجاج، لو اكتفى حين أمسك بالساعة وطرق بها أرضية الغرفة أن يتخلخل داخلها فقط، فتح عينيه، العقربان ليستا في مكانهما، خضه الخوف بقوة، نظر إلى أسفل السرير، عاوده خوفه القديم من العقرب الصفراء الضخمة، الرافعة رمحها برعب لئلا ينغرس في جسده.

لم يجد عقربي الوقت..

والساعة لم تتخل عن لحنها الجنائزي.

أذهلت زوجته بما رأت، فتشت فوق السرير وأسفله عن عقربين.

ثمة خدر يتسلل إلى جسده، يرى نفسه يسقط في بئر عميق، والمؤذن يكرر «الله أكبر»، ومن ذاكرته البعيدة واتته صورة زجاجة العطر التي تشبه جسد راقصة.

الهوامـــش:

1 - الصوار: لوح خشبي وقد يصنع من جذوع النخيل طوله نحو متر (أو حسب عرض الساقية) يستخدم كحاجز للماء.

2 - الضاحية: قطعة الأرض المزروعة بأشجار النخيل عادة.

3 - كربة: القطعة الخشنة والأكبر من سعفة النخيل.

سليمان

.. إلى الراحل سليمان العامري، وراحلون كثر حصدهم العمر في ساعة غفلة، فبقينا بعدهم نلوّح بقلوب مسّها الحزن: للغائبين مواعيد من فراغ، كامتلاء اللحد بالتراب فوق أجسادهم، الكومة الناتئة عن صدر الأرض تبلغنا: هنا، نهاية المشهد.

سيمر عامان يا صديقي، لم أرك.

ولم ترني.

سأمتلك فعل التذكر، الحقيقة الجائرة في كفي، والوهم الحائر في كفيك، وقد لا تدركه في غفوتك، هناك، في العالم المحكم الإغلاق.

في ساعة لا أدركها من الليل أتيت إليّ، لا أدري ما الذي استدعاك أخيرا نحو مناماتي، مع أنك لم تكف عن إغواء الذاكرة أن تستدعيك، في المنام اقتربت مني كما لم تفعلها من قبل، أخبرتني بما لم أتذكر، وقلت لك بالذي لا أنساه.

....

....

في صباحي القادم بعد حلم اجتهدت ألثم كسر الكلمات، ماذا قلت لك، وماذا قلت لي؟.

الكلمة غابت كغيابك، شيء غامض غاص بين خيطي الليل والنهار، بين الأسود والأبيض، سكن المنطقة الرمادية، في حضور الصبح لم أتبيّنه، وفي غياب شمسك باغتني الفقد كأنه يحدث للمرة الأولى، وغيابات من نحب تحدث بتكرار مقيت.

يضحك سليمان بشفافية الحياة، يراقب بيته الجديد، ينمو على مهل، تأخرت يا سليمان في مشروع العمر، يضحك سليمان كما اعتاد وجهه، يرفع النظارة السميكة عن عينيه بإصبعه، وقد اعتادت على حرفية التوجه نحو حافة الإطار، يتحدث سليمان وفنجان القهوة يرتعش على وقع ضحكته عن سلفة وزارة الدفاع، عن قسط البنك، عن الجمعية، عن الأراضي التي باعها من أجل هذا البيت، وعن أولاده الذين ينتظرون سقفا جميلا يضمهم كبقية باقية حين يودعهم للمرة الأخيرة.

تهاوى السقف قبل أن يكتمل البناء، سقف الفرحة.. وودعهم قبل أن يكتمل سقف البيت.

« سليمان مات »..

شاشة الهاتف تكتب النعي بحروف تهتز حيث الخيط الأبيض ينفصل عن الأسود من ليلة فائتة، كنت هناك على فاصلة الوادي تغني مع أيوب طارش « خذني معاك »، تقول للسهارى ان الضحكة باذخة المعنى، والحياة ملهمة.

الحروف التي نعتك إلى عيني حاضرة كالوجود من حولي، وقد أخذت وجودك معك، هل تدرك يا صديق أنني اشتقت إليك حقا، ولا أتلاعب بالكلمات كما تظنني دوما، وأنني أمنّي نفسي بالمستحيل، فلا أنت تأتي إليّ.. وليس بوسعي خيار الذهاب إليك.

باغتتني كرؤيا.

وانسحبت، هكذا فجأة، عنّي، دون أن تطفىء جمر الشوق إليك.

أوقدت فحمه وقد كاد يخبو وقلت لي: تذكر، واحتمل جمر التذكر.

أنت الميت الذي تدعو الحي ليفعل ما يستطيعه الأحياء مع الموتى.

هل سأضغط على اسمك المكتوب ضمن قائمة الأسماء على هاتفي النقال، ماذا سيأتيني لو فعلت؟ أخشى أن تكون حقيقة غيابك أقسى من أملي في أنها إشاعة.. فعلتها كما فعلها آخرون غيرك، تركوا لنا رقما في هاتفنا النقال يدل عليهم، واشتعالات من تفاصيلهم الصغيرة نكتوي بها في غيابهم، وقد كانت بهجتنا حينما لا نفكر سوى في الحضور.

هل جرّبت فعل التذكر لغائب تثق تمام اليقين أنه لن يأتي مهما تلظى جمر الشوق في كبدك؟!

لعلها فعلتها، أخوك الذي أرهق قلبي حزنا حينما رحل قبل عام، رأيت تلالا من الأحزان في عينيك رغم سماكة نظارتك، تلال الحزن لا يحجبها الزجاج، هكذا أعود للتلاعب بالكلمات، وأشعر بها ضحكتك تأتيني، على صحن الفاكهة التي ذقتها في مرّة لقائنا الأخير، والحلوى التي احتفت بحضوري، وفنجان القهوة الذي صنعته بيديك استثناء من أجل صاحب جرفته أودية الأيام، لكنه لم يتباعد عن جسر القلب.

عامان صرخا بالحنين مرات ومرات، لكن ما نفعه مع غائب يندس في الأرض ليباغتنا بحضوره متى أراد؟.

كأنك هنا، سليمان، تقول آخر كلماتك فنضحك بغفلة عن الزمن الذي سرقك على غفلة منا.

كأنك على جدار البيت، ننتظر حضورك فجأة لتقول لنا كما اعتدت: تفضلوا، ادخلوا المجلس.

كأن تلك النسمة الهابطة على ضفاف وادي سرور ستبوح لنا أين تختبئ، ستفاجئنا بمجيئك.

السيارة التي هبطت من الجبل الأخضر لم تنتظر دورتها الأخيرة عند السفح، خدعتك، خدعتنا جميعا، تسرّعت لتبلغ السفح مرة واحدة، وكان القدر هناك يأخذك، ومعك كثير منا، كما معنا.. كثير منك.

وصل سقف البيت إلى مكانه، لكن أطفالك، وقد كبروا في غيابك، هربت فرحتهم بالبيت الجديد، وإن لم تسكنه لكنه على وصال بك دائما.

سعادة الشيخ العضو

على حافة الوادي اقعى، أخرج محفظته وناول الخدام المتحلقين حوله عشرات الريالات، يتكاثرون حول المحفظة دون أن تنقص ورمتها، نسوه، وتذكروا الريالات الجديدة التي تكاد تجرح لفرط لصفها.

نظر إلى الأرض المستوية والمسماة أرض الوقف، واجتهد للجلوس وراء مقود اللاندكروزر الجديدة، أدرك فرحتها بأنها تحمله، وزاد من تأمل أرض الوقف من مكانه، لم يغب فؤاده عنها، وهو يغيّب عينيه مبتعدا، عن الأرض وأعين المحظيين بأفضاله.

وقد استوى على كرسي المشيخة نافضا ثلاثمائة عام من الانتظار أيقن ما قاله سعيد الساحر له في غفوة ترامت بين أفكاك الزمن، حدثه بأنه سيصبح شيخا، إن لم يكن هذا القرن ففي قرن تال، وسيكون سعادة العضو، بين أعضاء كثر لن يسموا بأسمائهم، وإنما سينالون لقب السعادة، «سعادتك جيت»، «سعادتك رحت»، و«سعادتك تجمّل».

كرّت عليه ثلاثة من القرون حتى استوى شيخا، ترقب موت والده طويلا، وبدا على فراشه واهنا وكأن الموت نسيه.

كان الشيخ الأب على فراش المرض يبصم لزواره بطرف اصبعه المدهون بالحبر صكوك الأراضي وأوراق الزواج وما يعنّ للقرية في معاملاتها، ودّ لو يقطع ابهام والده ليصبح الشيخ، الأب بقي صامدا على فراشه، في صحواته

النادرة يسحب إحدى زوجاته الأربع ليضاجعها، وحينما تمتنع إحداهن يحل بديلها في فراشها، وفي خلواته يسحب خادماته بقوة إبهامه، وينال منهن راضيات يتبركن بحبل من الشيخ لا يكشف سره، وحسب الوليد ما يندس في جيناته من شرف الأبوّة.

لا يسأل رجالهن عن المواليد المختلفين في ألوانهم، يدركون ويفرحون.. على مضض قليل، وسعادة غامرة يخدمون الراقد فوق فراشه بما أوتوا من نصيب في الحياة الدنيا، وحينما فارق الفانية بكوا كنسائهم. وشعر الأطفال باليتم فأمعنوا بالصراخ.

تتذكر القرية ولا ينسى الناس اليوم الموعود، الشيخ الابن يعود من المقبرة مبتسما، وقال للناس أنا الشيخ فأطيعوني، الحكومة سمتني شيخا قبل أن يقول القدر كلمته الأخيرة في الشيخ الأب، الشيخ الراحل.

وكان القدر كريما جدا، رآه الشيخ بالقدر المتوجب، وعدّه الحاسدون أكثر من اللازم، نبوءة سعيد الساحر تحقق نصفها، وحان النصف الآخر، امتلأت سيوح الولاية عن بكرة أبيها وأمها تقترع للشيخ، ونهض العاجزون ليقفوا امام صندوق الانتخابات، ورأى العميان الدرب ببصائرهم أكثر من بصرهم، ولم يبق بمستشفاها أحد، فصل الأطباء أجهزة المعيشة والإغاثة عن المرضى، قديمهم وجديدهم، وساروا في الركب، يقولون "نعم" للشيخ ليستوي عضوا، ويكون سعادة الشيخ العضو.

نحرت مئات الأبقار على قارعات الطرق الترابية، وكان اللحم تدوسه الأقدام لفرط ما تكاثر فوق احتمال الناس، وشبعت القطط حتى كفت عن المواء، والكلاب وقد نسيت النباح إلا فرحا، وربما دعاء ليطيل المولى عمر الشيخ وعضويته.

تخثر الدم في الدروب المستبسلة قدر حيلتها واحتيالها لشرب ما تستطيعه من ماء الذبائح، لكنها غصت، فتصاعدت الرائحة، وكان المارون يتعثرون بالكتل الهائلة للدم فشكوا أمرهم لصاحب الأمر.. سعادة الشيخ العضو.

رفع الشيخ يديه بالدعاء أن يأتي المطر، وما كاد ينزل الساعدان المرفوعان حتى تكدست السحب فغطت السماء فأظلمتها، وعلى رؤوس الجبال فأخفتها، وانسكب الماء منها ناصع البياض، كاللبن، أو هو أحلى، وجاءت البشارات تترى من عابري الأودية بأنهم شاهدوا المياه جارفة، وحينما هدأ المطر مرّ الشيخ على حارات قريته فوجدها تلقم كل حفرة تنور فيها ما أعده المواطنون الشرفاء (وغير الشرفاء) من لحوم للشواء، تاركين للصغار نظم المشاكيك على (الظبايات) المتوقدة بفحم ملتهب، بدا عيد أراد الشيخ تسميته عيد المشيخة والسعادة، تحسّب لأشياء لم يبدها، وقال للناس كلوا واشربوا.. واسرفوا.

حدثه مستضعفون في القرية بحاجتهم إلى تبديل أسمائهم والظفر بمسمى قبيلة، فمنحهم أسماء ناصعة وقبائل ينضوون تحت مظلتها.

يقف مؤذن المسجد يترقبه ليقف وراءه مباشرة، يرى الصلاة أكثر قبولا حينما يستوي في «السترة» سعادة الشيخ العضو، تمر عليهم الصلوات انتظارا حتى يأتي، وفي خشيته ينسى الإمام ويعذره الحاضرون، يقول في النية ان صلاتي بصلاة سعادة الشيخ العضو حتى يأتي.

مرة، من المرات التي تعرفها قرية سعادة الشيخ العضو، غاب الرجال عن منازلهم، بحثت عنهم نساؤهم وأطفالهم، وجدوهم ينتظرون للصلاة، أياما، ترددوا في الخروج خشية أن يراهم عبّود فيعتقد أنهم صلوا في غياب ولي الأمر.

عاشت القرية في ثبات ونبات، وكانت تخلّف الصبيان والبنات بكثرة لم تعرفها قبل أن ينال شيخها مشيخته وسعادته وعضويته، كانت المياه تجري في أوديتها هانئة مطمئنة، وامتلأت أفلاجها حتى فاضت السواقي، ولم تعرف نخيلها سوى البركة، الرطب على هامات النخيل كـ"الخلاص" وإن لم يكن من نوعها، وأثمرت أشجار الليمون والأمبا حتى تكاثرت في الطرقات، في عز الصيف تعبر النسمات الباردة القرية، ونسي الناس الهبوب الساخن للغربي.

حكت مرهونة، حرمة فاضول، أنها حلمت البارحة بالنبي عليه السلام، قالت انها طلبت من الشيخ، وصحح لها أحد الحاضرين الاسم ليكون كاملا، سعادة الشيخ العضو، ليدعو لها برؤية النبي في منامها، فاستجاب الله لها ببركة من دعا.

وجئته صباحا، تقول مرهونة، وانحنيت أقبّل يديه، وكلما انتهيت من يد ناولني أخرى، وقال يا مرهونة انك لن ترين في الحلم من ساعتي هذه إلاي، وبشري القرية بأنني سأكون رديف أحلامها، أغمضوا أعينهم أو فتحوها.

لم يعد أهل القرية يخبرون بعضهم البعض بأحلامهم، فجميعهم يرون ذات الحلم كل ليلة، ويستكملون أحداثه في ليلتهم التالية، جميعهم، سواء بسواء.

يضع سعادة الشيخ العضو يده على رؤوس المرضى فلا يشعرون سوى بالعافية تضج في شرايينهم، كل خميس تزحف السيارات من الأمكنة القريبة والبعيدة طلبا لبركة سعادة الشيخ العضو، يقرأ على الماء فيتحول إلى دواء، وعلى المريض تقديم ما يستطيع، لا يقول المعالج انه من أجله، بل لأولئك المتخفين الذين لا يعلمهم إلا خالقهم.. وهو.

يبتسم سعادة الشيخ العضو لعدسات التصوير وهو يسلم الجوائز لفريق قريته المكتسح لكل منافسة، تضع الصحف صورته على واجهات صفحاتها الأولى، وحينما أكمل العام الخمسين بعد المائة منذ استوائه على مسمياته المستحقة لم يكن بمقدور أحد فتح جهاز تلفاز إلا رآه فيه، وحينما أكمل المائتين لم يكن يعرف أحد شكل القرية، حتى قيل بأنها تطير بجناحين من نور إلى السماء كل ليلة، مرة تسبح لله الذي خلقها، ومرات باسم سعادة الشيخ العضو، تنسى ربها هذه القرية، وتكاد تعبد شيخها سعادة العضو.

قال عبّود حينما طرده سعادة الشيخ العضو ان الشيخ نقصت سعادته لأنه مصاب في قدرة عضوه، سمع الشيخ بشائعة عبود الذي صار يهذي أكثر بعد أن رأى زوجته تخرج ذات فجر واجفة من تحت أشجار الموز في مقصورة الشيخ، وقال له الخارج بعدها بقليل انه مستحق للمشيخة والسعادة والعضوية وخالد مخلّد رغم أنف الزمان والمكان.

في أحوال الشيخ «ش»

لا يتوسم الكاتب أي حالات تشابه، إنما يتركها لمن على رأسه بطحة فيتحسس.. كرشه الملفوفة بحزام الخنجر.

شكر

أبقى نظره صامتا باتجاه سير الماء المنساب إلى (جلبة)1 النخيل، زحف الماء إلى اليابس من الأرض، وارتوت حد الغرق، غالب جفافا داخله، لم يسمه، بعيدا عن المسميات، ينهض فجره ويمضي في هدف واحد فقط.

مجرد ثور في ساقية الشيخ.

لا يدرك ذلك جيدا، يبدأ صباحه بشكر الله وحمد الشيخ، وينهي نهاره بحمد الله وشكر الشيخ.

رضا

أرغى وأزبد، مقتربا من الواقف على صوار2 الفلج، يود لو يضربه بالمسحاة3 في يده وقد لوى عنق الماء دون الوصول إلى حيث يسقي نخيله.

رأى الواقف ينظر نحوه باستكانة بالغة التأثير، سكت، تبادل النظرات معه، ويده راجفة على مقبض المسحاة.

مد بصره نحو النخيل السائر إليها الماء.. كانت نخيل الشيخ جذلى بالماء المغرق لأرضها، ضغط على خشبة المسحاة بيده، ومضى.

قناعة

أحس الشيخ بألم في خاصرته ذات صباح، قلقت عليه زوجاته، وأولاده، وخدَّامه، ورجال القرية ونساؤها وأطفالها، وسائر كائناتها الحيّة.. والجامدة.

مساء حزم حقائبه، وفي الصباح التالي كان على متن طائرة حملته للعلاج في الخارج على نفقة الدولة نحو شهر.

بعد أسبوع عاد، وقد أسرّ لزوجته أنه استفاد من مبلغ العلاج، والتقى وزيرا هناك، وكتب له رسالة طلب لمنحه قطعة أرض زراعية سكنية تجارية صناعية.

سألته زوجته ببراءة: ليش ما يعطوك السيح كله؟ صاه حالنا النص منه بس!

وأجابها: ما بغيت، تعرفي أني أراعي مصلحة.. البلد.

إخلاص

وهو على الطارقة5 تسير به نحو المقبرة ود أن يهبط، يخابر4 الشيخ، ويسأله لماذا كلف نفسه وخرج في هذه القائظة من أجل جنازة خادمه!؟

وهو على الطارقة تمنى لو أنه مات في السبلة العودة6، حيث يقعي في انتظار الأمر ليصب القهوة في الفناجين الخزفية، مقتربا من أعيان القوم والناس المهمين، ويبتسمون له حين يتواضع أكثر.

وهو في جنازته تذكر فرحته بالريال الذي وهبه له الشيخ ذات عيد، ودّ لو يخبر زوجته أين دسه ضنا به أن يقع في يد راعي الدكان.

انتظار

حين مات انتظروا الشيخ طويلا، هبّ الرجل الأسمر صارخا بعدم جواز دفنه إن لم يأت الشيخ، تململ البعض، وخشي البعض من التململ.

الشيخ في جواله لا يرد، والجثمان ينتظر الورى ليوارى فيه.
صاح الرجل الأسمر واللاصف في القائظة: اذكروا الله، يردد رجال القرية كأنهم جوقة وراء منشد: لاااا إله إلا الله.
عصف الصيف برجال المكان، تراجعوا واحدا بعد آخر، تحت ستار الظلمة التي بدأت في الدخول نحو مقبرة القرية انسلوا، وهاتف الشيخ يردد: تعذر الحصول على المشترك المطلوب.
كان الجثمان مستلقيا على فوهة القبر، والرجل الأسود في خلو المكان نائماً إلى جواره.. ينتظر الشيخ.

تقوى

قال الشيخ لهم بصوت مملوء بدهشة القرية: اتقوا الله، تتهمون إنسانا بريئا بدون بينة؟!.
في الطرف الآخر من سبلته الفارهة كان المتهم يضع بضعة ريالات تحت الوسادة التي تسند ظهره، قبل أن يترك المكان، وقد فرغ من متخاصمين.. وآخرين.
رمق الشيخ الوسادة، ولم يفطن إلى انسلال شخص كان قبل قليل مستندا عليها.

شورى

ركب الرجل السبعيني الحافلة حين صباح، ضمن آخرين امتلأت بهم مقاعدها وما جاورها من.. حافلات.
قال الشيخ للسائق بعد أن صافح الراكبين فردا فردا وبود عميق جدا: تحرك.
وتحرك مع آخرين يفعلون ما يفعل.
هبط الرجل السبعيني، وطلب منه رجال الشيخ أن يقف في الطابور، وأن

يبصم بجانب اسم معيّن حينما يكون وراء الستارة.

شرط العشرة ريالات التي استلمها قبل أيام أن يضع بصمته بجانب اسم معيّن.

.. وقد انتهى من المسألة سأل أحد رجال الشيخ: تو هين نروح؟

أجابه أحدهم بجفاء: روح بيتكم.

المالك

«انتوه ما تهمكم مصلحة البلد»..

كرر الشيخ قوله الحكيم عليهم، أخرسهم مرددا كلاما يكاد يسقط بالصوت العالي ما تبقى من أسنانه المسوّسة.

كانوا يريدون قطعة أرض مجاورة للمسجد يوسعون فيها بيت الله بعد أن ضاق بمصليه.

كرر عباراته أن الأرض تحتاجها البلد للأهم.. لم تغلق عباراته فمها إلا بخروج أعمدة الاسمنت من الأرض، ورؤيتهم اسم المالك.

لم يتفوهوا مرة أخرى بشيء، وعرفوا لاحقا مصلحة البلد.. وشيخها.

مصلحة

في الصباح شوهدت سيارته ذات الدفع الرباعي أمام مكتب الوالي..

وفي وقت الضحى كان القاضي يودعه خارجا من مبنى المحكمة..

وقبل أن تأذن الظهيرة بالمجيء شوهد مع مدير البلدية في السيارة ذات الدفع الرباعي.

وبعد صلاة الظهر كانت سبلته الفارهة على موعد مع رجال مهمين، استدلوا عليهم من صواني الأرز وعليها الذبائح.

بعد ان انفض الجمع شوهد خدّامه وبعض رجال القرية يأكلون ما تبقى في الصواني، والشيخ يودع ضيوفه غير آبه إلا. بالمهمين، وبمصلحة البلد!!

احتراف

وقف على فتحة التنور، سمع الهابط إلى قعره أن (خصفة) واحدة بقيت، كبيرة جدا، لكن النار القوية أفسدت وثاق رباطها، لكنها تكاد تشوي الأيدي المقتربة منها.

تذكر أنها خصفة الشيخ.

رأوه بعد حين يكاد يبكي ينفض يديه المحترقتين، و(الخصفة) على جانب التنور، فجأة ابتسم، كأن (الخصفة) قالت له شيئا، حملها على (العربانة)، ونسي حروق يديه.

هوامش:

الجلبة: قطعة الأرض المزروعة بالنخيل.

الصوار: اللوح الخشبي الذي يمنع مرور الماء على الساقية.

المسحاة: من أدوات الفلاحة.

يخابر: يصافح.

الطارقة: الخشبة التي يحمل عليها الميت.

العودة: الكبيرة.

في ما فات شهرزاد من حكايات

توسد زند شهرزاده، وضع الجانب الأيمن من رأسه على الزند البض، وأغمض عينيه، قال لها: يا شهرزادي، النهر يعطي الطمي للفقراء، سيغصون بالوحل، من لهؤلاء الفقراء؟!

أغمضت شهرزاد عينيها، تسترجع القول، الفقراء، من أين جاء بالكلمة هذا القاتل، فقراء، الـ. فقراااء، نطقتها أكثر من مرة، ومطّت الكلمة مضيفة ألفات كثيرة قبل أن تقف على الهمزة، كأن حجرا سدّ مدخل الحلق، ردد صوتها كالصدى: نعم الفقراء، لهم الطمي في قاع النهر، أتعرفين، أنه أكثر خصوبة؟، لكنهم يحلمون بالسمكة التي في بطنها خاتم سليمان، أو حتى أرزه.

بحث في عيني شهرزاده عن ألق ظنّه وهو يقول سليمان، ردّد الإسم مرة أخرى،لم يكن شهريار يقصد سليمان النبي، الذي تعرفه بلقيس حين كشفت عن ساقيها عند دخولها القصر الممرد، والذي أعاد إليها هديتها لترى بما يرجع المرسلون، شهريار لديه سليمان الممتلك لخاتم اشتهر بفصّه، يلمع بألوان تقبّل أشعّة الشمس في كل وقت وحين، وتستقبل القمر في المساءات.. له أشكال تتبدل، بالليل لها مرأى وفي النهار لها ألق، في زحمة الطمي لم يتذكر الفقراء إلا خاتم سليمان وأرزه "الباسمتي".

كان زند شهرزاد طريا، له رائحة الياسمين الأبيض ولونه اللؤلؤي الذي يلهب جمر شهريار، مرة رآه سليمان فأحرق قلب شهريار بالنظرة، ودّ لو قطع زند شهرزاده، وعنق سليمانه، لكن للزند فوائده، وللعنق سطوته، نظر في مسائه القلق إلى صورته تعكسها مرآة بركة الماء، وأيقن أن الزند لم يخطىء كما أن العين لا تلام.

قصد سليمان، التاجر، القصر وفي جبّته فكرة مفرحة يلقيها بين يدي شهريار، كان زند شهرزاد متوسّدا من الجانب الأيمن لشهريار حين طرق الباب الكبير، وقف وراءه الرجل الذي يلبس جبّة تحتها فكرة مفرحة، غطى شهريار الزند الأبيض الذي لم يخطىء في المرة السابقة خشية من العين التي لم تُلم من قبل..

يا مولاي الملك، جئتك بفكرة أن تصبح أغنى رجل على وجه الكرة الأرضية، سيسمونك ملك الملوك، وبأموالك ستجعل صورة الدبابة التي دخلت بها القصر حصانا أبيض، والدماء التي غطت وجه النهر يوم أن حدثت المذبحة قصة حلوة يحكيها الكبار لصغارهم قبل النوم، لن يتذكروا أنك المنقلب على ولي نعمته، سيرونك المخلّص لكل آلام البشرية، أما الفكرة...

جئني بها سريعا، وإلا فإن السياف مسرور يحوم حول من يحاول خداع الملك، لكأنك تذكر الدبابات والمذابح دون خوف.

فدتك الروح يا مليكي، لذا جئتك بما يجعلك الأفضل بين ملوك الدنيا، تجعلني على خزائنك لتنمو، أضم إليها خزائني فتكبر، ولك كل الحصاد، ولا أرجو إلا رضاك ورأسمال خزائني.

لا آمنك، ولكني سأجعلك وزيرا ، ولتكن وزيرا للتجار، فإن أحسنت سلمتك خزائن البلاد، وإن أحسنت أكثر سلمتك خزائني.

هذا هو لبّ الفكرة ومنتهاها، خزائني ملآى بالحبوب، والناس لا يحبّون أكل الطمي، إنما عشقهم لما يملأ بطنهم.

لا تجعل شعبي يجوع أكثر، سيأكلون خزائنك إن خنقهم الجوع، إن أجعتهم سأرميك للجوعى.

ومنذ أن غادر سليمان التاجر القصر الشهرياري أصبح أهم مخلوق على ظاهر المدينة، في الشهر الأول فاض الخبز من الأفواه، وفي الشهر التالي نقص عدد الأرغفة عن سابق عهدها، علا صوت الفقراء، وصاحوا : الأفواه تزيد

والأرغفة تنقص، بئس البلاد يا شهريار..

يامليكي، إنما هو جشع الفقراء، ألا ينامون على شبع؟

أعد إليهم ذات العدد كي لا أنقص من عمرك أياما.

ومرّ شهر، امتلأت الأفواه فلم يصدر منها صوت، ثم تناقصت دائرة الرغيف، يصغر قليلا فقليلا، لم يعد الرغيف الواحد يملأ الفم، والفم قابل لإطلاق الصوت إن فرغ من محتوى ما فيه.

يا مليكي، إن الفقراء مصابون بضعف النظر، أنظروا إلى الرغيف كيف أن استدارته كأنه صينية، والفقراء لا يشبعون، إنهم يتناسلون يا مليكي أكثر مما تفعل الحبوب، في كل سنبلة مائة حبة، وفي كل حارة ألف طفل.

لن أسلمك خزائن البلاد وأنت تسرق خزائن الحبوب.

لا تصدق الفقراء يا مليكي، الفقراء يكذبون، الفقراء يكرهون الأغنياء.

تعاقبت السنوات، والجوعى يتخاطفون اللقمة، كلما زاد تاجر في البلاد ظهر مائة فقير فيها، وتزايدت الأقوال، فلا ينقص رغيف خبز في «تنور» البلاد إلا قيل ان سليمان باعه لحسابه الخاص، أو أنه خشي على فص خاتمه أن يتأثر بحرارة التنور فيبهت لونه ويذهب بريقه، زاد عدد التجار في البلاد، وعدّ هذا من أفضال السماء على بلاد شهريارستان.

خمسة من أبناء سليمان أصبحوا تجارا، واخوة سليمان وأعمامه وأخواله أمسوا ممسكين على القوافل الرائحة والغادية في رحلتي الشتاء والصيف، وتكاثرت الخواتم على الأصابع حتى لا يكاد المرء يتخيل نفسه صائدا لسمكة دون أن يتوقع فيها خاتم سليمان أو أحد أقاربه.

سألته العجوز الواقفة في طابور الخبز عمّا حل بالبلاد وأتعب العباد فأقفرت الأرض وشح الأكل، فأشاح وجهه عنها، رافعا صوته وهو مدبر أن الأكل سيأتي وسيتعقب التجار الجشعين، فقط عليها أن تكون مواطنة صالحة تكف عن

التذمر وتحزم معدتها قليلا لتخف وزنها الزائد، وتبتعد عن الماركات الرفيعة لتقتصد، وعليها أن لا تقلد الكبار فيما يأكلون، وتتشبه بالصغار فيما يضرسون.

فتعقّبها رجال شهريار يفتّشون في ذاكرتها القديمة بحثا عن سوء الظن، فلم يجدوا إلا كوابيسها تترصّدهم من جدار إلى جدار..

سترخص البضاعة، وسأضرب بيد من حديد على التجار الجشعين.

لكنهم أهلك يا سليمان.

سأبدأ بأهلي، وسأهددهم بالويل والثبور وعواقب الأمور.

ولكنهم أهلك يا سليمان.

سأبدأ بنفسي، وسأفتح « هايبر ماركت » ضخماً جداً جداً، من أجل الفقراء، سأوفر لهم سلالا كبيرة ليحملوا فيها بضاعتهم، وآلة عجيبة تقرأ السعر، وبطاقات يدفعون بها، ومن لا يمتلك الآن سيدفع غدا.

.. وحين توسّد شهريار زند شهرزاده البض لاحت له البلاد بأصواتها تتلو عليه حكايات لم تبح بها هذه الأنثى من قبل، ستحتاج إلى مليون ليلة وليلة لتلقي حكاياتها، الطمي في النهر يثقل الماء، وسليمان يكدّس فصوص خواتمه كأنه يمنع بها جريان الحياة.

يا مليكي، دمت بأمان، خزائن الحبوب في قصرك بها من الطعام ما يكفيك ألف عام، أطال الله عمرك، وعمر كل من تحب.

لكن صياح الجوعى يأتيني..

إنما هو صياح الشكر يا مليكي، يحمدونك، ويشكرونك.

لكنه يأتيني كالصراخ..

تكدّست الحبوب عليهم، فآذتهم، جعلت من عائلتي فداء لهذه البلاد، لهم بين البيت والآخر متجر، ومن لا يدفع اليوم له حق التأجيل.

.. وقبل أن يأذن البطن بالصياح.. أقبل الصباح، فنام شهرزاد دون الطعام المباح..

قيمة

أغرقه حزن مباغت، شفيف بالكاد يستطيع الإمساك به، عميق، لا يكاد يرى قاعه، سعى أن يكتبه قصيدة، لكن الكلمات لا تحتمل حزنه، ذلك الذي لم يكن يعرف جيدا أنه حزن، هو يدرك أي شجن يهجع إليه حينما يودع حبيبة، كأنها آخر أنثى في الكون الممتلىء إناثا، وما شابههن.

هناك: أعطوه قبل قليل ظرفا صغيرا، وعلى ورقة بيضاء (أصرّ أنا كاتب القصة على أن الورقة فعلا بيضاء، بيضاء لولا سواد تلك الأسماء والأرقام المتناثرة، بما يبقيها مختلفة عن أكوام الأوراق البيضاء الأخرى).

في السقف الأعلى من الاستمارة كتبت بخط ثقيل «مكافآت لجنة تحكيم الشعر»، وفي ذيلها الأسفل، عفوا لم ير الشاعر ما في ذيلها الأسفل، ولا كاتب القصة تبيّن ذلك.

قرأ الرقم، ومضى بسيارته العتيقة، حاثا السير في شارع الثقافة، محاذرا الاصطدام بأحد الخارجين من وزارة الإسكان (نسي الشاعر أن قبل وزارة الإسكان تأتي وزارة الداخلية، وأغفل القاص ذلك عمدا).

بعد دوار الخوير أخذته يده اليسار يسارا، وعلى مسافة عدة مئات من الأمتار أخذته يده اليمنى يمينا، أخرج المغلف الراقد بوداعة أنثى في جيبه، بيد يمسك على مقود السيارة، واليد الآخرى يفض بها بكارة المغلف، استغل وقوف السيارة أمام فم محطة الوقود، أحكم إيقاف سيارته، كما أحكم فتح

المغلف أخيرا.. وجدهن 160 ريالا، مكافأته عن تحكيم مسابقة في الشعر، الرقم مطابق تماما لذلك الذي رآه في القائمة المجدولة على الصفحة البيضاء، الصفحة البيضاء المختلفة عن أخواتها الراقدات أكداسا فوق بعضها البعض.

سأله الواقف بجانب السيارة، القابض على مضخة الوقود عن قيمة ما يريده من «بترول»..

قال الشاعر: 160 ريالا.

أدار القابض على المضخة وجهه كأنه لم يسمع، وأدار الشاعر وجهه باتجاه المضخة كأنه لم يقل شيئاً.

لو قال لها «أحبك»

أومأت له روحه أنه عاجز، جسده ينازع أنفاسه من أجل بلوغ غرفته، سيغمض عينيه وسينام، وستأتيه في أحلامه كما اعتادت، سيقول لها انه يحبها، مرّت سنوات عجاف على لسانه لم تتبلل بكلمة أحبك، يداري ارتجافة يده صعودا متكئا على الحاجز الخشبي، لم يعرف سبب مداراته تلك مع أنه الوحيد في البيت الواسع الذي تشير إليه أصابع الحارة بحسد كبير يتضخم باستمرار، وأوهام تتكاثر كل يوم.

غافلته مرآة قبل أن يلقي بقدمه اليمنى إلى داخل غرفته، أرته صورته التي صار عليها، كمن بوغت بوجه غير وجهه توقف عاقدا حاجبيه بشدة، أي زمن رمى هذا الوجه الذي كان مقتدرا على فعل الكثير بين رجال القرية ونسائها؟!

منذ أن بدأت تلحّ عليه في أحلامه يجتهد ليدفع عن نفسه خوفه القديم، أن يقول لها أحبك، كأنه يريد التخلص من عبء عتيق يلحّ عليه، لو فتح فمه بها مرة واحدة سينال ما أعتقده سنوات لا تحصى من العمر انه طوق النجاة، مرّ طيفها عليه كثيرا منذ أن رآها في آخر حلم، شعر بها أقرب مما يتوقع، خيّل إليه أنها تلك العابرة في درب القرية، عادت لتسمع منه الكلمة التي وقفت في حلقه خشية من شيء خطير.

حاول تحريك قدمه ليبعد عن المرآة، لكنها خيّلت إليه أنه لم يصمد كعادته، لحقت به هزيمة من حيث لم يحسب لها حسابا، جذبته المرآة

إليها، استبقته بما يكفي أن يمسح الغبار الخفيف عنها، وضع يده العارية على الجانب الأيسر من سطحها ليرى وجهه أوضح إذا تحركت ذرات التراب الملتصقة، فوجئ بيد ضربتها معاول الزمن بقسوة لم يتخيلها، نسي تأمل ما أحدثته المعاول على جسده، تمسّك بروحه كثيرا، راهن على قدرتها لهزيمة كل شيء.

شعر في صبيحته تلك أن روحه بدأت بالتخلي عنه، للمرة الأولى يرصد محاولاتها التسرب من بين مسامات جسده، لو قال لها كلمة أحبك حينما دسّت في قلبه أول كلماتها لشعر بقوة روح قادرة على البقاء مئات السنين، عجز أن يحتضن كلماتها، خاف، وتبلل جسده بمطر من العرق، هاربا من الجحيم الأبدي، ومن غواية إبليس اللعين المتصور في هيئة أنثى طازجة تبتغي سحبه بعيدا عن الجنة.

في طفولته فكّر في الجنّة فقط، يلعب تحت أشجارها، ويأكل ما يشتهي من ثمار التين والزيتون والعنب، الثمار التي تحمله نفسه ليفكّر بها في مزرعة الشيخ، يصادف مروره تحت أغصانها مع مرور الرياح عليها لكنه لا يأخذ ما تساقط منها، والده معلّم القرآن حذّره من أخذ شيء لا يمتلك حقه، أراد في الجنة فقط التين والزيتون والعنب، قال لأقرانه انه سيأكل منها ليل نهار، لن ينام لحظة.

كبر جسده قليلا، بدأ في نسيان التين والزيتون والعنب، قال له والده ان الجنّة ملآى بالحور العين، من يصبر عنهن في الدنيا سينالهن في الآخرة، تحمّل متاعب حرمانه لجسده المتفجّر، وسأل والده عن الغلمان الذين كأنهم لؤلؤ مكنون، أجابه والده بأنهم سيأتون إليه بكل ما لذّ وطاب، سيغرفون

له من أنهار الجنّة ما يبتغي من لبن وخمر وعسل، أغرته الصورة بالصبر، اكتسبت روحه قوة خرافية، تزوّج قريبته، أراد الأجر وجمع أكبر قدر من الحسنات في كل شيء يفعله من أجلها.

أطلّت النافذة منعكسة على المرآة أمامه، البيت الكبير بقي خاويا، رحلت الأجساد منه، ينظر إلى غواية الشيطان من خلف الضوء المتساقط بكثافة من حيث لا يهتم بأمر، لو صادفها مرة أخرى كالبارحة سيقول لها الكلمة التي خاف من قولها حينما كان الوقت مناسبا جدا، حتما ستعبر الدرب مرة أخرى، نهض من فراشه ومعه الكلمة الأثيرة، رحلت هي إلى مناف لا يعلمها خارج القرية، وبقي وحده يجمع الريالات من جيوب المقترضين، اشترى ضواحي واسعة مزروعة بالنخيل والليمون والمانجا، لم يكن بينها ما ألقت إليه أحلامه بها إذ كان طفلا، ظل شغوفا بثمار تحملها أشجار مزرعة الشيخ.

تحركت ريح سكنت طويلا في قارورة روحه، يد تلتصق بالمرآة، فتبدو يدين تتحديان بعضهما فيمنعهما سطح زجاجي من الشعور بفرحة نصر او انكسار هزيمة، انتصر كثيرا، وهزيمته الوحيدة التي تثقل قلبه تخطف منه بهجة كل انتصار.

الريح تمرق من خلل لا تبين في النافذة فتحدث صفيرا بالغ الضعف، يخيّل إليه أنها إشارات ما يكاد يراها في المرآة أمامه، نسي أمر الصعود، نظر إلى ما أنجزه صعودا وصولا إلى رخام الطابق الأرضي الذي بدا بعيدا على نظره المتكاثف وراء نظارة سميكة، القاعة واسعة والبيت فسيح، لكنه بقي وحده والريح يملآن ما استطاعا من اتساعه، تنغّص عليه هزيمة روحه مداراته طويلا هزائم جسده.

رفع يده عن المرآة، وضعها على مغلاق النافذة، فتحه على الهواء المتدفق بقوة، الدرب خال، كأن الريح كنست كل حي في طريقها، أبقت هنالك الغبار يسير بخيلاء على الدروب الموحشة، لو في ذلك الدرب قال لها كلمة أحبك دون خوف لتغيّر مجرى حياته، وسيسكن معه في البيت أكثر من الريح، وجسده الذي يحاول أن يحمل روحه، أو روحه المتعثرة تحت وقع خطو جسده المثقل بأشياء لا تحصى.

أخذ دربه نزولا، وخلّف وراءه البيت الواسع، أخذته الدروب الموحشة في أتربتها وغبار ذكرياتها، في روحه ثمة أمل بأن يجد من يقول لها الكلمة العالقة في حلقه منذ سنوات لا يعرف عددها.

تعفّــر جســـده بالتراب الذي تذروه الرياح كثيرا، ولم يستطع صون روحه من غبار تكاثف فحجب عنه رؤية أي شيء، رأى فيما رآه عصا والده معلم القـــرآن، وجهنم التي ودّ أن تحرق كل شيء إلا من أراد أن يقول لها يوما كلمة: أحبك.

الفهرس

1 - بوابات المدينة

2 - ما قالته الريح

3 - أغشية الرمل

4 - وقال الحاوي:

5 - الصفرد يعود غريبا

إصداراتنا

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	سرديات عمانية	نقد	محمد بن سيف الرحبي
2	على حواف الشعر	نصوص	محمد بن سيف الرحبي
3	خطى وأمكنة	رحلات	عبدالرزاق الربيعي
4	رحلة أبوزيد العماني (ط2)	رواية	محمد بن سيف الرحبي
5	حقول الكلام	مقالات	مسعود الحمداني
6	هذا الذئب يعرفني	نصوص	خالد بن علي المعمري
7	رحيق النار	نصوص	زهران القاسمي
8	الطبيعة في الرواية العمانية	دراسات	منى بنت حبراس السليمية
9	إيضاح الطريقة للفنون العريقة فن المسبع	شعر	خميس بن جمعه المويتي
10	إيضاح الطريقة للفنون العريقة التغرود	شعر	خميس بن جمعه المويتي
11	قديس يحلق بعيدا	شعر مترجم	ترجمة/ أشرف أبو اليزيد
12	مظلة الحب والضحك	نصوص	بشرى خلفان

اصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

1	لعيني ديالى	نصوص	محمد بن حبيب الرحبي
2	الخيمة ومفاتيح الحظ	مسرح	عزة القصابية
3	لآلىء عربية	مقالات	ناصر بن حمود الحسني
4	بين قدرين	رواية	رأفت ساره
5	تحت المطر	مقالات	خالد بن علي المعمري
6	المشهد القصصي في الأردن	دراسات ونصوص	مجموعة كتاب أردنيين

إصداراتنا بالتعاون مع البرنامج الوطني لدعم الكتاب بالنادي الثقافي

1	النباتات البرية في سلطنة عمان	علوم	يحيى بن سعيد الفطيسي
2	ابن عربي عندما يكون الحب حائرا	دراسات	عثمان بن موسى السعدي

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للمسرح

1	الآخر في المسرح العماني	دراسة	د. كاملة بنت الوليد الهنائية د. سعيد بن محمد السيابي

طبع بمطابع مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان

نوارس الحكايات

قبل أن تسقط حكاياتنا من شفاهنا تلقفناها بزادنا من الكلمات فأسمينا كل حكاية "قصة قصيرة"..
والتأم شملها في مجموعة إثر مجموعة، حكايات تروي زمنها، زمن الكتابة، وزمن الوعي.. خمس خطوات، بها من أخطاء التجربة، وقصورها، ما لا يمكن القفز عليه، لأنه ما يعطي التجربة صدقها، والدرب خطوته الحقيقية بمنأى عن المراجعة والحذف والتعديل.
عشرات الحكايات تناثرت عبر تاريخ اكتشافي للحكاية، سقط بعضها في منتصف التجربة وزحامها فأعدتها لتكون هنا، مستبقيا الدلالات والإشارات على التجربة في عمومها، خطواتها الأولى.. وكيف مرّت على جسر التجارب لتصل حيث وضعت النقطة الأخيرة في السطر الأخير من آخر قصة.





بيت الغشام
للنشر والترجمة



ISBN 978-99969-55-22-8